الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل–

كلية الآداب واللـغات قسم اللغة والأدب العربي

موضوع المذكرة

رَمْزيَةُ الحَيَوَان في شِعرِ طَرَفَة بن العَبْد

مـذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إعداد الطالبة: إشراف الدكتور:

– دلال بوقصة –عدلان رويدي

أعضاء لجنة المناقشة:

الدكتور: بلال العفيون ..... رئيسـا

الدكتور:رويدي عدلان .....مشرفا ومقررا

الدكتور:نجيب جحيش.....عضـوا مناقشا

السنة الجامعية:

2019/2018 م

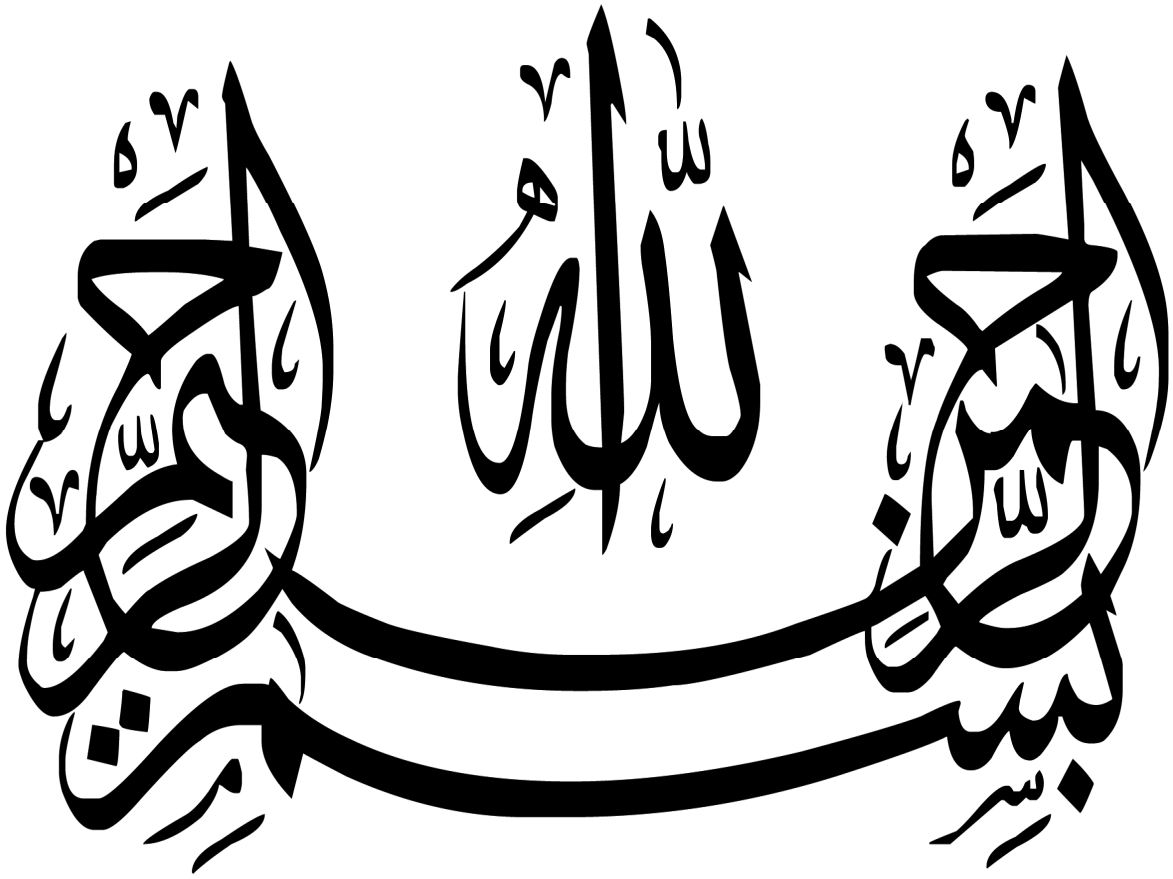
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أشكر الله تعالى الذي وفقني في إنجاز هذا العمل المتواضع، وأعانني على إكماله وبأسمى عبارات التقدير والاحترام أتقدم بجزيل الشكر الخالص إلى الأستاذ المشرف "عدلان رويدي " الذي لم يدخر جهدا في إعانتي وتوجيهي بعلمه الراسخ الذي استفدت منه الكثير، إذ سهل علي مسار العمل بنصائحه القيمة وتوجيهاته الصادقة لي فأرشدني إلى أحسن الأمر وأفضله وجعل طريقي مفروشة بالتحدي أمام كل الصعاب .

وأشكر كل من كان له دور في مساعدتي ونقل العلم إلي إما بكتاب نافع أو بنصيحة مفيدة أو بدعاء .

مقدمة

مقدمة:

اختار الشاعر الجاهلي العيش في بيئة شبه الجزيرة العربية بين عوالم مختلفة، فهو بطبعه ينقاد لماتمليه عليه رغباته النفسية وميولاته الفكرية، فكان عالمه المفضل هو عالم الحيوانات بأنواعها الأليفة والوحشية، فَكَوَن علاقة وجودية، حكَمتها عوامل اجتماعية وجغرافية ونفسية، فرضت عليه الانعزال والانفراد وحيدا بعيدا عن عالم الإنسان المليء بالشرور، خاضعا لسلطة قبلية قيّدت وجوده، وكبحت رغباته، لكنه اختار بإرادة حياة جديدة شعارها التّرحال، فارتبط في رحلاته بحيوانات كثيرة استعمرت كيانه ، لفتت انتباهه، فتغنى بها وخلَّدها في نصوصه الشعرية.

فكانت الطبيعة بالنسبة لهؤلاء الشعراء عالمهم المقدس، ومصدر إلهامهم الروحي، ومنبع وحيهم الشعري، فكانوا يهربون من الواقع ليستأنسوا بالطبيعة ويتخذوا منها عالما بديلا عن عالمهم، هذا ماجعلهم يتخذون من حيواناتها وطيورها رموزا، حاملة لدلالات عديدة تخص المجتمع البشري، ثمّ يوظفونها في قصائدهم معبّرة عن قيمهم النبيلة السامية، وعن الجمال المادي الروحي، فنحتوا بذلك لوحات فنية زخرت بصور تلك الحيوانات.

وكان طرفة بن العبد من هؤلاء الشعراء الذين تأثروا بالحيوان، فاقترنت روحه واتحدت مع حيوانات مختلفة، استحضرها في قوالب رمزية مضفيا عليها نزعته الإنسانية والفكرية، وهذا مافرض علينا تساؤلات عديدة تخص موضوع بحثنا المعنون بـ :"رمزية الحيوان في شعر طرفة بن العبد"، ومن أهم هذه التساؤلات:

- ما هي الحيوانات التي حظيت بحضور قوي في شعر طرفة بن العبد ؟
- ما هي الأبعاد الدلالية والرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد ؟
- وهل تلك المعاني الرمزية لدلالة الحيوان تحاكي الواقع المعيشي لحياة الشاعر طرفة بن العبد؟

وكغيرنا من الباحثين لم يكن اختيارنا للموضوع عبثا أو اعتباطا، وإنّما هذا راجع لدوافع منها، الذاتية والموضوعية:

فالدوافع الذاتية: ترجع إلى:

- الشغف في دراسة الشعر الجاهلي.

– الرغبة في اكتشاف العلاقة الرابطة بين الحيوان والشاعر الجاهلي في بيئته .

أما الدوافع الموضوعية:فترجع إلى:

–محاولة استكناه أسرار البيئة الجاهلية وأثرها في حياة الإنسان الجاهلي من خلال الحيوان.

– ظاهرة أنسنة الحيوان في الشعر الجاهلي تبلورت في رموز جمالية، بعثت فينا فضولا كبيرا من أجل معرفة أهمية الحيوان في نفسية الشاعر الجاهلي.

– درجة الاهتمام بالحيوان اختلفت من شاعر لآخر، فتبيّنت بذلك المعاني الرمزية وتعددت بتعدد ميولات هؤلاء الشعراء، هذا دفعنا إلى محاولة استنطاق الإيحاءات الرمزية لتبوح عن المعاني الحقيقية لدلالات الرموز التي تحاكي الواقع المعاش للشاعر في صورة الحيوان.

– ارتباط مصطلح الرمزية الحديث بالحيوان في الشعر الجاهلي، بعث فينا اهتماما بالغا من أجل تتبع خصائص الرمزية في الأدب الجاهلي التي ارتبطت بوصف الحيوان عند الشعراء الجاهليين.

– قلة الأبحاث والدراسات حول شعر طرفة بن العبد، التي تشتغل على دراسة الرمز في شعره، على غرار الشعراء الجاهليين، فكان الرمز من المواضيع التي أردنا الخوض فيها والوقوف على جمالياتها، لارتباطه بالحيوان في شعر طرفة بن العبد.

وترجع أهمية بحثنا بالأساس في رصد أهم الدلالات الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد، التي تعبر عن مكانة الحيوان في نفسيته، وأثرها في حضور وغياب بعض الحيوانات داخل نصوصه الشعرية، وأيضا إظهار الارتباط المعنوي والروحي بين الشاعر والحيوان، الذي تولد في رموز مختلفة حاولنا تتبع معانيها الخفية التي تكشف عن أثر البيئة في إبداع الشاعر.

وهدفنا من وراء هذا البحث هو اكتشاف الدلالات الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد، وتتبع إيحاءاتها العميقة، ورصد مختلف الصور التي رسمها الشاعر للحيوان في نصوصه الشعرية، وفهم أبعادها الرمزية، وتقديم قراءة عميقة لمعاني الرموز بتأويلات مختلفة، من أجل إصابة المعنى القريب لرمزية الحيوان، التي تكشف عن الأغوار النفسية للشاعر بمرجعيات عديدة.

وطبيعة موضوعنا المتمحور حول رمزية الحيوان في شعر طرفة، اقتضت منّا اتّباع المنهج السيميائي التأويلي، الذي كان ملائما للدراسة التطبيقية، بالتحديد في تحليل قصائد وأبيات شعرية احتوت رموزا لحيوانات عبّرت عن سياقات ومرجعيات مختلفة، ساعدت على تفكيك الدلالات الرمزية للحيوان داخل أنساق النص الشعري.

وبالتالي ساعدنا هذا المنهج على اكتشاف أثر العلاقة الرابطة بين الحيوان والشاعر الجاهلي، برموز فنية موحية.

وقد اقتضى منّا موضوع البحث اعتماد خطة مكونة من مقدمة وفصل تمهيدي ثمّ فصلين نظري وتطبيقي وخاتمة؛ كان الفصل التمهيدي متضمنا مجموعة من المفاهيم حول الرمز والرمزية، حيث تطرقنا إلى مفهوم الرمزية الأدبية وأهم خصائصها، خاصة التي تؤكد حضور الرمزية كفن أدبي في الشعر الجاهلي.

أمّا الفصل الأول، الذي يمثل الجانب النظري جاء بعنوان رمزية الحيوان في الشعر الجاهلي، تضمن أربعة عناصر هما: الأول رمزية الناقة في الشعر الجاهلي، والثاني رمزية الفرس في الشعر الجاهلي، وكان العنصر الثالث مخصص لرمزية الحيوان الوحشي، أما العنصر الأخير فتناولنا فيه رمزية الطير في الشعر الجاهلي، حيث تمّ التطرق إلى عدة شعراء تناولوا في قصائدهم هذه الحيوانات، فاستوحينا من أوصافهم رموزا مختلفة تحاكي واقعهم المعاش، كامرئ القيس، لبيد بن ربيعة، النابغة الذبياني...الخ.

وخصصنا الفصل الثاني للجانب التطبيقي الموسوم بالدلالات الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد، الذي يمثل جوهر بحثنا حيث تناولنا فيه حياة الشاعر طرفة بن العبد، وشعره ، ثم عملنا على قراءة عميقة لديوانه، واستخراج الحيوانات المذكورة في شعره وإبراز معانيها الرمزية و الدلالية في النص الشعري.

ومنتهى البحث كله حصر في خاتمة جمعنا فيها أهم النقاط والنتائج المتحصل عليها في الدراسة التطبيقية.

ومن باب الأمانة العلمية وحتى لا نبخس الناس أشياءهم، ينبغي الإشارة إلى الدراسات السابقة التي طرحت الموضوع، وكانت هذه الدراسات عبارة عن كتب ورسائل جامعية ومجلات علمية ، نذكر منها:

– كتاب الحيوان في الأدب العربي لشاكر هادي شكر، قدّم فيه إلمام شامل ومعرفي لجميع الحيوانات جاءت أسماؤها مرتبة ألفبائيا، مع أمثلة شعرية قيلت عنها.

– صورة الناقة في تجربة الشاعر الجاهلي أنموذجا، وهي رسالة تناول فيها صاحبها حيوان الناقة وصوره المختلفة عند الشعراء الجاهليين.

– صورة أمومة الحيوان في الشعر الجاهلي، عالج هذا البحث الأمومة عند الحيوان لدى الشعراء الجاهليين بتشكيلات فنية وبلاغية.

– رسالة دكتوراه بعنوان: الأبعاد الفكرية والنفسية لوصف الحيوان في القصيدة الجاهلية، قدم فيها صاحبها أوصاف لحيوانات مختلفة مستحضرا أبعادها الفكرية والنفسية في ثنايا الوصف.

وقد اعتمدنا في انجاز بحثنا هذا على جملة من المصادر والمراجع، من بينها:

– الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، مصطفى عبد الشافي الشوري.

– الأسطورة والرمز في الشعر العربي القديم، إسماعيل محمد عبد العاطي

– الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، حسني عبد الجليل يوسف.

– الأدب الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، منذر ذيب كفافي.

– الصحراء في الشعر الجاهلي، أحمد موسى النوتي.

– الصورة الفنية أسطوريا دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، عماد علي الخطيب.

– الناقة في الشعر الجاهلي، حنا نصر الحتي.

– الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري حموي القيسي.

إضافة إلى بعض الدواوين الشعرية: ديوان طرفة بن العبد، ديوان امرئ القيس، ديوان عبيد بن الأبرص، ديوان عنترة بن شداد، ديوان المتلمس الضبعي، ديوان النابغة الذبياني،...الخ.

كانت استفادتنا من هذه المصادر والمراجع كبيرة، ساعدتنا في تتبع رمزية الحيوان في أشعار الجاهليين من خلال تحليل نصوصهم الشعرية.

أما الصعوبات التي اعترضتنا في طريق بحثنا راجعة إلى صعوبة فهم معاني ومفردات المعجم الشعري الجاهلي بسهولة، مع قلة المصادر والمراجع التي تتحدث عن رمزية الحيوان في الشعر الجاهلي، إلى جانب هذه الصعوبات ضيق الوقت.

في الأخير أتقدم بجزيل الشكر والاحترام لأستاذي المشرف، وتوجيهاته القيِّمة التي كانت سببا في انجاز هذا البحث.

الفصل التمهيدي

الرمز والرمزية قراءة في المفهوم والنشأة والخصائص

لقي الرمز منذ القديم اهتماما كبيرا من قبل النقاد والأدباء، فاكتسب حضورا قويا في ميدان الشعر والأدب وباقي الفنون الأخرى، إذ أنه أصبح الوسيلة والأداة التي يستعين بها جلّ الشعراء والأدباء، في التعبير عن خلجاتهم النفسية ومكنوناتهم الشعورية، برموز إيحائية تختزن مدلولات عميقة لها معاني بعيدة تميل إلى درجة الغموض و ذلك بدل التصريح، فألبسوا قصائدهم زيَ الإبهام و التعقيد، و ليس ببعيد عن ذلك إلى أن تشكلت مذاهب فكرية وأدبية نثرت بذور التجديد في ساحة الأدب و الفن وخاصة الشعر، تميزت باتجاهات ورؤى مختلفة فتعددت بتعدد ميولات أدبائها الفكرية و الثقافية، فتبلور في مؤلفاتهم الإبداعية تيار أو مذهب أدبي جديد ترعرع في الغرب، يطلق عليه الرمزية امتدت فروعه إلى قصائد الشعراء المعاصرين، كما أنه لا يمكن إنكار حضورها وتجلّياتها الفنية في أشعار العرب القدامى، وذلك عبر العصور المختلفة،كانت حاضرة كاستعمال فني إلاّ أنها غابت كتسمية، ولم تظهر إلاّ في العصر الحديث كمفهوم وكحركة أدبية تبناها النقاد والدارسين داخل أبحاثهم.

والرمزية كمذهب أدبي اتكأت على أسس ومبادئ ساعدت على نموها وانتشارها، اتسمت بخصائص ميَّزتها عن باقي المدارس الأدبية الأخرى، لها منهجها الفني الخاص الذي يفصل أسسها عن أسس المذاهب الأخرى التي سبقتها.

أولا : مفهوم الرمز وأنواعه وأغراضه:

1– مفهوم الرمز:

1–1– لغة:

وردت كلمة الرمز في لسان العرب كلمة الرمز في باب رمز ويعني :« تصويت خفيٌ باللِّسان كالهمسِ، ويكون تحريك الشَّفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، وإنَّما هو إشارة بالشَّفتين وقيل: الرمز إشارة، وإيماء بالعينين والحاجبين والشّفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين »[1].

كما ورد الرمز في "معجم العين" كما يلي:«رمز: الرّمازة: من أسماء الدبر، والفعل رمزَ يرمزُ، أي يَنْظَمُّ، والرمز باللِّسان: الصوت الخفي، ويكون الرّمز الإيماء بالحاجب بلا كلام، ومثلهما بالهمس، ويقال للرجل الوقيد

[1]– ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د ت)،مادة: (رمز).

ارتمز، وقد يقال للجارية الغمّازة الهمّازة بعينها، واللّمازة بفمها: رمّازة، ترمز بفمها، و تغمز بعينيها ويقال: الرّمز تحريك الشفتين»[1].

وجاء أيضا في القاموس "المحيط" "للفيروزآبادي" ما يلي: «الرمز و يضمُّ ويحرّكُ: الإشارة، أو الإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو الفم أو اليد أو اللسان، يرمُز ويرمز »[2].

مفاهيم الرمز لغويا دارت حول معنى الإشارة والإيماء فهو كل مايشار ويلمح إليه بطرق مختلفة.

1-2- الرمز اصطلاحا :

1-2-1- عند العرب:

يعدُّ الرمز من القضايا الجوهرية التي استقطبت آراء الأدباء من الشعراء القدامى والمحدثين، فاعتنوا به في نصوصهم الإبداعية، بغرض تحقيق جمالية فنية أساسها الغموض والإبهام، واكتسبت قصائدهم سمة التعقيد والبعد عن المألوف.

هذا وقد أثار ضجّة كبيرة في الأوساط الأدبية والفنية على إثرها تعددت مؤلفات الدارسين العرب، فتعددت اتجاهاتهم بذلك مما أفضى إلى اختلاف مفاهيم الرمز، عند كل دارس باختلاف معاييرهم ومشاربهم العلمية والثقافية، وعند تحديدنا لمفهوم الرمز عند العرب نجد "سمير الدروبي" في كتابه "الرمز في مقامات السيوطي" يقول:«ويلاحظ أنّ جمهرة البلاغيين والنّقاد العرب القدماء قد انقسموا فريقين بشأن اصطلاح الرمز»[3]

أما بالنسبة لتحديد مفهوم الرمز عند النقاد العرب وعلماء البلاغة القدامى، فنجدهم انقسموا إلى اتجاهين، وكل اتجاه قدّم مفهومه الخاص للرمز وفق نظرياته و معاييره المستند عليها، فالفريق الأول «جعل الرمز نوعا من الإشارة، معنى الإشارة أنّها في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يُعرف مجملا، ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه»[4]؛ إذ أنَّهم جعلوا من الإشارة عنصرا أساسيا يقوم عليه الرمز، والذي يعني التلميح والتلويح بفحواها،

---

[1]- الفراهيدي (الخليل بن أحمد): كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، مادة:(رمز).

[2]- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، تح: أبو الوفاء نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2008م، مادة:(رمز).

[3]- سمير الدروبي : الرمز في مقامات السيوطي "مقامة الرياحين أنموذجا"، دار البشير، عمان، ط1، 2001م، ص20.

[4]- م ن، ص ن.

فتصبح الكلمات حاملة لمدلولات ذات إيحاءات عميقة وبعيدة كل البعد عن ما هو ظاهر، فصيَّروا الإشارة لونا من ألوان الرمز فهي تحتوي الرمز بكل المعاني الخفية، «ويعد ابن رشيق من الأوائل الذين أشاروا إلى الرمز في المصطلحات البلاغية و النقدية حيث جعله من أنواع الإشارة »[1]، ويأتي ابن رشيق في مقدمة البلاغيين العرب اللذين عالجوا معنى الرمز في مؤلفاتهم البلاغية، و يعني عنده : «الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ثم استعمل حتى صار الإشارة »[2]؛ إذن فالرمز هو الإشارة التي تربطه بالمعنى الخفي من خلال حركات وإشارات مختلفة، تشير إلى ما وراء الظاهر، وبالتالي تعكس ما تقصده الذات الداخلية بإشارات بعيدة ترتدي الخفاء والغموض.

علينا القول أن: «ابن رشيق من أوائل من أشاروا إلى الرمز في المصطلحات البلاغية و النقدية، حيث جعله من أنواع الإشارة، وألمح إلى تباعده في الخفاء، ونأيه عن الإدراك و ذلك ما يقترب من الرمزية المعاصرة »[3]، ويبقى "ابن رشيق"من بين البلاغيين الذين جنحوا للرمز في مؤلفاتهم البلاغية والنقدية، وقال بأنه يعني الإشارة.

كما يعتبر "الجاحظ" من أوائل البلاغيين الذين جعلوا الإشارة نوع من أنواع الرمز، حيث أطلق عليه اسما آخر هو الدَلالة موضحا ذلك في قوله أن: «جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد أوّلها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال»[4]، فدلالة الرمز عند الجاحظ تتكئ على عنصر هام هو الإشارة، إذ أعطاها ترتيب ثاني نظرا لأهميتها بعد اللفظ، فهي تصحبه وترافقه بحركات وإيماءات مساعدة على إيصال المعاني البعيدة الموحية بدلالاتها المختلفة، فقد ركز بدقة على مدى أهمية الإشارة بالنسبة للرمز فلا يستغني أحدهما عن الآخر؛ إذ لا يقوم الرمز بعيدا عن الإشارة حتى تتم عملية الترميز بصورة كاملة وبدقة متناهية هذا وفيما يخص الفريق الأول الذي ترأسه ابن رشيق أدخلوا الرمز في باب الإشارة.

أما الفريق الثاني فقد «أدخل الرمز في باب الكناية، و يبدو أن عبد القاهر الجرجاني من أوائل البلاغيين الذين قارنوا الرمز مع الكناية وجعلوه قريبا منها»[5]، و الرمز في هذا الاتجاه يعني الكناية نظرا لتشابهه معها في العدول عن التصريح والبعد عن المعنى الأصلي للكلمة في السّياق، فيشتركان معا في التَلميح و التَلويح، وكذلك

---

[1]– السعيد بوسقطة : الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة ، (د ط)، (د ت)، 2008م، ص25.

[2]– سمير الدروبي: الرمز في مقامات السيوطي "مقامة الرياحين أنموذجا"، ص ص 20، 21.

[3]– مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي، مكتبة التوبة ، الرياض، ط1، 1993م، ص 26.

[4]– السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، ص26 .

[5]– سمير الدروبي: الرمز في مقامات السيوطي، ص21.

التعريض بالإشارة إلى معنى آخر غير المعنى الأصلي، دون الإفصاح بذكره و ما هو معروف في الرمز فإنه يعني الإيماء والإشارة و كذلك الكناية، فعبد القاهر الجورجاني قد جعل الرمز هو الكناية في مفهومه.

وإلى جانبه يأتي بلاغي آخر هو "السكاكي" الذي يرى أن:«الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، و الكناية عنده إن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء (...)كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسبا »[1]، بهذا فهو يشير إلى أقسام الكناية المعروفة التي تتوافق في قربها من الخفاء، مع الرمز بدلالته الخفية المستترة وراء الألفاظ، وبطبيعة الحال يصير الرمز مرادفا للكناية بأقسامها الخمسة، و معنى الرمز عند "السكاكي" «هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية »[2]؛ أي هو الإشارة للشيء بخِفية دون إفصاحٍ، والتلميح دون التصريح، ليلتقي بذلك مع جوهر الكناية في صفة الخفاء بعيدا عن الجلاء، يعتمد الغموض لأخذنا بعيدا عن المعنى الحقيقي المعروف بألفاظ تعبيرية مجازية.

مما سبق اتضح لنا مفهوم الرمز عند البلاغيين القدامى من خلال وجود فريقين؛ فالأول كان مع "ابن رشيق" الذي جعل الرمز يحمل معنى الإشارة وأنه جزء منها إذ لا ينفصل أحدهما عن الآخر، بينما الفريق الثاني مع "عبد القاهر الجرجاني" الذي جعل الرمز من أنواع الكناية، ليصبح قسما من أقسامها يحمل معنى الخفاء في اللزوم، بالإضافة إلى صفة التلميح والتلويح والإيماء، ويتجلى لنا الرمز من منظور البلاغيين العرب في معنيين، هما الإشارة والكناية، وكلا الاتجاهين يرى فيه التقنية الفنية أو الوسيلة التي تُعرِّف بالقدرات اللغوية والفنية للأديب، و مدى درجة تفوقه في استخدام الإشارات والإيحاءات ذات الدلالات البعيدة، التي توحي بالغرابة والغموض والتي ترمينا بعيدا عن المعنى الأصلي.

أما الدراسات العربية الحديثة، نجدها هي الأخرى احتضنت مفاهيم متعددة للرمز، في أبحاثهم و مؤلفاتهم فأخذت معاني مختلفة، وقد أشار"غنيمي هلال" إلى معنى الرمز في قوله: "ومن معاني الرمز أيضا الإيحاء، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالاتها الوضعية،و الرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طرق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية و التصريح »[3]، أشار في تعريفه إلى أن الإيحاء هو المعنى الأول للرمز، ويكون منبعثا من الخلجات النفسية وتضارب المشاعر الذاتية

[1] – سمير الدروبي: الرمز في مقامات السيوطي، ص21.

[2]– م ن، ص ن.

[3]– ناصر لوحيشي: الرمز في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2011م، ص10.

التي لا تقدر الكلمة على استيعاب دلالاتها؛ فهو يعتبر الأداة الفاعلة لدمج تلك الأحاديث النفسية والمشاعر الذاتية بميولات حسية مختلفة، بإشارات إيحائية تعبر عنها بطريقة غير مباشرة بعيدا عن التصريح، فالرمز يشكل القوة التي تحجب المكنونات النفسية الباطنية فيخرجها في رموز وإشارات غير مباشرة.

و يُعرِّف أحد الباحثين الرمز بأنه: «شيء حسّي يعبر بإشارة إلى شيء معنوي لا يقع تحت الحواس، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشيئين بهما مخيلة الرامز»[1]، ويكون الرمز نابعا عن الأحاسيس النفسية و المشاعر الذاتية التي تتشابه مع الموجودات المعنوية، فينقلها الشاعر في شكل رموز مستندا على خياله الشاسع، نظرا لوجود صلة رابطة بين الأحاسيس وما يساويها من أشياء معنوية قائمة على خيال الرامز، فالرمز ينبثق من المشاعر التجريدية التي تدفع به إلى الظهور علنا بصورة فنية.

و جاءت "وفاء محمد إبراهيم" بمفهوم آخر للرمز حيث ترى بأنه:«مبدأ مكوّن وشكل يصوِر معنى ودلالة تحتوي مضامين مختلفة تطابق فيها كل صور مضمونها في وحدة عضوية حيّة، وتضيف أن الخيال هو القوة الدافعة للرمز في أشكاله المختلفة»[2]، قد يلعب الرمز دور التصوير عن طريق تقديم صورة مشكلة من الأحاسيس والهواجس الذاتية المختلفة، فتتطابق بذلك مع الحالة الشعورية التي يعيشها الفنان حول موضوع ما، ليكون الرمز المرآة الصادقة لتلك المشاعر، بصور مستندة على قوة خيالية مبهرة تجعل العقل يرسم رؤى بعيدة وتأويلات تفسيرية لهذه الصور الرمزية.

ويشير "مسعد بن عيد العطوي" إلى مفهوم الرمز عند "علي العُشري" فيرى أنه «حاول أن يقيس مفهومه للرمز من نظرة العرب للفظ و المعنى، و يرى أن الرمز يستلزم مستويين: مستوى الأشياء أو الصور الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان نحصل على الرمز »[3]، وهو يعني بذلك أن الرمز يحمل المعنى الذي يتحقق، من خلال اندماج أو تداخل الصور الحسية مع الشيء المعنوي المرموز له، وانسجام المستوى الحسّي مع المستوى المعنوي يجعل الرمز في قالب فني جمالي.

---

[1]- نهى محمود نايل: الدلالات الرمزية والقيم الفنية لتيجان الآلهة في النقوش المصرية القديمة، (مخطوط ماجستير)، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، مصر، 2003م، ص53.

[2]- م ن ، ص55.

[3]- مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي ، ص30 .

يأتي مفهوم آخر يرى أن: «الرمز منحصر في معنى الإخفاء و الحجب لمعنى باطني غير ظاهر وراء معنى آخر مكين و جلل، وهو وطيد بالسّياق الذي يرِدُ فيه وبالتالي لا يمكن تأويله، إلا وفق ذلك السّياق فهو فاعل ومنفعل يؤثّر في السّياق و يتأثّر به»[1]، فالرمز يعمل على إخفاء المعنى الباطني و حجبه؛ إذ علينا الرجوع للسّياق حتى يصحّ تأويله و فهمه فالسّياق يؤثّر في الرمز كما يتأثّر به في حدوث عملية الانفعال بينهما، بالإضافة إلى ذلك نرى أن: «الرمز الأدبي على نحو عام و الشعري على نحو خاص لا يشير إلى دلالة محددة يتواطأ على إنتاجها جميع المتلقين، وإنّما يوحي بدلالات تجريدية غامضة تنمو نموا باطنيا من خلال نمو الرمز في داخل السّياق»[2]؛ بمعنى أن دلالة الرمز ليست وضعية كما يراها البعض، بل إن الرمز يصنع دلالة لوحده معتمدا على السّياق الذي ينتج دلالات ذات أبعاد غامضة.

من كل ما سبق يبقى مفهوم الرمز مشتملا على معاني مختلفة باختلاف أبحاث الدارسين، فأخذ معنى الإشارة و الكناية عند البلاغيين، كما يقوم على التلميح بدل التصريح حاملا المعنى الخفي للكلام، الذي يحاكي المشاعر والأحاسيس داخل العقل الباطن فيرسلها على شكل رموز إيحائية مستوحاة من خيال الرامز.

1-2-2- عند الغرب :

اختار النقاد والأدباء الغربيون أن يكون الرمز من القضايا الأساسية ومحور اهتمامهم داخل أبحاثهم و دراساتهم المتنوعة، فأخذ بذلك مفاهيم وتعاريف عديدة بتعدد مشاربهم العلمية والثقافية، وقد ارتقت أبحاث المفكرين والأدباء الغربيين أمثال "كانط" و"هيجل" و"رامبو" و"برغسن" ...الخ، فعكف هؤلاء على محاولة تقديم مفهوم شامل ودقيق لمصطلح الرمز، على الرغم من صعوبة تحديد المستوى المفاهيمي والمعرفي للكلمة، إلا أنها تكاد تدور حول معنى واحد مشترك، فنمضي إلى تحديد الجذر الأجنبي فنجد أن «كلمة الرمز symbole مأخوذة من اليونانية sun_bolon وتعني قطعة من الخزف أو الخشب تقسّم بين شخصين، بيد كل واحد منهما قسم يدلّ على هوية أحدهما ويثبت طبيعة صلته بالآخر»[3]، هذا من حيث أصل الكلمة عند الغربيين.

---

[1]- أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014م، ص19.

[2]- رائد فؤاد طالب الرديني: الرمز في قصيدة بانت سعاد قراءة في الدلالة النفسية، مجلة آداب الرافدين ، العراق، ع49، 2008م، ص2.

[3]- بسّام الجمل: من الرمز إلى الرمز الديني " بحث في المعنى و الوظائف والمقاربات"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، ط1، 2007م، ص13.

وعرّفته دائرة المعارف الإنجليزية بأنه: « المصطلح الذي يُمنح للشيء المحسوس، ويمثل للعقل شبه الشيء غير المرئي والذي يحس بالتعامل معه»[1]، فنحن نرمز إلى الأشياء المحسوسة – مادية أو معنوية – برموز وهذه الرموز تصير حاملة للشبه من هذه الأشياء، فتصير بذلك تحمل دلالة عليها مشتملة على إيحاءات مختلفة.

أما الفيلسوف"كانط" يرى أن: «للرمز كيانه الجديد الذي لا رابطة له بما قبله، وأنه يتمثل في أسلوب الرمز ذاته، فلا علاقة بين الأسلوب الرامز والمرموز له»[2]، في هذا الموضع نجده يفصل بين الرامز و المرموز له من الشيء المحسوس، و قطع الصّلة الرابطة بينهما، ليصبح الرمز كيانا مستقلا قائما بذاته منفرد بأسلوبه الخاص لا تربطه علاقة بما هو مرموز له.

ويضيف "كانط" قائلا: «فبعد أن ينتزع الرمز من الواقع يصبح طبيعة متقطّعة مستقلة بحد ذاتها ، وليس من علاقة بينه وبين الشيء المادي إلا بالنتائج»[3]، نرى أنه جرّد الرمز من الواقع ليكتسب بعد ذلك صفة الاستقلالية، فيصبح منقطعا عن الواقع المادي و الحسّي ، فينغلق على ذاته بمعنى أنه يُكوِن ذاته بذاته مستقلا عن العالم المادي و الواقعي، وتلك العلاقة لا تتجلّى إلا بالنتائج، فالرمز يترك نتيجة في ذهن المتلقي وهي الإشارة للمرموز له فيتم استحضاره من طرف المتلقي.

في حين يرى "هيجل" حول الرمز أن« القارئ يقوم بعملية الاستنتاج(...) فالاستنتاج في رأي هيجل يجمع بين مظاهر الكون، وهو رمز الانسجام الكوني والوحدة الأساسية»[4]، يلعب القارئ هنا دورا هاما في عملية استنتاج رموزا مستوحاة من المظاهر الكونية، من خلال ربط تلك الرموز بالأشياء المرموز لها، فمثلا نرمز لليل بالظلام فيصير الظلام رمز الليل، وغيرها من العناصر الكونية الأخرى التي يعطيها القارئ رموزا تعبيرية مختلفة، و «من ثمَّ فإن الرمز يدخل القارئ في عوالم لا حدود لها»[5]، فهو يدفع القارئ لاستكشاف تلك الدلالات العميقة النابعة من خيال الرامز.

إضافة إلى ذلك نجد الأديب والمفكر الألماني "غوتة" محللا معنى الرمز قائلا: «إن الرمز هو حالات ظاهرة تمثل عديدا من الحالات الأخرى و تستقطبها(...) و تؤثّر فينا تأثيرا مألوفا أو غريبا، و تجمع بين الذاتي والخارجي

[1]– مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي، ص12.

[2]– م ن، ص ن .

[3]– م ن، ص ن.

[4]– م ن، ص13.

[5]– ناصر لوحيشي: الرمز في الشعر العربي ، ص11.

وتوحّدهما»[1]، ربط معنى الرمز بالحالات الظاهرة التي يعيشها الإنسان فيتأثر بما يلتقيه من لحظات، سواء كانت فرحا أو حزنا، فيستحضرها على شكل رموز تعكس لنا الذات الباطنة المتأثرة بما هو خارجي؛ إذ يربط الرمز المنبثق عن الذّات الداخلية بالواقع الخارجي المحيط بها الذي أحدث فيها تأثيرا انصب في صورة الرمز، حاملا مدلولات باطنية عميقة تحاكي الظاهر الخارجي فينشأ اتصال وثيق بينهما.

ليأتي "بودلير" و يرى أن: «الرمز ليس صورة لغوية أو كلمة تستمد جمالها ممّا تدلّ عليه، بل هي واقعة أو تجربة حيّة ذات معنى روحي هو مصدر ما فيها من قيم جمالية»[2]، فالقيمة الجمالية للرمز مستمدة من الواقع والتجارب الشعورية التي يعيشها الشاعر، ليتحقق لدينا صدق المعنى الذي اكتسى صفة جمالية نابعة من الواقع الحي ،كما ينصب اهتمام "بودلير" على المعنى دون اللفظ، لأنه يحتضن التجربة الشعورية للشاعر المنبعثة من واقعه المحيط به.

ويبقى الرمز في حقيقته «شيء يعتبر ممثّلا لشيء آخر، و بعبارة أكثر تخصيصا فإنّ الرمز كلمة أو عبارة أو تعبير آخر يمتلك مركبا من المعاني المترابطة، وبهذا المعنى ينظر إلى الرمز باعتباره يمتلك قيما تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه كائنا ما كان، و بذلك يكون العَلَمُ قطعة من القماش يرمز إلى الأمة، والصليب يرمز إلى المسيحية»[3]، إذن فقيمة الرمز تختلف بحسب الأشياء المرموز لها فهي مستمدة من تلك الأشياء المحمولة على رموز إمّا كانت كلمة أو عبارة أو غير ذلك.

[1]- نهى محمود نايل: الدلالات الرمزية والقيم الفنية لتيجان الآلهة في النقوش المصرية القديمة، ص ص55، 56.

[2]- م ن، ص 54 .

[3]- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية، صفاقس، تونس، (د ط)، 1986م، ص171.

2- أنواع الرمز:

يحتكم الكثير من الشعراء إلى توظيف تقنية الرمز بأنواعه المختلفة، متجليا في أسلوب جمالي يستحضره الشاعر لبناء نصه الشعري، فتتكاثر تلك الرموز بأشكالها المتنوعة في ذهن المبدع، على غرار الوضع الذي يصادفه ضمن تجاربه الحياتية، فيندفع بقوة إلى توظيف رموز متنوعة تغذي مشاعره وانفعالاته الذاتية، تتوزع بحسب طبيعة نصه الشعري متأتية من مصادر متعددة، تعكس بذلك أصالة الشاعر الدينية والأسطورية والتاريخية، ومن بين الرموز الشائعة الاستخدام في قصائد الشعراء نذكر منها:

2-1- الرمز الديني:

يشكل الدين هوية الإنسان وكيانه الروحي، فلا يمكن أن تقوم الحياة بمعزل عن الدين، فذاتية الفرد منبعثة من أصالته الدينية والروحية التي تختلف باختلاف أعراقها وجذورها المكانية، ويعتبر الدين الغذاء الفكري للإنسان بل هو العقيدة التي يعيش من أجلها، فيرسم مجالات حياته برموز دينية تعبر عن عقائد مختلفة، استلهم من خلالها الشعراء تجربتهم الروحية بنمط ديني فتكون «العلاقة بين الرمز والدين علاقة وثيقة قديمة بدأت، مع اعتقاد الإنسان الأول أن القوى الخارقة الباهرة تختفي وراء المحسوسات»[1]، فيدمج الشاعر نصه الشعري برموز دينية مستقاة من عقائد مختلفة، فيتكيف معها بروح تعبيرية تصور شعائر أديان الشعوب الأخرى.

ويرى"عاطف جودة نصر" في كتابه "الرمز الشعري عند الصوفية" بأنه:«ينبغي ونحن ندرس الرمز الديني أن نميز بين الأديان البدائية والأديان العليا من حيث دور الرمز ومعناه، إذ ليس يخفى أن لدى البدائيين من العلاقة المتكاملة مع الطبيعة والكون، أكثر مما لدى شعوب المجتمعات المتحضرة»[2]، إن الأديان كانت تستعمل الرموز لتتميز، فلكل دين رموزا خاصة تحتوي معانيه وشعائره وطقوسه المختلفة، وهذا يتجسد لدى الأديان البدائية أكثر من غيرها، فيتجه كل شاعر إلى استحضار كل تلك الرموز الدينية ليرسم بها قالبه الشعري بمنظور رمزي له أبعاد دينية إيحائية.

---

[1]- ناصر لوحيشي: الرمز في الشعر العربي، ص12.

[2]- عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1978م، ص33.

كما أن:« الرمز الديني يمنح النص أبعادا نفسانية روحانية ميتافيزيقية جوهرانية، موغلة في مكونات الذات الغربية الإسلامية، مما ينتج عنه خلخلة لنمطية الإيحاءات الخطابية»[1]؛ إذ يعمل على الكشف عن الأبعاد النفسية والروحية الموغلة في الذات الإنسانية، فيرفع الغطاء على الطقوس الغيبية المتأصلة في جوهر الكيان الفردي، برموز تمدنا بإيحاءات دينية تكشف عن أصل الذات ، فقد يستحضر الشاعر رموزا تحمل أسماء لآلهة اليونان القديمة، أو يوظف أسماء لبعض الأنبياء فيتشبه بشخصيات، تتماثل مع ذاته الحاضرة.

2-2- الرمز الأسطوري:

استقى الشعراء مادتهم الرمزية من الأساطير القديمة الإغريقية أو العربية، التي تكشف عن الحضارات الأولى للإنسان كالبابلية والفرعونية، تعبر عن الوجود الإنساني وصراعه الدائم مع تحديات الكون مواجها أقدار الحياة، وغالبا ما ترتبط تلك الأساطير بالواقع الحاضر الذي يعيشه الشاعر، فالرمز الأسطوري حسب "عاطف جودة نصر": «نابع من الحدس الذي يعود باللحظة الحاضرة ويستقر في التجربة المباشرة، مقتنصا من خلالها انطباعا كليا مشوبا بالانفعال، إن هذه الرمزية الأسطورية وقد أهابت بالحدس، تنشئ معانيها ودلالاتها على نحو خاص يختلف عن المعاني التي يركبها الفكر المنطقي»[2].

يتحدد لنا أن الرمز الأسطوري صادر عن الحدس الذي يعيشه الشاعر خلال تجربته الشعورية الحاضرة، فيسترجع من خلالها رموزا أسطورية تحاكي تلك التجربة بمعاني حية، دلالاتها قائمة على دعائم أسطورية تتماشى مع انفعالات الشاعر وانطباعاته الذاتية، فيأتي برموز أسطورية تساير واقعه الحاضر تكون بعيدة كل البعد عن المنطق، وقريبة جدا من الحدس الذي ترعرعت فيه تلك المعاني الأسطورية، «كما يكشف الرمز الأسطوري عن نفسه بوصفه احتضانا للمتقابلات وتشبثا بالحاضر، فإنه يكشف لنا أيضا في هذه الهوية العتيقة بين الذات والموضوع، بين الاسم والمسمى، وتنبثق هذه الهوية من اندماج الشيء بمعناه، والرمز بموضوعه في وحدة عينية مباشرة»[3]؛ إذ أنه يعمد إلى تصوير التجارب الحاضرة مع ما يماثلها أو يقابلها من أساطير قديمة برموز نابعة عن خبرات إنسانية عميقة، تلخص لنا عِبَر إنسانية حية من خلالها تتحقق العلاقة الرابطة بين الذات والموضوع، وتفسر أسرار الذات البشرية باندماجها مع الموضوع وفق معاني أسطورية مرتبطة بالأشياء المرموز لها.

---

[1]- السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص45.

[2]- عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، ص27.

[3]- م ن، ص28.

إضافة إلى ما سبق «فالرمز الأسطوري يعطي الأولوية للصورة على اللغة والغرض منه في الأساس هو تكريس الصورة وما يرتبط بها من طقوس»[1]، تتجلى لدينا أفضلية الصورة عن اللغة، فهي تنسج لنا أساطير الشعوب المختلفة باختلاف حضاراتها وثقافاتها لتحقق روعة جمالية تفوق اللغة، لأن الصورة أكثر صدقا ووعيا في بعث تلك الأساطير من جديد تحت قناع الرمز، الذي يشمل الطقوس والعقائد والعادات العريقة بعراقة فكر الإنسان منذ نشأته الأولى، حيث اندمج فكره وعقله مع ما هو خرافي وخيالي لتفسير وجوده وما يحيط به من مظاهر كونية مختلفة، فيعمد إلى ربطها بحكايات خرافية تسحر العقل البشري، إذن«فالأسطورة تعتمد في بنائها على الحكاية»[2]،و الرمز الأسطوري يعود لتلك الحكايات الخرافية المنبعثة من خيال الفكر البشر، والتي نستحضر وجودها في القصائد الشعرية الحديثة وكذلك القديمة.

2-3-الرمز الذاتي:

تنمو داخل الذات الباطنة للإنسان ردودا مختلفة و أفعال سلوكية نتيجة الموقف الذي يحضرها، هكذا الشعراء أيضا فهم يعبرون عن ذواتهم وانفعالاتهم الداخلية برموز عميقة، تعبر عن أثر الحالة التي يعيشها ذلك الأديب أو الشاعر في مواضع كثيرة، فيبثها في رموز تحاكي متطلبات وأوضاع الواقع الخارجي.

والرمز الذاتي «هو ما يصدر عما يختلج في نفسية الشاعر،ويحوك بداخله، ويتأثر بالعوامل الخارجية، ويكون مصدر الشعور أو غير الشعور "اللاّشعور"»[3]، بمعنى أن الرمز الذاتي نابع عن لاشعور المبدع وهو يعكس أعماق نفسيته المتأثرة بتجارب الحياة الخارجية، فيتأتى ذلك برموز فنية عالجت الأثر الداخلي الذي يعيشه المبدع، في ظروف وملابسات مختلفة بلغة حسية تعبر عن أعماق الشاعر.

---

[1]- منى طلبة: الرمز في الأدب الأخروي تطبيق تأويلي على رحلة المعراج، مجلة إبداع، مصر، ع12،1997م، ص91.

[2]-م ن، ص ن.

[3]- مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي، ص66.

3- أغراض الرمز:

يعد استخدام الرموز أسلوبا مميزا يكون فيه المبدع على دراية تامة بكل رمز يوظفه، فيحقق له أهدافا تمكنه من بلوغ الأغراض المنشودة، من استخدامه لهذه الرموز التي تختلف باختلاف الحاجة إليها، نظرا إلى الطبيعة التي يعيش فيها كل شاعر، فتتفاوت بذلك أغراض الرمز من شاعر لآخر، فقد تكون ذاتية نابعة من نفسية المبدع أو من أجل تحقيق غاية فنية ذات صبغة جمالية، ونذكر أهم أغراض الرمز فيما يلي:

- يعتبر الرمز «وسيلة للتعبير عن زوايا غامضة في النفس لا تقوى لغتنا وهي لغة الجوامد أن تعرب عنها(...) ويجدر أن ينقشع هذا الستار المبهم الذي يكتنف الذات»[1]؛ أي أنه يعبر عن مكنونات النفس وما يكتنفها من غموض لا تقدر على حملها مفردات اللغة العادية، فيصيبها بذلك الجمود فيمنع قدرتها على الإفصاح عن جوهرها الخفي المضمر، أدى بالشاعر إلى ابتكار رموز بمثابة ذريعة، لها قدرة على هز تلك الجوانب الغامضة في الذات الباطنة، فتعكس صورة اللاّوعي داخل العقل الباطن برموز قادرة على استيعاب كل تلك الجوانب، إضافة إلى أن الرمز يعتبر لغة تكشف المجهول الخفي عن العين.

- بما أن جوهر الرمز هو الإيحاء وبالتالي فإنه « لا يقف على قدم الأشياء المادية ليصوره، بل يتعداها ليعبر عن التأثير الذي تتركه هذه الأشياء في النفس عندما يلتقطها الحس، فهو إذن لا يعبر عنها بقدر مايعبر عن الأجواء الضبابية المبهمة، التي تسربت إلى أصول الذات المتفرغة المتباعدة الأطراف والأصول»[2]، بذلك يتجاوز الرمز كل الأشياء المادية ليغوص في أغوار الأحاسيس والمشاعر التي تقيِّد النفس الإنسانية الباطنة، فيأتي الرمز ليؤدي دوره الإيحائي في التعبير عن كل ذلك بإشارات حسية عميقة.

- يتمثل غرض الرمز أيضا في« لجوء الشاعر إلى استخدام اللغة استخداما رمزيا، يهدف إلى اكتشاف الصّلة الحية التي تربط ذاته بالأشياء، ذلك لأن التجربة الشعورية هي التي تعطي للأشياء قيمة خاصة، بالإضافة إلى أن الرمز مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاص»[3]، فالرمز هو اللغة التي من خلالها يكشف لنا العلاقة الرابطة بين الذات الشاعرة مع الأشياء المرموز لها، والتي تكسب قيمتها بفعل التجارب الشعورية المتجسدة في ذات الشاعر فيستعين برموز تعبر عنها.

---

[1]- أنطوان كرم: الرمزية والأدب العربي الحديث، ص7.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص39.

– كذلك نجد أن « الرموز تلقي أضواء كاشفة على جوانب التجربة الإنسانية، وليست جودة القصيدة رهينة بما في عباراتها من بساطة مؤثرة، وإنما هي رهينة كذلك بما للرموز من قدرة تلقائية حية، على أن تجعل المضمون دالا»[1]، فمعيار جودة القصيدة يتمثل في تلقائية الرموز وما ينتابها من غموض، وما تستطيع تحقيقه من جمالية نابعة عن تجربة الشاعر تبعث الحياة في أعماق القصيدة.

– يُعَد «الرمز علاج ناجع للغة العاجزة لا تفي بكامل شروط الأداء فهو متمم لها يرفعها من عثرتها»[2]، فالرمز يعمل على جعل اللغة قادرة على استيعاب الحالات النفسية العميقة فيرسلها بشكل فني، يبرز من خلالها قدرة الشاعر اللغوية في جعله اللغة تتسم بالحركية بعيدا عن الجمود والركود الذي قد يصيبها بالعجز.

– كما أن «الرمز يطلق العنان للنفس حتى تنطوي على ذاتها لسبر غور بعيد، يحررها نوعا ما من العامل المنطقي العلمي المتجمد، إلى قوة أخرى لا تدرك قراره اللاوعي ألا وهي الحواس»[3]،إنّ الرمز يحرر النفس الإنسانية من الجمود الذي يقتل حيويتها وانفعالاتها، وكذلك من القيود العلمية التي كانت غالبة على العقل البشري في ذلك الوقت التي قيدت إبداعه الفني، فيعمل الرمز على فك تلك الأغلال متجاوزا العقل المنطقي إلى قوة أكثر إدراكا للمشاعر والأحاسيس وهي الحواس، بعيدا عن العقل والتغلغل في أغوار النفس والمشاعر المرهفة والبحث عن أسرارها.

– كذلك «الرموز سواء كانت قديمة أم حديثة، فالشاعر يقوم باستعادتها على أساس ارتباطها بالعصر الذي يتكئ عليها، لتكون بمثابة المسكن الذي يخفف من توتراته أو تكون بمثابة سفينة يمتطيها بحثا عن الخلاص»[4]،فيستحضر الشاعر الرموز التي تتلائم مع طبيعة مقتضيات عصره الذي يعيش فيه، بحالاته السياسية والاجتماعية وكذا النفسية، لتصبح بذلك الرموز بمثابة إطار يحضن بيئة الشاعر، فيلتقط من خلالها رموزا تعبر عن تجربته الشعورية ليخفف بذلك آلامه، أو يفصح عن أفراحه بمقاصد غير مألوفة لينقلها إلى القارئ فتخلق فيه نوعا من المغناطسية.

---

[1]– ناصر لوحيشي: الرمز في الشعر العربي، ص15.

[2]– أنطوان كرم: الرمزية والأدب العربي الحديث، ص7.

[3]– م ن، ص ن.

[4]– السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص42.

– الغاية من الشعر الرمزي هو «تجاوز العقل، فهو يخاطب ما في الإنسان دون عقل تقبيسات عقلية إيحائية هدفها امتزاج العناصر العاطفية مع الروحية والشعورية بترشيد عقلاني»[1]، الرمز يتجاوز العقل ليعبر عن الخلجات النفسية و الشعورية، القائمة بإيحاءات وإيماءات تلمس نبض العواطف والأحاسيس بطريقة غير مباشرة.

[1]– السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص45.

ثانيا:مفهوم الرمزية الأدبية:

شهد الأدب في بدايات القرن الثامن عشر نهضة فكرية و أدبية، جعلته يحذوا نحو التطور والإبداع في جميع اتجاهاته، تمثل ذلك في ظهور مجالس أدبية من أصول غربية حملت بذرة التجديد، نجم عنها بروز حركة فنية و أدبية كان الرمز أساسها تسمى بالرمزية، وقد ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في بيئة غربية، كما وصلت أصدائها إلى الشعر العربي الحديث فتأصل وجودها في الكتابات الأدبية، ويجدر بنا أولا تقديم المفاهيم التي دارت حول الرمزية عند الأدباء الغربيين و الأدباء العرب.

1-عند الغرب:

نجد "تشارلز تشادويك" أشار إلى «كلمة الرمزية مثل كلمة الرومانسية والكلاسيكية، قد يكون لها معنى واسع جدا، فقد تستخدم لتصف أي لون من ألوان التعبير الذي يشير إلى الشيء إشارة مباشرة بطريقة غير مباشرة»[1]، الرمزية كباقي الاتجاهات الأدبية الأخرى قد انفردت بأسلوب تعبيري خاص يميزها، سالكة نهج الرمز من حيث الإشارة إلى الشيء المرموز له الحاضر أمامنا بمعاني إيحائية تبتعد عن التصريح، فيلتقطها خيال القارئ محاولا الوصول إلى ما يرمي إليه الشاعر.

ويعرف "اليوت" الرمزية بأنها:«الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في شكل فني هي إيجاد معادل موضوعي، أي مجموعة من الأشياء أو المواقف أو سلسلة من الأحداث تكون في النهاية هي التركيبة المعادلة لهذه العاطفة، أو هي تركيبة هذه العاطفة على وجه الخصوص»[2]، يتجلى معنى الرمزية عند "اليوت" في الطريقة الأصح للتعبير عن العواطف والأحاسيس ثم خلق معادل موضوعي، يخلقه الأديب من ذاته ليتطابق بذلك مع الموقف الذي يعيشه الشاعر بتركيبة جديدة لتتحقق فنية التعبير، فيسعى الأديب إلى إيجاد ذلك المعادل الموضوعي الذي يوازي عواطفه، هذا حسب "اليوت".

أما "ستيفان مالارميه" عرّف الرمزية بأنها:«فن إثارة موضوع ما شيئا فشيئا، حتى نكتشف في النهاية عن حالة مزاجية معينة، أو هي فن اختيار موضوع ما ثم تستخرج منه مقابلا عاطفيا»[3]، فالرمزية حسب "ستيفان"

---

[1]- تشارلز تشادويك: الرمزية، تر: نسيم ابراهيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتب، (د ط)، 1992م، ص39.

[2]- م ن، ص40.

[3]- م ن، ص ن.

هي الفن الذي يهدف إلى إثارة عواطف القارئ حول موضوع ما وجعله مشوقا، فيكشف لنا انفعالات القارئ، فتتطابق بذلك مع الموضوع ليتعايش معه بصدق فني عميق، وعلى المتلقي أن يحسن اختيار الموضوع ليتناسب مع ذاته المنفعلة.

يقول "هنري دي رجنيير" وهو شاعر وكاتب فرنسي، «من المؤكد أن القصيدة الرمزية بهذا المعنى مبنية على الإبهام أو الغموض»[1]؛ فهو يرى أن الرمزية اتّكأت على باب الغموض في الشعر وابتعدت كثيرا عن الوضوح، فأصبحت الكلمات تتميز بالضبابية بشكل غير مألوف يسودها الإبهام والغموض، ويرجع الفرق بينهما إلى أن: «الإبهام نابع من النحوية واللغوية، وأما الغموض نابع من التكوين الفكري لا التعبير»[2]، بذلك يتضح لدينا الفرق حتى تتسع دائرة تلقي القصيدة الرمزية وإدراك صفة الإبهام الذي يكون في اللغة والنحو، أما الغموض فيتمثل في تعبير الكاتب وبالتالي فهناك من يعتبر أن «فلسفة الرمزية تمثل البذور والجذور الأساسية لانطلاقة الغموض، فقد قامت فلسفة رائد الرمزية "رامبو" على زراعة الغموض في تكوين نظرية الرمزية الذاتية فهو لا يهدف إلى تحديد المضمون، بل يعمد إلى شعر قابل للتأويلات المتعددة ومن جذور هذه الفلسفة»[3].

ناشدت الرمزية شعرائها إلى استخدام الغموض في قصائدهم لأنه أكثر وسيلة ساعدت على نقل الذات الإنسانية إلى الخارج، ومجافاة الأسلوب المباشر في التعبير القائم على الوضوح، فعبر الشعراء عن تجاربهم النفسية بأسلوب غامض ومبهم تسوده الضبابية، يجعل القارئ يُشغل فكره ويستدعي قدراته الخيالية، ليستطيع تفكيك الإيحاءات الخفية وتأويل معانيها بغرض الوصول إلى قلب حقيقة الشاعر وما يقصده من وراء غموضه المتعمد، وقد ينجح المتلقي في ذلك وقد يخفق بحسب قوته الفكرية ومدى أبعادها الخيالية، التي تأخذ بيده نحو التحليل والتأويل العميق.

وتشير الباحثة "أنّابلكيان" إلى كلمة الرمزية في كتابها "الرمزية دراسة تقويمية" إذ تقول:«مع أن معنى الكلمة غير دقيق، إلا أن مصطلح الرمزية أصبح عنوانا مريحا، يستخدمه مؤرخو الأدب للدلالة على عصر ما بعد

---

[1]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، الاتباعية، الرومانسية، الواقعية، الرمزية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، 1984م، ص 460.

[2]- مسعد بن عيد العطوي: الغموض في الشعر العربي، مكتبة الملك فهد، تبوك، السعودية، ط2، 1420هـ ، ص215.

[3]- م ن، ص217.

الرومانسية»[1]، وضحت بصفة عامة أن الرمزية هي فترة جديدة جاءت بعد عصر الرومانسية، كرد فعل على مبادئها باستحداث أسس جديدة تناسب عصرها الذي ظهرت فيه ولقيت رواجا كبيرا.

2- عند العرب:

ويشير "نسيب نشاوي" إلى مفهوم الرمزية قائلا:«الرمزية مدرسة أدبية خلفت البرناسية (الفن للفن) في الشعر واستقرت في الآداب الأوربية منذ عام 1880م، وهي أهم مذهب في الشعر الغنائي بعد الرومانتيكية، وقد تركت آثار عميقة في الشعر العالمي حتى اليوم»[2]، كما يمضي في وصف الرمزية بأنها «التعبير عن الأفكار والعواطف ليس بطريقة وصفها المباشر الواضح، ولا من خلال التشبيهات الظاهرة للخيالات الجامدة، وإنما تكون بوساطة وضع توقعات لماهية الأفكار والعواطف، وذلك بإنعاشها في عقل القارئ من خلال الاستعمال الرمزي غير الواضح»[3].

الرمزية كمذهب أدبي في الشعر قامت على التعبير عن الانفعالات الذاتية والمشاعر بمعطيات حسية، تتأتى في رموز وإشارات مبهمة وغير واضحة بلغة متشابكة نابعة عن حواس الشاعر الرمزي، لتلتقي مع عقل المتلقي محاولا إزالة الضباب المسلط عن تلك الرموز، باذلا جهده الخيالي لفهم هذه الإيحاءات وشرحها، و«المدرسة الرمزية هي تلك النزعة التي لا تهتم بالموضوع الجمالي كما هو في الخارج، بل تحاول أن تستبطن مشاعر الوجدان وتعبر عن الرؤى الجمالية دون التزام بحقيقة الشكل الخارجي، والرمزية بمثابة إشارات ورموز موحية معبرة دون أن تكون لها دلالات مطابقة للواقع الذي يمثل المنظور الطبيعي لعالم الأشياء»[4].

الرمزية أوعزت الأولوية للعواطف والمشاعر والأحاسيس المنبعثة من الذات الداخلية، التي تمنح للموضوع قيمته الجمالية في شكل رموز وإشارات موحية تكون منفصلة تماما عن الواقع الخارجي، بل تعبر عن العواطف الداخلية للذات المبدعة، فغاية الجمال هو التعبير عن تلك النزعة الذاتية لأنها تعج بتجارب وجدانية حقيقية، يسقطها الشاعر في شكل إيماءات حسية بصورة جمالية مجردة من الواقع الخارجي.

---

[1]- أنّا بلكيان: الرمزية دراسة تقويمية، تر: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1995م، ص23.

[2]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص461.

[3]- م ن، ص461.

[4]- نهى محمد نايل: الدلالات الرمزية والقيم الفنية لتيجان الآلهة في النقوش المصرية القديمة، ص56.

بلغ تأثير الحركة الرمزية الغربية كبيرا على الأدباء العرب في الشعر العربي الحديث، حتى إن مؤلفاتهم تناولت الرمزية بشكلها المفاهيمي، كما أن النقاد العرب في أبحاثهم تبيَن أن آرائهم حول الرمزية تكاد تكون مماثلة تقريبا لآراء الأدباء الغربيين في فرنسا وأمريكا، في هذا الصدد يذهب"فايز علي" في كتابه "الرمزية والرومانسية في الشعر العربي" موضحا «الرأي السائد بين النقاد هو أن الرمزية اتجاه في الأدب ظهر في فرنسا، في آخر القرن التاسع عشر، وقد اتخذ طريق الإيجاز والتلميح بدلا من التصريح في الشعر والدراما والموسيقى، بل في النقد الأدبي أيضا»[1]، فالرمزية في جميع ميادين الفن تعتمد على شدة الإيجاز فقد لا تتجاوز اللفظة الواحدة، وكذلك التلميح بدل التصريح للمرموز له، فهي تحتاج إلى قوة معرفية واسعة حتى يتسنى للقارئ فهمها وشرحها، ويبقى «الأدب الرمزي في أكثر الأحيان يعبر عن ناحية دقيقة من الذات، ولا شك أن الغموض أنسب إلى توليد الحالة الدقيقة الغامضة في النفس، لأنه من العسير التعبير عن الأغوار الذاتية في النفس الدائمة لحركة بشكل جامد واضح، والغموض هو المفتاح السحري الذي يفتح باب الأحلام»[2].

نستخلص من التعريفات السابقة أن الرمزية مذهب أدبي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر، كرد فعل على المدارس الأدبية الأخرى كالبرناسية والرومانسية، اعتمدت الرموز في التعبير عن المشاعر والعواطف الذاتية الباطنية بإشارات وإيحاءات، بطريقة غامضة تبتعد عن الوضوح والمباشرة؛ إذ تجعل من الغموض الوسيلة الأنجح للتعبير عن أغوار الذات وتفسير الحالات الإنسانية الغائمة.

[1]- فايز علي: الرمزية والرومانسية في الشعر العربي من امرئ القيس إلى أبي القاسم الشابي، دراسة في علاقة الشعر بالأسطورة، ص28.

[2]- تسعيدات آيت حمودي: أثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم، دار الحداثة، لبنان، ط1، 1986م، ص ص28، 29.

ثالثا : نشأة الرمزية الأدبية و أهم أعلامها:

1 – عند الغرب :

ظهر التّيار الرمزي في الغرب تحديدا في فرنسا ثم امتدت جذوره إلى انجلترا و أمريكا، حيث ثبت وجودها في كتابات المؤلفين الأوروبيين أمثال "شارل بودلير" و "فارلين" و"رامبو" و أيضا الأمريكيين أمثال "أدغار آلان بو" حيث «نشأ هذا المذهب وترعرع في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، و لم تعرف الرمزية مدرسة أدبية إلا في تمام عام 1886م على وجه التحديد(.....) ففي هذا العام أصدر عشرون كاتبا فرنسيا مقال "مانيفستو" نشر في جريدة الفيجارو le figaro الفرنسية يعلن عن الميلاد الرّسمي للمدرسة الرمزية »[1].

وقد تطور المذهب الرمزي حتى تفرعت جذوره و امتدت في انجلترا و أمريكا، فهيمنت على كتابات الأدباء الفرنسيين وكذا الأمريكيين يدعوا إلى تبني نزعة جديدة في الفن، حيث قام بفصل هذا الأخير عن الواقع الاجتماعي، وربطه بعالم العواطف والأحاسيس تحت شعار الفن للفن، و هنا أخذت الرمزية وجها جديدا في الأدب تنادي بالابتعاد عن الحياة الاجتماعية والعمل على تصوير الأحاسيس الذاتية للفرد، « ومع ذلك فإن النزعة الرمزية بوصفها تيّارا في الفن، استطاعت أن تلعب دورا رجعيا من خلال تحاشيها للواقع والانسحاب بالإنسان إلى مجال ما هو ذاتي صرف و باطني»[2]، والرمزية في ظهورها قد فصلت بين الواقع والفن وربطته بالأحاسيس النفسية، وهذا متجليا في كتابات الشعراء الرمزيين في أوروبا و« منذ أواخر الثمانينات أصبحت النزعة الرمزية أبرز تيار شعري في فرنسا، لقد انظم إلى هذا التيار أبرز الشعراء الفرنسيين آنذاك: بول فرلين، آرثر رامبو وستيفان مالارميه»[3].

لاشك أن لظهور هذه المذاهب ونشأتها كانت على أنقاض انهيار مذهب آخر سبقها، فتولدت على أثاره مذاهب أخرى جديدة بأسس أخرى كرد فعل على المبادئ والأفكار السابقة التي زالت، أتاحت للأدب عامة والشعر خصوصا أن يعيش مرحلة تطورية جديدة، بطابع فني خاص ميَّز كتابات أصحابه واتجهت به إلى فتح نافذة التجديد والإبداع في الشعر.

---

[1]– نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص466 .

[2]– جميل ناصف التكريتي: المذاهب الأدبية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1990م، ص 307 .

[3]– م ن، ص306.

وظهرت الرمزية كحركة فنية جديدة وازدهرت في أشعار الأدباء الأوربيين، الذين مهدو لها طريق الظهور بعد انهيار المذاهب التي سبقتها كالبرناسية والواقعية...، التي في نظرها قد جمّدت حركة الأدب والفن وقيّدت حرية الإبداع، هذا «وقد واكب انهيار المذهب الواقعي في تلك الفترة ظهور مذهب جديد بدأت بواكيره على يد"شارل بودلير" في ديوانه "أزهار الشر"سنة1857م، وتبلورت أسسه واتجاهاته في مؤلفات مجموعة من الشعراء الفرنسيين أخذوا يكتبون منذ سنة 1880م، ونعني بذلك المذهب الرمزي»[1].

نخلص إلى أن ظهور المذهب الرمزي كان في أواخر القرن التاسع عشر، كمذهب شعري جاء كرد فعل على الواقعية والطبيعية والبرناسية...، التي قتلت روح الإبداع وجمدته بحصره في الواقع، وبرز ذلك في كتابات الشعراء الغربيين على رأسهم "شارل بودلير" في ديوانه "أزهار الشر"، واستقلت كحركة فنية قائمة بذاتها في عقد الثمانينات تحديدا عام 1880م، و «هكذا ارتفع في أواخر القرن التاسع عشر إعصار التمرد ضد "الوضعية والطبيعية والبرناسية"، طغاة العصر الثلاثة الذي ينبغي محاربتهم، وعلت صرخات تنادي بتحرير كل ماخنقته المادية مدة طويلة، ألا وهو هذا العالم المقدس الذي هو النفس، وكل ماتموج به من انفعالات ورغبات وأحلام»[2]، الرمزية في ظهورها تمردت على الاتجاه الوضعي القائم على النزعة العلمية، كذا المذهب الواقعي والبرناسي الذي ربط الفن بالحياة الاجتماعية، فجاءت الرمزية لتحرير الفن من الواقع المادي وربطه بعنصر أساسي في الحياة هو النفس، من خلال ما يجول في خاطر الشعراء من عواطف ورغبات حسية، وانفعالات تجلت في أشعارهم والتركيز على أحوالهم النفسية.

ويشير"مسعد بن عيد العطوي"، في كتابه "الرمز في الشعر السعودي"، في قوله أن «الفترة التي ازدهرت فيها الرمزية وهيمنت على سائر المذاهب في فرنسا فإنها تبدأ من عام1880م وظلت في قوتها حتى عام1920م»[3]، وقد مرت الرمزية في تاريخ ظهورها بمرحلتين أساسيتين:«المرحلة الأولى تنتهي عام 1890م، وهي عصر الإبداع والقوة في جانبيها الإبداعي والتنظيري، ثم المرحلة الثانية عصر التفرع والتشعب والمغالاة وإيجاد المصطلحات والنزوع إلى الغموض، الأمر الذي جعلها تندثر لا ضابط لها ولا منهج يجمعها، وتحولت إلى مذهب الغموض الأشمل ضبابية»[4].

---

[1]- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، (د ط)، 1971م، ص23.

[2]- تسعيدات آيت حمودي: أثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم، ص14.

[3]- مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي، ص35.

[4]- م. ن ، ص ن.

المرحلة الأولى للرمزية هي فترة بلغت فيها أوج تطورها وازدهارها منذ ظهورها حتى عام 1890م، بينما المرحلة الثانية هي فترة الانحطاط و الزوال و الاندثار نتيجة اعتمادها المطلق على الغموض، وقد استندت الرمزية في مراحل ازدهارها على أسس تُمثّل الأصول التي انبثقت من ثناياها، ومن بين هذه الأسس نجد:

– **المثالية الأفلاطونية**: «فالرمزية مذهب مثالي ومن الطبيعي أن تستند إلى نزعة من أقدم النزعات المثالية، وهي الأفلاطونية التي كانت تنكر حقيقة الأشياء المحسوسة و لا ترى فيها غير صور و رموز لعالم المثل »[1]، فما هو موجود في العالم الطبيعي ما هو إلا تقليد لما هو موجود في عالم المثل، حيث الكمال والحقيقة والصدق الذي يتجسد في رموز حية تشير للعالم الحقيقي أي عالم المثل، و«من ذلك يجب ألا نغفل عن فارق هام بين الأفلاطونية و النّزعة المثالية الرمزية؛ إذ أن الأفلاطونية تنكر الواقع كلّية لترتفع فوقه بينما ينكر الرمزية ظواهر الواقع فقط(...) فهم لا يلغون الواقع جملة بل يثبتونه إذا صحّ التعبير»[2] ،فالمثالية الأفلاطونية أنكرت حقيقة الواقع و اعتبرته غير صادق و أنه صورة مزيفة و مشوّهة لعالم المثل، الذي كل شيء فيه صادق و حقيقي ، بينما الرمزية قد أنكرت الظواهر الخارجية لهذا الواقع تسعى إلى استبطانه لتصل إلى العالم المثالي، فأثّرت هذه المثالية على كثير من الشعراء الرمزيين .

– **ظاهرة الشعر الميتافيزيقي**: وهو «شعر يراد به اكتناه الطبيعة وتجاوز المستويات السطحية، للأشياء و اصطناع الدهشة أمام حقائق الحياة المألوفة، والتعبير عن ذلك بطريقة مجازية تشبه الطريقة الرمزية »[3]، هذا النوع من الشعر يتجاوز كل ما هو مرئي بهدف خلق الدهشة والغموض في نفسية القارئ ، والبحث عن أسرار الكون والطبيعة وإسقاطها في عوالم رمزية خيالية بعيدة عن الواقع بصور مجازية؛ أي أن الشعر الميتافيزيقي في جوهره قائم على المجاز، ويختلف المجاز المتافيزيقي عن المجاز الرمزي حيث أن هذا الأخير «يعتمد على علاقات غير منطقية و لا محدودة لأنها في أساسها إيحائية»[4]، فالمجاز الرمزي يعتمد الإيحاء في رصد الأشياء بطريقة مدهشة بعيدة عن المألوف أما «المجاز الميتافيزيقي كان منطقيا قائما على علاقات عادية محدودة»[5]، تعتمد بدورها على المنطق الذي ينظم علاقات ماورائية للموجودات في شكل محدود.

---

[1]– محمد فتوح أحمد: الرمز و الرمزية في الشعر المعاصر، ص48.

[2]– م ن، ص ن.

[3]– مسعد بن عيد العطوي : الرمز في الشعر السعودي، ص 40.

[4]– م ن، ص ن.

[5]– م ن ، ص ن.

كان من أهم أعلام المدرسة الرمزية الغربية مجموعة من الشعراء مثلوا أعلام المذهب الرمزي، نجد شارل بودليرو، ستيفان مالارميه، بول فيرلين، و آرثر رامبو، علينا الوقوف عند كل واحد منهم على حدى:

1- شارل بودلير charles baudelaire (1820م-1867م):

كان بودلير أول من سبق في شعره للرمزية ولقد « نمت بذور هذا المذهب الرمزي الفني في شعر بودلير، و هو يمتاز إجمالا بالإيحاء والإيقاع والتناغم الداخلي الذي ينسج حول القصيدة كلها»[1]، قد نشأ المذهب الرمزي على يد بودلير في ديوانه أزهار الشر، وهو مجموعة قصائد تتألف من مئة قصيدة حملت بذور المذهب الرمزي، و يعتبر البداية الفعلية لظهور الرمزية، «لقد كان بودلير في نظر الكثيرين من النقاد أحد مؤسسي الحركة الرمزية، وبعده مارسيل ريمون أحد أركانها»[2]، وقد عكس ديوانه أزهار الشر رؤيته الحزينة اتجاه الواقع الذي يخنقه الشر و الكراهية، وكانت قصيدته المشهورة المراسلات التي احتوت رموزا إيحائية للأشياء إيذانا بالاستعمال الفني الجديد للرمز، فالإنسان عنده كائن حي يعيش وسط غابة مليئة بالرموز [3].

2- ستيفان مالارميه mallarme (1842م-1898م):

أما ملارميه «وضع للرمزية أسس و قواعد فهو إذا في نظر الكثيرين مشرّع الرمزية و محققها»[4]؛ إذ يعتبر مالارميه أول شاعر رمزي مشهور و يعدّ «زعيم المدرسة الرمزية الفرنسية (...) و اتصف شعره بغموض شديد و أشهر قصائده "الفون بعد الظهر"»[5].

3- بول فارلينpaul verlaine (1844- 1896م):

يعتبر "فارلين "من أعمدة المدرسة الرمزية حيث اتصف شعره بالغموض في المعاني وفق رموز إيحائية مبهمة إذ؛ «عزز في شعره بعض عناصر هذا الاتجاه وأهمها الموسيقى والإيحاء والإبهام والغموض»[6]، كان شعره غنائيا صوّر فيه العواطف والأحاسيس بموسيقى إيحائية لطيفة تتفطن لها المشاعر.

---

[1]- نور سلمان: معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1954 م، ص50.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- ينظر: نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص466.

[4]- نور سلمان: معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، ص53.

[5]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر المعاصر، ص467.

[6]- نور سلمان: معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، ص51.

4- آرثر رامبو arther rimband (1854-1891):

هو شاعر فرنسي من أعلام المدرسة الفرنسية، و «قد صرّح رامبو أن جوهر الطبيعة و الذات الإنسانية واحد فأراد أن يتحد بالكون و يذيب فيه روحه إذ ذاك من حدود النفس الضّيقة في نشوى تصوفية إلى عالم وراء المحسوس، ولكنه عبّر عن تلك النزعة بأسلوب مفعم بالغموض والإبهام يتجلى في معانيه وصوره»[1]، اعتمد رامبو في أسلوبه على الغموض و الخفاء في معانيه وأفكاره، تنعكس كلها في صور رمزية موحية تصف تجاربه النفسية المعذبة.

2- عند العرب:

رأينا أن الرمزية ظهرت نتيجة رد فعل ضد الحركة الرومانسية و البرناسية في الفن و الأدب، وأنها عرفت كتسمية إلا في عام 1885م في فرنسا تحديدا، حيث بسطت نفوذها في قصائد شعرائها الغربيين الذين اعتمدوا الإيحاء والتلميح فألبسوا قصائدهم الغموض و الغرابة، و كما امتدت الرمزية في أوروبا و أمريكا فقد امتدت أيضا في العالم العربي؛ إذ انطلقت شرارة تأثير هذا المذهب على الأدباء العرب في سوريا ولبنان ومصر حاملين لواء التجديد في قصائدهم القومية و الوطنية، حيث ساروا على نهج الشعراء الغربيين في نظم قصائدهم، و يرجع ظهور الرمزية في الشعر العربي الحديث إلى فضل إسهامات الأدباء والنقاد العرب، فاستقبلوا دعائم هذا المذهب الفني داخل أدبهم مبرزين أثره في أشعارهم.

ويقف "نسيب نشاوي" عند نشأة الرمزية العربية قائلا: «المدرسة الرمزية العربية مذهب أدبي نشأ في الشعر العربي الحديث وتوضحت معالمه في النصف الثاني من القرن العشرين، عبر تجارب إنسانية ومعاناة قومية أو وطنية أو اجتماعية أو نفسية، وفتح آفاقا جديدة في الأدب الإنساني »[2]، اتضحت لنا الرمزية العربية في تعبير الشعراء عن معاناتهم النفسية بمختلف مظاهرها فغلبت على أشعارهم ذات النزعة الإنسانية، الألفاظ الموحية والمعاني الغامضة التي عبرت عن أرواحهم القومية والوطنية، بعبارات حالمة بإيحاءات موسيقية ذات صبغة رمزية أكسبت الأدب قيمة جمالية خالصة .

---

[1]- نور سلمان: معالم الصوفية في الشعر الصوفي العربي، ص52.

[2]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص469.

وقد بلغ تأثير الرمزية الغربية على الأدباء العرب، مما أدى إلى انتشارها بشكل كبير بفضل أبحاث أدبائها التي أسست لظهور الرمزية كمدرسة أدبية في الشعر العربي، ظهرت متأثرة بالشعر الفرنسي «وأكثر ما وجد هذا المذهب أنصاره في لبنان لتأثرهم المباشر بالشعر الفرنسي الغربي»[1].

ويعتبر "سعيد عقل" رائد الرمزية في الأدب العربي حيث راح «ينشر نظرياته و شعره في لبنان و قبل ذلك سقط بين يدي "أديب مظهر" مجموعة من الشعر للشاعر الفرنسي "ألبير سامان"فالتهمها، وبعد ذلك طلع علينا أديب بقصيدته نشيد السكون أو النسيم الأسود، و لم يخطر في بال أحد أن هذه القصيدة (...) ستكون فاتحة أدت إلى تكشف لبعض الشعراء، و بخاصة لبنان بعدا جديدا في اللغة الرمزية هو البعد الرمزي ، لكن بمدلولاته وخصائصه الغربية »[2]، و تعتبر قصيدة نشيد السكون التي كشفت لنا تأثر أديب مظهر بالشعراء الفرنسيين، أمثال فارلين و مالارميه ... هي البوابة الفاتحة لدخول التيار الرمزي الغربي في الشعر العربي ، الذي استوحى معانيه وألفاظه من قصائد الشعراء الغربيين، مبرزا تأثره الشديد بهم من خلال كلماته وتعابيره الغامضة التي تكسوا قصائده.

إضافة إلى ذلك فقد «اتضحت معالم الرمزية للعرب عندما انتقلت من أوروبا إلى الوطن العربي عام 1949م، بفضل الدراسة الموسعة التي وضعها "أنطون غطاس كرم" يوم نشر كتابه "الرمزية و الأدب العربي الحديث" 1949م»[3]، لقد نقل لنا "أنطون كرم" الرمزية إلى الأدب العربي بفضل جهوده التي صبها في كتابه، متحدثا فيه بإسهاب عن الرمزية في مفهومها الغربي مشيرا إلى الأساس الذي قامت عليه و هو الرمز، وقد تحدث في كتابه عن الأجواء التي مهدت لظهور الاتجاه الرمزي في الأدب العربي حيث قال: «بدأت ظهور بوادر هذا الاتجاه في لبنان و مصر كان عام 1928م(...)، بفضل الترجمات عن الرمزية الغربية ، ففي هذه المرحلة ظهرت قصيدة مترجمة لبودلير عنوانها ندامة بعد الموت عام 1995م، وكتب علي محمود طه مقالة عن فرلين الشاعر»[4].

فظهور الرمزية في كتابات المؤلفين العرب يعتبر تأسيس فعلي لبروزها كحركة أدبية، ببذور غربية في الشعر العربي من خلال ترجمة أعمال الأدباء الغربيين الشعرية و المسرحية.

---

[1]- نسيب نشاوي: مدخل الى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص469 .

[2]- م ن، ص 474.

[3]- م ن، ص 476.

[4]- م ن، ص 477.

وأُنشأت مجلات عديدة في الشعر الرمزي كمجلة شعر 1957م ليوسف الخال، الذي تحمس كثيرا للمذهب الرمزي، فروّج له و شجعه بتأليف مجلة شعر كما له ترجمات كثيرة لأعمال الشعراء الغربيين المعاصرين ، حيث لعبت جهوده دورا فعالا في انتشار التيار الرمزي في الشعر العربي الحديث [1]، بالإضافة إلى جهود أدبية أخرى بعثت الرمزية في الشعر، فظهر كتاب آخر "لدرويش الجندي" بعنوان "الرمزية في الأدب العربي" 1958م و غيرها من المؤلفات الأخرى.

وأخيرا نشير إلى أهم أعلام الرمزية العربية من الشعراء، ساهموا في إنتاجاتهم الإبداعية إلى تطوير الحركة الرمزية في الوطن العربي أمثال: "بدر شاكر السياب"، "خليل الحاوي"، "أدونيس"، و "نازك الملائكة"...وغيرهم من الشعراء الذين اعتمدوا الغموض في شعرهم تأثرا بشعراء الغرب، حيث جعلوا من الرمز الوسيلة الفعالة التي عبروا من خلالها عن مكنوناتهم النفسية ومعاناتهم في أوطانهم العربية، برموز إيحائية عميقة تكشف روح التجديد في أشعارهم.

[1]- ينظر:نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص477.

رابعا : خصائص الرمزية :

من الخصائص التي ميزت الرمزية كمذهب أدبي غربي نجد:

1- «محافاة الأسلوب القائم على الوضوح والدقة، والمنطق والتفكير المجرد، والمعالجة الخطابية والمباشرة والشروح والتفصيلات»[1]، من خلال الميل إلى الغرابة والتعقيد والتلميح بدل التصريح والابتعاد عن الوضوح، حيث تبرز لدينا البراعة الفنية والأدبية للمبدع.

2- «يسعى الرمزيون الدخول إلى عالم اللاّحدود، عالم الأطياف والانزياح والارتعاشات الرجراجة والحالات النفسية الغائمة أو الضبابية والمشاعر المرهفة الواسعة، والتغلغل إلى خفايا النفس وأسرارها ودقائقها ولونياتها»[2]، فغاية الأدباء الرمزيين في أشعارهم هو الاهتمام البالغ بالذات الباطنة للإنسان، وجعل المتلقي يغوص في أغوار الذات الإنسانية، والبحث في عالم اللاّشعور، لاستكشاف خباياه الخفية والعميقة في رموز إيحائية تلونت بمشاعر النفس الداخلية.

3- يعتبر«العالم الخارجي عندهم صورة ناقصة بالمقارنة مع عالم النفس، وهذا الأخير في نظرهم هو الأغنى والأكمل والأقدس»[3]، نلحظ تقديسهم البالغ لأعماق النفس وما تحتويه من مشاعر حسية ذاقت تجارب الحياة المختلفة، والسعي إلى نقل تلك التجارب من العالم الباطني إلى العالم الخارجي، برموز شعرية تكتسي طابع الغموض والإيحاء.

4- «الإكثار من الألفاظ الموحية»[4]، هي ألفاظ اعتنى الرمزيون على تزيينها بالغموض والتعقيد، لدرجة المبالغة في ذلك.

5- استحداث لغة جديدة قادرة على استيعاب العالم الداخلي، ونقل حالاته إلى المتلقي والتعبير عنه بلغة تثير الأحاسيس الكامنة وتحرك المشاعر والقوى الانفعالية[5].

---

[1]- عبد الرزاق الأصفر: المذاهب الأدبية لدى الغرب، اتحاد كتاب العرب، دمشق،(د ط)، 1999م، ص114.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- محفوظ كحوال: المذاهب الأدبية الكلاسيكية-الرومانتيكية-الواقعية-الرمزية-الدادية-السوريالية-الوجودية، مكتبة نوميديا، قسنطينة، (د ط)، (د ت)، ص161.

[4]- م ن، ص162.

[5]- ينظر: عبد الرزاق الأصفر: المذاهب الأدبية لدى الغرب، ص114.

خامسا: حضور الرمزية في الشعر الجاهلي:

اتسم الشعر الجاهلي بتراكيب لغوية فخمة تمتاز بالبلاغة والفصاحة، فتزينت قصائدهم بحلة الاستعارة والتشبيه والكناية، مما جعل ألفاظهم الشعرية تتصف بالغموض والتعقيد والعمق، حذق الشاعر على بلورتها في جوانب فنية مختلفة وفي أغراض متعددة، هذا وقد يدل على حضور الرمزية في الشعر الجاهلي، حيث انصبت خصائص هذا المذهب الرمزي في الشعر الجاهلي بصورة غير مقصودة من قبل الشعراء الجاهليين، ليقودنا الأمر إلى طرح تساؤل: كيف تمثلت الرمزية في الشعر الجاهلي؟ وماهي خصائص حضورها عند شعراء الجاهلية؟

يرى"موهوب مصطفاوي" أن الرمزية في الشعر الجاهلي نوعان: رمزية عامة ورمزية أدبية:

1- الرمزية العامة: هذا النوع يقوم على الإيجاز والتعبير غير المباشر حيث: «تعتمد الرمزية على الإيجاز - الذي هو من خصائصها- كما تلجأ إلى تعبير غير مباشر وقد استخدمها الشعراء الجاهليون في شعرهم»[1]، والإيجاز من الخصائص العامة للرمزية في الشعر الجاهلي، محملين بذلك معاني كثيرة في ألفاظ قليلة موحية لها مرجعية فكرية ونفسية للذات الشاعرة، وهذا ما يتلاءم مع شروط الرمزية الحديثة، التي قامت على «الإيجاز وتتعلق به الرمزية لأنها تكره الشرح والتفسير، إذ ترفض الإطناب لأنها تريد أن يكون الكلام وحيا وتلميحا»[2].

كما اكتسبت الرمزية في الشعر الجاهلي ميزة أساسية هي "غير المباشرة في التعبير"، وهنا نتفق مع الرمزية الحديثة، حيث اعتمد شعراء الجاهلية التعبير غير المباشر في ألفاظهم، هذا استدرجهم إلى الوقوع في ظاهرة الغموض والتعقيد وعدم التصريح، وغير المباشرة في التعبير سمة أساسية في الشعر الجاهلي تجلت في توظيف الشعراء الجاهليين للاستعارة والتشبيه، وتفننوا في استخدامها بأساليب فنية مختلفة، و«اشتهر بهذا الأسلوب امرئ القيس»[3]، حيث تفنن الشعراء الجاهليون باستخدام أساليب تعبيرية مع ألفاظ لها معاني غير مباشرة بل إنها تعتمد التلميح والإشارة، بإيحاءات متعددة تبتعد عن المباشرة والوضوح، فلجؤوا إلى الاستعارة والتشبيه، وهي أساليب

---

[1]- موهوب مصطفاوي: الرمزية عند البحتري، الشركة الوطنية، الجزائر، (د ط)، 1981م، ص195.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- م ن، ص198.

تشير إلى حضور الرمزية في الشعر الجاهلي، ومدى براعة الشعراء في توظيفها «هكذا نجد الاستعارة والتشبيه عند جميع الشعراء في الجاهلية، وإن تفاوتوا في الجودة والكثرة»[1].

وبالتالي اعتمدت الرمزية العامة في الشعر الجاهلي على خاصيتين أساسيتين هما: الإيجاز والتعبير غير المباشر، لذلك تنبه الشعراء إلى العناية بهما داخل قصائدهم.

2- الرمزية الأدبية: وهذا النوع لا يتوفر عند جميع الشعراء كما في الرمزية العامة، بل إنها تتواجد عند الخاصة من الشعراء فقط، وبالأخص الشاعر الجاهلي "امرئ القيس" الذي يعتبر رائد الرمزية الأدبية في الشعر الجاهلي، «والطريف هو أن امرئ القيس أول شاعر عربي عرف الرمزية الأدبية التي يتَّحد فيها الرامز والمرموز إليه عن طريق الانطباعية كما عرف الطريقة الموضوعية، ومن يدرس بدقة معلقته المشهورة يجد بيانا شافيا لذلك»[2]، وتتجلى لنا مظاهر الرمزية في شعر امرئ القيس من خلال وصفه لعناصر البيئة الصحراوية الطبيعية والحيوانية، وفي ثنايا تلك الأوصاف نلتمس صدق المشاعر والأحاسيس التي تكونت في رموز مختلفة.

هذا يدل على حضور الرمزية في قصائد الشعراء الجاهليين، خاصة في رحلة وصفهم للصيد والحيوان، وكذلك تصويرهم لمظاهر الطبيعة، وأحسن من مثل هذا المذهب في الأدب الجاهلي "امرئ القيس" الذي أبدع في نسج أحاسيسه ومشاعره المتعددة برموز فنية زادت الشعر الجاهلي فخامة وإبداع.

[1]-موهوب مصطفاوي: الرمزية عند البحتري، ص 198.

[2]- م ن، ص212.

الفصل الأول

رمزية الحيوان في الشعر الجاهلي

أولا: رمزية الناقة في الشعر الجاهلي:

للناقة أهمية بالغة في حياة الإنسان العربي وخاصة عند العرب في الجاهلية القديمة، حيث أفردوا لها مكانة عظيمة في حياتهم القائمة على السفر والتّرحال وعدم الاستقرار، فكانت الناقة ذلك الحيوان الأليف الذي يرافق العربي الجاهلي في رحلته الشّاقة ضمن بيئة صحراوية قاحلة.

وقبل الخوض في غمار الناقة ومكانتها في نفسية الشاعر الجاهلي خصوصا، ينبغي الوقوف على حضورها في النص القرآني، حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ **أَفَلا يَنظُرونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[سورة الغاشية، الآية:18]، والتي تدل على عظمة الله تعالى في خلقه لسائر الحيوانات بما فيها الإبل، و"في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بالنَّظر في مخلوقاته الدّالة على طلاقة قدرته وشمول علمه، وعظيم حكمته، ومن هذه المخلوقات الإبل؛ لأنها خلق عجيب وتركيبها غريب"[1]، وكل مخلوقاته تدلّ على عظمته، ومن الصفات الأخرى للإبل "فهي قوية شديدة وهي مع ذلك تنقاد لمن يقودها (...) والآية الكريمة تنبّه العرب إلى ذلك، لأن الإبل كانت دوابهم، أفلا ينظرون كيف خلقت على هذا النّحو المناسب لوظيفتها المحقق لغاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا"[2].

خاطب الله العربي لأنه يرصد كل تفاصيل الناقة ويعرفها أفضل من نفسه، إضافة إلى العلاقة القويّة التي تربطه بها، " حيث أراد الله تعالى بها أن تكون سفائن البّر، صبّرها على احتمال العطش حتى أن ظمأها ليرتفع إلى العشر، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم"[3]، فالناقة جعل فيها الله تعالى قوة بيولوجية قادرة على التأقلم مع البيئة الصحراوية، حيث تكاد تنعدم متطلبات الحياة الضرورية.

وقد شهد الشعر الجاهلي ازدهارا عظيما تمثّل في بروز عدد كبير من الشعراء، الذين نظموا كثيرا من الأشعار، وأشهر ما وصلنا المعلقات، فحياة الشاعر الجاهلي كانت تزخر بالشعر وهذا يدل على أنه كان غذاء حياتهم، وأكثر ما ميَّز أشعارهم هو ذكرهم للحيوانات الأليفة التي رافقتهم، وجاء الحديث عنها بصدق فني رائع، وتعتبر الناقة أجود حيوان أليف عرفه الشاعر في حياته، وأنبل رفيق صاحبه في مغامراته الشّاقة بحثا عن سبل الحياة الجيِّدة، وهذا ما توضّح في شعرهم واستبان بصدق نابع من نفسيّة الشاعر، فكانوا يفضلون السّفر على ظهور

---

(1)- زغلول راغب محمد النجار: الحيوان في القرآن الكريم، العبيكان، الرياض، ط1، 2012م، ص135.

(2)- م ن، ص ن.

(3)- الدميري (كمال الدين محمد بن موسى): حياة الحيوان الكبرى، تح: إبراهيم صالح، ج1، دار البشائر، دمشق، ط1، 2005م، ص75.

النوق، لأنها وسيلة السفر التي ساعدت الإنسان على التنقل من مكان لآخر، فكانت الناقة مؤنسه الوفي والوحيد أثناء تنقله في الفيافي الشّاسعة الغابرة، فتوطدت علاقة قوية بين الشاعر الجاهلي وناقته نَجَم عنها اتّصال روحي عميق ومصاحبة قوية، ومدى دقة ملاحظة العربي لناقته فهو يلاحظها بدقة شديدة ويرصد كل تغيراتها وصلت إلى درجة التّوحد بها؛ إذ صار كيانا متوحدا وهذا مرجعه البيئة الصحراوية القاسية التي يعيشها الشاعر وناقته، إضافة إلى قطعهما المسافات الطويلة والشّاقة في الصحراء، خلق فرصة أن يحادث الشاعر ناقته مخاطبا وجدانها علّها تستجيب لأحاسيسه الحزينة التي غلبها القهر والأسى من نكسات الدهر وتقلّباته، مبرزا لها شعوره اتجاهها وأنها هي أيضا تشعر بمعاناته، و يُقدِم الشاعر على إسقاط آلامه وأوجاعه على ناقته وهذا ما يؤكد على أنهما كيان واحد تحت سحاب التّعب والمعاناة والألم؛ إذ أنهما يشتركان معا في هذه الأمور إلاّ أنهما يتَّحدان معا تحت قوة واحدة هي مواجهة الصعاب والمخاطر وعدم الاستسلام.

وكثيرا ما يلجأ الشاعر الجاهلي إلى وصف ناقته بدقة مبرزا مواصفاتها الجسدية والحسّية، وغالبا ما حملت هذه المواصفات أبعادا رمزية مختلفة احتوت أحاسيس الشاعر وتجاربه المختلفة في الحياة، وقد اختلفت الرموز والأبعاد الدلالية التي مثلتها الناقة، تبَعا لاختلاف التركيبة النفسية والفكريّة لكلّ شاعر، فرمزية الناقة عند" امرئ القيس" ليست نفسها عند شاعر آخر، وهذا بالضرورة يرجع إلى اختلاف التّجربة الشّعورية من شاعر لآخر، فتتعدّد الرموز بتعدد الحالات النفسية التي تسبح في أعماق الذات الإنسانية، فيرسل الشاعر أحاسيسه وتجارب حياته وفق إيحاءات رمزية بصورة تعبيرية موحية جسّدتها الناقة، فصار بذلك اتّصال الشاعر مع ناقته اتّصالا حسّيا و ليس نفعيا فقط، "وقد عقد الشاعر بينه وبين ناقته وشيجة متينة نقل بها الناقة الحيوان إلى كائن حي، ينطوي على جوانب إنسانية، فتراها تحس وتشعر وتنطق مصرحة بما يدور في نفسها من الهموم والحاجات، فلم يعد حيوانا صامتا يقتصر اتّصال الشاعر بها في الإطار النفعي فحسب، بل اتّصال الشاعر بها اتّصالا نفسيا وشعوريا فبثها همومه، وبثته شكواها وكثيرا ما تطابقت نوازعهما وأحاسيسهما»[1].

غذَّى الشاعر الجاهلي ناقته بجوانب إنسانية كأنَّها إنسان يحسّ ويشعر، لم ينظر إليها على أنها حيوان يخدمه ويلبي حاجياته ومقاصده، بل رأى فيها روحا إنسانية تحُفها العواطف، احتضنت همومه وكبريائه، ويتبادلان معا نفس المعاناة والأحزان، كما أنّ هدفهما أو طريقهما واحد، وتحتل الناقة في نفسية الشاعر تلك المكانة الرفيعة

[1]- سعد عبد الرحمن العرفي : سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي" دراسة في المضمون والنسيج الفني" (مخطوط دكتوراة في اللغة العربية وآدابها)، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1426هـ، ص 400.

لأنها أدركت أحاسيسه العميقة وعاشت معه نفس الظّروف القاسية، فألبس الشاعر ناقته رموزا إيحائية مختلفة تشير إلى أغواره النفسية، وتحمل مدلولات وأبعاد متعددة أسقطها الشاعر نفسه على ناقته، فتلك الرموز تعبر لنا عن الحالة الشعورية الباطنية التي يمرُّ بها أيَّ شاعر جاهلي حاملة معها تلك الأحاسيس والعواطف الخفيّة، بصورة تعبيرية موحية تجسدت في رموز إيحائية مثلتها الناقة، و«الشاعر الجاهلي بعد أن وقف على الأطلال وبكى واستبكى ووصف الرّاحلة وأفاض في الحديث عنها، كان ينهض إلى ناقته فيمتطيها محملا إيَّاها أشجانه وهمومه منطلقا بها إلى أعماق الصحراء»[1].

احتلت الناقة في حديث الشاعر عنها ووَصْفِها–محملا إيّاها أشجانه وآلامه– جزءاً هاما في بناء القصيدة الجاهلية فيستعرضها الشاعر بتفاصيل أدق، بعد البكاء على الأطلال مبرزا قيمتها الرّوحية والمعنوية في جوانب مختلفة ناسبا إليها كل أحاسيسه، مصرّحا لها عن خواطر أعماقه الذّاتية وما يدور فيها من خلجاته النفسية، فيُخيّل إليه أن الناقة ذلك الكائن المقنّع بروح إنسانية خالصة؛ إذ تصغي إليه دون ملل أو شكوى بل تتلقى كل المكبوتات النفسية التي يطرحها عليها بلا ضجر.

كما جاء الحديث عن الناقة في أغلب قصائد الشعراء الجاهليين دون استثناء، فإنَّ كلّ شاعر بعث في ناقته رموزا دلالية مختلفة تصور إيحاءاته النفسية والذاتية المتغلغلة في تجارب الحياة بإشارات غير مصرح بها، واختلفت تلك الرموز باختلاف نظرة كل شاعر تجاه ناقته، حيث يقول"مصطفى الشوري": « إذا كان الشاعر الجاهلي قد تحدث عن الماضي في صورة الطلل، فإنّه في حديثه عن الناقة أي عن الحاضر، يؤكد استمرارية الحياة التي يحرص عليها، ومن ثم لا يريد أن يستمر في الوقوف، فالوقوف ثبات والثبات موت، وإنّما لجأ إلى الحركة لأنه لا يشعر بالحياة إلا من خلالها»[2]، فالناقة من منظور الشاعر الجاهلي تبعث بحركية الحياة وبالتالي تدفع إلى استمرارها، وكذا الصمود أمام أقدار الحياة والتصدي لها وعدم العجز، بل وإنه يتوجب السير نحو التغيير والبحث عن مايبني نفسية جديدة أساسها القوة والحركة.

ومن المعروف أن مطالع القصائد الجاهلية تُستهل بالوقوف على الأطلال والبكاء عليها، مستذكرة ذلك الزمن الجميل الذي مضى عابرا دون رجعة والحنين والشوق إليه، بعدها يلتفت إلى ناقته محاولا استنطاقها والبوح لها عن مشاعره علَّها تردُّ عليه وتجيبه، واتُّخذت الناقة في أشعار الجاهلية رمزية الحركة والاستمرار، هذا الذي استدعى

[1]– مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة،(د ط)، 1996م، ص101.

[2]– م ن، ص102.

الشعراء إلى البحث عن آمالهم وأحلامهم المفقودة داخل أشعارهم، ذلك الذي دفعهم نحو التّرحال والتّنقل رفقة الناقة، من خلال شدِّ حبال الحياة والتّشبث بالأمل نحو الأفضل، "ولهذا كانت الناقة هي التعبير الحقيقي عن فكرة الحركة والعمل واستمرارية الحياة التي كانت شغله الشاغل في هذه البيئة الصعبة القاسية"[1].

والناقة تعمل على مواساة الشاعر في بيئته الصحراوية القاسية، حيث يرى فيها أمل الصبر والتحمل رغم قساوة الحياة وصعوبة السير في الصحراء، إلا أنّها لا تستسلم بل وتستمر قُدما دافعة بروحها الجسديّة والنفسية نحو الغد المشع بضياء الأمل والحياة، هذا مازاد من قوة الشاعر النفسية رغم المحن والظروف الشّاقة التي مرَّ بها، ولهذا"جاءت الناقة لتمثل المخرج أو المخلص للإنسان من هذه الأزمة"[2].

وتُمثل الناقة في قصائد الشعراء الجاهليين رمز الخلاص والبقاء، فهي تعتبر الدليل الوحيد الذي يتّبعه الشاعر للخروج من المحن والصعوبات وقساوة الحياة، آخذا منها العبر باعثة فيه روح الأمل والتجديد نحو الأفضل، فيعمد إلى التأمل في ناقته بقابلية شيِّقة مسلطا عليها رموزا عديدة، منبعها الأحاسيس والمشاعر الذاتية المثقلة بالأوجاع المقيّدة بقساوة العيش في البيئة الصحراوية، حيث لا بقاء إلا للأقوى، "ولما كانت الصحراء مناخ الناقة ومسارها ومبتدأ سيرها ومنتهاه، فإنّ الشاعر لا يصور ناقته في أغلب الأحيان معزولة عما حولها، بل يحيط صورتها بصور الطبيعة(...) وعلى هذا النحو تغدوا الناقة مصدر حيوية تتوزع من حولها في كل اتجاه"[3].

إن البيئة الصحراوية بمختلف عناصرها وكائناتها الحية، اقتضت من الناقة الوسيلة الأنسب التي يستعين بها الشاعر الجاهلي في متطلبات حياته، حيث يلجأ إليها للتخلص من مكبوتاته النفسية المليئة بالأحزان، معبِّرا من جهة عن حاجياته وأحلامه لتلك الناقة وكأنها مسؤولة عن تحقيقها له؛ فهي أنيسه الذي يمنحه القوة والحيوية يرى فيها المصدر القوي المخَزن لشرارة الحياة والديمومة، وكما "يبدو أنَّ أهم حيوان حظي باهتمام الشاعر الجاهلي هو الناقة(...) ووصفها في الشعر الجاهلي بصورة لافتة للنظر، وقد أطال بعض الشعراء في وصف الناقة كما فعل "طرفة" و"زهير ابن أبي سلمى" و"أوس بن حجر"(...)، وقد تكررت الصور التي قدموا بها الناقة مرتبطة بأنماط فنية تغلب عليها النمطية، كما استخدموا ألفاظا غريبة وعرة في وصفهم للناقة"[4].

---

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص102.

[2]- إسماعيل محمد عبد العاطي: الأسطورة والرمز في الشعر العربي القديم، نهضة مصر، ط1، 2006م، ص22.

[3]- غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الفكر، دمشق،ط1، 2002م، ص95.

[4]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 2003م، ص406.

وليس بغريب أن الوصف الدقيق والعميق الذي يسقطه الشاعر على ناقته قد اشتمل على ألفاظ ترمي إلى الغرابة والغموض، هذا استحدث لنا رموزا إيحائية داخل القصيدة الجاهلية، حملت أبعادا دلالية تتّسم بالإبهام والخفاء والتعقيد، يصعب على المتلقي فهمها وكشف دلالاتها الرمزية، لأن أسرار هذا الاشتباه والغرابة تكمن في نفسية الذات الشاعرة، إلاّ أنَّ الجاهلي لايصرح بها كاشفا عن مكبوتاته الداخلية، بل يعمد إلى إلباسها غطاء الغموض والتعقيد حتى يتعسر فهمها بسهولة، هذا أدخلها في باب الفن الذي يغلب عليه النمطية، وتتابع الشعراء تقريبا في وصفهم للناقة على وتيرة واحدة في أشعارهم.

ويُبين"حسني بعد الجليل"أن: «الناقة كانت حيوانا مهما له فوائد جمة ومنافع كثيرة، وأنه قد تراخى الرمز الأسطوري لها، وأصبحت في الشعر موضوعا نمطيا تتكرر صورته(...) حيث نرى أن الجدل بين الشاعر والناقة لا يتم من خلال عبودية الإنسان لها، وإنّما من خلال عبودية الناقة له، حيث نراها مسخرة مُسَيرة بإرادته»[1]، حياة الإنسان في الجاهلية اعتبرت الناقة حيوان مقدس؛ أي ما يعرف بالطوطمية وهذا مظهر من مظاهر العرب الدينية، لكن سرعان ما تجردت الناقة من قداسة الدين لترتبط بقدُسية الشعر عند الشاعر الجاهلي، لتندمج روحه وترتبط مع تلك الناقة وهذا ما كشفت عنه الألفاظ و المعاني الشعرية النّابعة من صدق أحاسيس الشاعر المجسّدة في رمز الناقة.

والناقة من أكثر الحيوانات الأليفة في مناخ البيئة الصحراوية، «فهي رفيقة دربه في سفره عبر الصحراء وهي مصدر رزقه وقوته، ولا عجب أن نجد شعرا كثيرا تناول فيه الشاعر وصف الناقة من جميع جوانبها»[2]، و تبرز القيمة الرمزية للناقة عند كل شاعر من خلال ألفاظ تمتاز بالرّقة والعمق والإيحاء، في قالب رمزي سيطرت عليه أحاسيس الشاعر، فأخرجها إلى العلن وفق رموز عميقة تتسم بالجمالية الفنية، حيث أن الناقة في قصائد الشعراء الجاهليين أشارت إلى القوة التي يتغذى منها الشاعر الجاهلي في مجابهة ومقاومة قساوة الصحراء، هذا وقد اكتسبت الناقة رمز الرزق من خلال بحث الشاعر المستمر عن مصدر العيش من الكلأ والماء، هذا حتَّم عليه عملية التَّنقل والتّرحال، فكانت ناقته الوسيلة التي ساعدته على ذلك، وبدونها ينعدم وجوده ويفقد حياته في وسط مليء بغبار الخطر والصعاب التي تتصدى له في طريقه.

---

[1]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص408.

[2]- منذر ذيب كفافي: الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2002م، ص173.

واكتسبت الناقة في قصائد الشعراء الجاهليين بمختلف طباقتهم أبعادا رمزية متعددة، حيث عبَّر كلُ شاعر عن ناقته برموز مختلفة صورت أحاسيسه تحت وطأة المعاناة والتعب، من نكد العيش وذلك بأسلوب فني ذو طابع جمالي، يكسوه الغموض في وسط مليء بالمجازات والاستعارات المعبِّرة عن المكنونات الذاتية والنفسية، وعلى القارئ فك شفرة تلك الرموز والغور في الأعماق النفسية للشاعر حتى يتسنى له معرفة مقاصد هذه الرموز ودلالاتها الخفيّة.

و الشاعر الجاهلي في قصيدته نجده مصرحا عن علاقته القوية بناقته، فهو«يقنعك بأن مكانتها لازالت مرموقة، وقداستها لازالت قائمة، مرسّخا صورتها في نفسك لتقول: «إنّ الناقة هي أبرز حيوان يظهر في عرض الفلاة يألفه الجاهلي ويتوحد معه، وهو أهم وسيلة نقل تبدو متحركة تواصل اللّيل بالنهار على سطح الصحراء»[1]،فقد صاحبت الناقة الشعراء الجاهليين في جل قصائدهم مما يدل على اهتمامهم الكبير بها، فأعطوها تلك الصورة المقدسة في علاقتها بالإنسان الجاهلي في الصحاري ومدى قدرتها على تحمل الشدائد، فنجد الشاعر محاولا استنطاق ذاتها كاشفا لها عن أحاسيسه، التي تسبح في بحر المعاناة مبرزا لها أنّهما يشكّلان كيانا متوحدا في هذا العالم.

وقد توجه الكثير من الباحثين إلى دراسة الشعر الجاهلي وأثر البيئة في تشكيل العلاقة الرابطة بين الشاعر الجاهلي والحيوانات المتواجدة حوله، وقد تبلورت تلك العلاقة في أشعارهم خاصة بصورة فنية صادقة، حيث برزت علاقة الشاعر بناقته بصفة متحركة حملت أبعادا رمزية دلالية مستترة وراء ألفاظ غريبة، تعبّر عن الحالات النفسية والتجارب الحياتية التي يخوضها الجاهلي في غمار حياته في بيئته، و« تبقى الإبل رفيق الشاعر الجاهلي ومصدر ثروته ونماءه، مما حذا بالجاهليين إلى تحميلها كثيرا من همومهم وأشواقهم، فهي التي تسلي الجاهلي عندما تهاجمه المصائب والمآسي»[2]، فالشاعر الجاهلي يجد في ناقته روحا تحتويه وتحتضن مآسيه محاولة إبعاد ريح الهموم على قلبه، فهو يرى فيها منبعا يمده بقوة الصبر والتّحمل والثبات رغم المحن والشدائد وعدم الإنهيار أمامها، «فهموم الشاعر لا تحملها إلا ناقة قادرة على الصبر والمعاناة»[3]، فالناقة تشارك الشاعر على حمل أعباء همومه وحمل أثقاله التي لا تنتهي.

---

[1]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2009م، ص111.

[2]- م ن، ص112.

[3] - م ن، ص ن.

كما جاء حديث الشعراء الجاهليين عن الناقة محملينها رموزا متعددة، سواء عند شعراء المعلقات أو عند شعراء الصّعاليك تحت مناخ البيئة الصحراوية القاسية، فاستندوا على ركيزة أساسية في الحياة تمثلت في حيوان الناقة؛ إذ حملت معاني رمزية عميقة بإشارات وإيحاءات تصور المشاعر و الأحاسيس بأسلوب فني جلي يتخلله البعد والغموض.

وقف الشاعر الجاهلي على وصف الناقة بما تمليه عليه قريحته الشعرية المعبرة عن باطن نفسه، في رموز جمالية حملت تلك الأوصاف ومن بين هؤلاء الشعراء نجد:"امرئ القيس" أشهر شعراء العصر الجاهلي، كما احتل الطبقة الأولى من الشعراء، ونأتي بذكر مجموعة من الأبيات الشعرية التي تحضر فيها ناقته مبرزا مواصفاتها برموز دلالاتها تعبّر عن نَفَسِه الشعري، وما علينا سوى تحليل تلك المعاني الرمزية الخفيّة والتصريح بها، "ولاشك أن الناقة أخذت من "امرئ القيس" بعض الأهمية في مساره الشعري، وربما كان مرجع هذه الأهمية تلك العلاقة الخاصة التي جعلتها وسيلته المفضلة في الهروب كما حاصرته الهموم والأحزان، أو أحاطت به الأخطار»[1].

يرى "امرئ القيس" في الناقة سبيلا للهروب من همومه وأحزانه التي تحاصره في كل اتجاه، فلا يلجأ إلا لناقته محتميا بها من رياح المخاطر، وبالتالي قد أخذت الناقة رمزية الاحتماء والاحتواء من المكائد والمصائب التي يتلقاها الشاعر في طريقه، يقول في ناقته:

فَدَعْ ذَا وَسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النهارُ وهَجَّرَا

تَقَطَّعُ غِيْطاناً كَأَنَّ مُتُونَها إذا أظْهَرَتْ تُكْسَى مُلاءاً مُنَشَّرَا

بَعيدةٍ بينَ المَنْكَبَيْنِ كَأَنَّها تَرَى عِندَ مَجْرَى الضَّفْرِ هِرّاً مُشَجَّرَا

تَطَايَرُ ظِرَّانَ الحَصَى بِمَنَاسم صِلابِ العُجَى مثْلومُها غيرُ أمْعَرَا

كأنَّ الحَصَى من خَلفِها وأمامِهَا إذا نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا حَذْفُ أعْسَرَا

كأنَّ صَلِيلَ المَرو حينَ تُطيرهُ صليلُ زيوفٍ يُنتَقَدْنَ بعَبْقَرَا[2]

---

[1]- محمد عبد المطلب: قراءة ثانية في شعر امرئ القيس، الشركة المصرية، لونجمان، ط1، 1996م، ص194.

[2]- امرئ القيس : ديوان امرئ القيس، صححه:مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5،2004م، ص63.

نستشف من هذه الأبيات بعض الرموز الخفيّة، التي حوت أحاسيس الشاعر العابرة رفقة ناقته، فنجده مستلقيا في تأمل ناقته بدقة، واصفا تحركاتها وردود فعلها بدقة متناهية، فهو في هذه الأبيات يخاطب ذاته آمرا إيَّاها برمي الهموم وتجاهلها، ناسيا همَّه بناقة قوية وسريعة يقطع بها الصحراء مهما كانت الظروف، ويمض واصفا ناقته وشكل جسدها وبعد ذلك يُصيغ السمع إلى الصوت الذي تحدثه وهي تجِدُّ السير في الصحراء، وصوت الحصى تحت أظلافها يُشبهه بصوت النقود المزيّفة عندما ترتطم ببعضها، فيتغلغل لا شعوريا في وصف ناقته بأبعاد رمزية تتوارى خلفها عناء حياته وأنين آلامه، حيث عبّرت الناقة عن رمز الثراء، فالناقة بالنسبة إليه هي المال فحتى سيرها ربطه بصوت الدنانير، لكنها دنانير مزيفة لزيف الحياة لأنها مليئة بغدر الدهر والشر.

وتبقى الناقة في نظر الجاهلي مصدر ثرائه وغنائه في هذه الحياة، وقدَّم لنا"مصطفى عبد الشافي" توضيحا آخر فهو يلاحظ أن:«الشاعر يُدلي بالناقة همّه بعد أن رحلت حبيبته وعجزت الديار عن الإجابة على لهفته وتساؤله، وفي كل هذه الأساليب يعبر الشاعر عن القوة في مواجهة آلامه ولا يرتحل هذه الناقة أبدا تعبيرا عن الضعف والاستسلام للحزن أو القدر»[1].

الناقة بالنسبة للشاعر هي منبع للقوة، لتنغلق عليه أبواب الضعف والاستسلام وتنفتح أمامه أبواب القوة والصبر وأملا يغدو نحو الأفضل، وأن الحياة تبقى مستمرة إذ يرى في ناقته مبعثا يمده بالحركة والاستمرارية وحب الحياة، «لهذا فالناقة رمز الحياة وحبها والحرص على التمتع بها»[2]، لنقول أنّ الناقة عبّرت عن رمز الثراء كذلك رمز الحياة والحركة؛ إذ تجعل من الشاعر الجاهلي ينعطف إلى اعتبار ناقته مصدر ثرائه في امتلاكها، فهي تقوده نحو ترَصُد أشعة الأمل منتظرا سطوعها بفارغ الصبر، محاولا التشبث بحبل الأمل ليفرض وجوده مثبتا ذاته بفضل ناقته.

يرتمي الشاعر محتميا بظل ناقته قاطعا معها مسافة الأمل مصرحا لها عن مشاعره المكتظة بالخيبات وأسى الدهر، ونلحظ أنه رغم ماتعانيه هذه الناقة من مكابدة في السير ومشقة الصحراء ، إلا أنّها تتلقى أحاسيسه المثقلة بالأحزان وتستقبلها بانشراح صادق، وبالتالي تندمج في الناقة روحا ثانية هي روح الشاعر التي سكنتها الأحزان والأوجاع، فكانت الناقة هي أمله الوحيد الذي يستجيب له وتخضع لإرادته حيث تشعره بالارتياح والأمن، «ويختلط الحديث عن الإبل بالحديث عن النفس، ويصبح الشعراء هم ونوقهم كيان واحد يصعب التمييز فيه بين

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص109 .

[2]- م ن، ص ن.

الإنسان والحيوان والأعجم، ويحاول الشعراء هنا أن يستطلعوا نفسية الناقة ويكشفوا عن عواطفها وأشواقها ويحملوها مالا يستطيعون حمله من شوق وألم وعتاب، فهي الصاحب والصديق في رحلة الحياة»[1].

وتكون الناقة في القصيدة الجاهلية رمزا للصداقة، ذلك الصديق الوفي الذي يلازمك في شدائدك والمحن الصعبة دون أن يتخلى عنك، هكذا اعتبر الكثير من الشعراء نياقهم؛ إذ تشعرهم بصدق الصحبة والرفقة قاطعة معهم طريق المغامرة المتأرجح بين الموت أو الحياة، يقول"امرئ القيس" في هذين البيتين:

ومُــجِدّةٍ نسَّأْتَها فتَكَـمَّشَتْ رَتْكَ النعامةِ في طَرِيقٍ حَامِ

تَخْدِي على العَلاَّتِ سامٍ رَأْسُهَا رَوْعَاءَ مَنْسِمُهَا رَثِيمٌ دامِي[2]

فهو يرى في ناقته الجد والسّرعة في السير ويوضح ذلك"عماد علي الخطيب" قائلا: «تبدو صورة الناقة هنا للوهلة الأولى رمزا للنشاط وسرعة السير، فهي مجدة شرع الخطى كلما زجرها راكبها لا تغتر، ويشبه الشاعر جريها في طريق قد حُمي بالحرِّ برتك النعامة فهو تقارب خطوها بسرعة، بيد أنَّ هذه الصورة وإن بدت مجرد تشبيه يؤكد سرعة الجري»[3]، و في هذه الأبيات تتخذ الناقة رمزا للنشاط والقوة في سرعة سيرها وعدوها، بصورة خيالية تفوق الواقع، هذا ماجعل الشاعر منبهرا و«مؤكدا بذلك أنه لا ينقل صورة ناقة واقعية بل يبدع صورة فنية رمزية تعيد صياغة الواقع»[4].

جاءت الناقة في شعر"امرئ القيس" برموز مختلفة، صور ناقته بصور خيالية تعبّر عن ذاته، ففي أبيات كثيرة جعلها رمزا للحركة والديمومة، واعتبرت رمزا للثراء وغنى الشاعر، وتبقى في النهاية رمزا للنشاط والقوة والاستمرار و الديمومة هذا يتجلى لدى كلّ شاعر جاهلي استغرق في وصفه الناقة بصور فنية دقيقة، لها إشارات رمزية تبعث إلى إعمال القدرات الخيالية للقارئ، «فلم يكن غريبا، والحال هكذا أن تملأ الناقة ديوان العربي ولغته، فيضع الأسماء لأدق أعضائها وأتفه أدواتها وأخفى حركاتها وأن تشيع الأخيلة المتعقلة بها في الحياة»[5].

---

[1]- عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا، دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، دار جهينة، عمان، (د ط)، 2006 م، ص165.

[2]- امرئ القيس: الديوان، ص157.

[3]- عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا، ص187.

[4]- م ن، ص ن.

[5]- حنا نصر الحتي: الناقة في الشعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م، ص36.

نأتي الآن ونحاول أن نرصد أهم الرموز الدلالية و معانيها الخفيّة للناقة في شعر"عبيد بن الأبرص"، وهو من فحول الشعراء الجاهليين جعله"ابن سلام" في الطبقة الرابعة من فحول العصر الجاهلي، يقول"عبيد بن الأبرص":

فَرُبَّ مـــــاءٍ وَرَدْتُ آجِنٍ سَبيلَهُ خَـــائِفٌ جَديبُ

ريشُ الحمامِ على أرجَائِهِ للقلبِ من خوفِه وَجِيبُ

قطَّعتُهُ غدوةً مشـــــيحًا وصاحِبي بَادِنٌ وخَبُوبُ

عَيْرَانَةٌ مُؤْجَـــدَةٌ فِقَارُهَا كأنَّ حَـــــارِكَهَا كَثِيبُ

أَخْلَفَ مَابَازِلاً سَديسُها لا حِقَّةٌ هيْ ولا نَيُوبُ[1]

فحياة الشاعر مليئة بالمخاطر والمغامرات الجريئة، ولم يجد معه إلا ناقته التي ساندته في رحلته الطويلة، سلكت معه مضمار الخوف والخطر، لينجو بنفسه سالما من مكان لا يسلكه أحد لأنه مليء بالمخاطر؛ إذ لا يستطيع أي شخص السير فيه، فهو يقف مفتخرا في أنهما استطاعا معا السير طوال اللّيل، في طريق يخشى الناس عبوره بما يتضمنه من مخاطر وحيوانات مفترسة، وتأتي الناقة في هذه الأبيات «كمساند ومؤيد للشاعر في رحلته التي جاءت في معرض الفخر، الذي جاء بعد استغراق الشاعر متأملا في الحياة والموت، مما يؤكد وقوعه تحت ضغوط معينة من قبل الدّهر وتقلباته»[2]، ويعبر الشاعر عن اندهاشه من شجاعته ونجاته من الهلاك المفضي إلى الموت، لتتحقق لدينا رمزية كشفت عنها أبيات القصيدة وهي الشّجاعة، واعتبرت الناقة رمز الشّجاعة والإقدام، كما تعتبر رمز البقاء والحياة فالناقة حققت في الشاعر حب الحياة والبقاء، بحثا عن سبيل الحياة الجيِّدة بعيدا عن شقاوة الدهر وغُصَّة المعاناة.

أما"المتلمس الضبعي" وهو«شاعر جاهلي مشهور (...) وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة السابقة من الجاهليين»[3]، وهو الآخر قد أغرق كغيره من الشعراء في وصف ناقته، بصور تخللتها رموزا إيحائية ذات بعد خيالي

---

[1]- عبيد بن الأبرص: ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص23.

[2]- إسماعيل محمد عبد العاطي: الأسطورة والرمز في الشعر العربي القديم، ص23.

[3]- عفيف عبد الرحمان: معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، دار المناهل، بيروت، ط1، 1996م، ص ص236،237.

تغوص بأذهاننا في أعماق مشاعره النفسية وتجاربها المختلفة، « فهذا الشاعر يحدثنا في ليل غربته القارص عن ناقته»[1]، حيث يقول في هذه الأبيات:

حَنَّت قَلْوصِي بِهَا والليل مُطَّرِقٌ بعدَ الهدوِّ وشَاقَتْهَا النَّواقِيسُ

مـعقولةٌ ينظُــرُ التَّشْرِيقَ راكِبُها كأنَّهَا من هوى للرَّملِ مَسْلُوسُ

وقد ألاَحَ سُهَيْلُ بعدمَا هَجَعُوا كأنَّهُ ضَرَمٌ بالكَــفِ مَقبوسُ

حَنَّت إلى نَخلةِ القُصْوَى فقلتُ لها: بسْلٌ عليكِ ألا تلكَ الدَّهاريسُ

أنّى طَرِبْتَ، ولم تُلحَى على طَرَبٍ ودون إلفِــكِ أمــراتٌ أماليسُ

أُمِّي شــامِيةٌ إذْ لا عِــراقَ لنا قومًــــا نودُّهم إذْ قـومُنَا شوسُ

لن تسلُكِي سُبلَ البَوباةِ مُنْجِدَةً ما عاشَ عَمْرُو، وما عُمِّرت قابوسُ[2]

احتلت الناقة في هذه الأبيات أبعادا رمزية رسمت ذهنية الشاعر، وعبّرت عن باطنه النفسي بتعابير وألفاظ يخترقها الغموض والإيحاء، هنا الشاعر ينسب حنينه في ظلمة اللّيل إلى ناقته، فيتبادلان معا الشوق والحنين، فهي من هذا الجانب تمثل رمز الحنين والشوق إلى الحياة الهنيئة والمريحة، بحثا عن الاستقرار الذي أصبح حلما يسكن الشاعر لكنه صعب الوصول إليه، لهذا نجد الشاعر «يلتفت إلى ناقته لعلها تدلي همومه وتحمل عنه بعض أعباء روحه المرهقة»[3]، كما نلحظ انعطاف الشاعر بخشوع جارف نحو ناقته والتمسك بها، لأنها تعيد إليه الحياة وتخفف عنه همومه، كما يُخَيَل إليه أنّها تصغي إلى أحاديث مشاعره المتضاربة، فيبوح لها عن قريحته المعبَّأة بالأحزان والمآسي التي أثقلت كيانه، فتلعب الناقة دور ذلك المصغي إلى تلك المعاناة لتحمل عنه أعباءها وتتبانها، رغم ما تقاسيه هي أيضا من مشقة الحياة وصعوباتها المتكررة.

وحسب"وهب رومية" فإنَّ النص الشعري " للمتلمس الضبعي"، يصور لنا «موقفا دراميا قاسيا يولده ويغذيه تناقض فاجع بين الشاعر والناقة، وتشتبك في هذا الموقف وتختلط وتتناقض حقوق مشروعة شتى، وتبدوا

(1)- وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، الكويت، مارس، 1996م، ص182.

(2)- المتلمس الضبعي: ديوان المتلمس الضبعي، شرحه: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، (د ط)، 1970م، ص 82-93.

(3)- وهب رومية: شعرنا القديم و النقد الجديد، ص183.

عناصر كثيرة في هذا النص صالحة لحمل دلالات رمزية خصبة اللّيل والتشريق ونجم سهيل وفكرة الهجوع (...) وهي رموز صغيرة كقطع الماس تغذي رمزا أكبر وتزيده فتنة وإشراقا، إنه "الناقة" أمُ الحنين»[1].

قدمت لنا أبيات "المتملس" رمزية هامة في حياة الإنسان الجاهلي والعربي فهي تمثل رمز الحنين، وكذلك الألفة التي تجهش نفسية الشاعر في وحدته، حيث يزداد حنينه وشوقه إلى أحلامه البعيدة، فتشتعل نار الحنين من جهة أخرى في نفسية الناقة ويتزايد ذلك كلّما انغمس الشاعر في همومه، ليوضح ذلك قول"وهب رومية":«وفي هذا اللّيل الدّامس الظلمة والمثقل بالهموم والأحزان والأشواق، تستعر نار الحنين في نفس الناقة وتضاعف هذا الحنين، وتزيده ضراما أصوات النواقيس الصغيرة المعلقة في أعناق الإبل السارية»[2]، فالشاعر يستأنس وحدته في ظلام اللّيل الهادئ؛ إذ يسترجع همومه التي مضت عليه دون نسيان محاولا باستنكارها أن يعيد سبكها بأحلامه المعلقة وصقلها بأفق يترقب الأمل، رغبة في تحقيق أمنياته الشبه مستحيلة بل إنّها تحتاج إلى إصرار منه وعزيمة على تحقيقها.

أعطت صورة الناقة عند الشاعر الجاهلي أبعادا رمزية تكشف عن قساوة بيئة الشاعر، وعن حالته الشعورية المتأثرة بمناخ البيئة الصحراوية، القاسية فصارت الناقة رمزا للمقاومة والمواجهة في ظل الصعاب، كما ترمز إلى الحركة والتنقل والاستمرار، كل هذه الرموز والصور تعكس أفكار الشاعر وتصوراته المختلفة التي تسعى إلى هدف أسمى وهو البقاء حيا رغم تراكم خيبات الظروف، إلا أنه يعمل جاهدا على غرس وجوده وإثباته بالتّرحال والحركة رفقة وسيلة حياته وهي الناقة ولذلك، « حرص الشاعر الجاهلي إذن على وصف الناقة بأوصاف تدل على تعلقه بها، من حيث هي رمز للحياة واستمرارها كمن يرغب في الحياة والخلود، فالدهر يفتك ببني الإنسان بغتة، وبتدبير غير واع من الإنسان نفسه نراه يجِدُ في طلب الحياة، ويلتمسها في كل مكان وبكل وسيلة، وكأنه بكثرة ترحاله وحروبه يؤكد وجوده وقوته»[3].

تعتبر الناقة دائما الوسيلة التي يغتني بها الشاعر الجاهلي، و بفضلها يتناسى همومه وتدفعه نحو الاستمرار والتعلق بحب الحياة، فالشاعر يحاول البقاء خالدا مجددا وجوده بوسائل شتى، على الرغم من أنّ نهايته المحتومة هي الموت، إلا أنّ فكره يتمحور حول تحقيق الخلود السامي مع ناقته التي رعت أحلامه برّقة وحنان.

---

[1]- وهب رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص183.

[2]- م ن، ص184.

[3]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص106.

ثانيا: رمزية الفرس في الشعر الجاهلي:

كان الفرس ومازال لحد الآن من الحيوانات التي نالت قداسة كبيرة في حياة الإنسان وممتلكاته، ويعتبر من أكثر الثروات التي استحوذ عليها الفرد في أيِّ زمان كان، والإنسان العربي نجده يعتز بالفرس كما أنّه يُعنى به عناية فائقة، وامتلاكه للخيل من أكثر الأشياء التي تعبّر عن أصالته وسموه في المجتمع والقبيلة.

وقد ورد الخيل في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ**﴾[سورة صاد، الآية:31]، ودعا الله عباده إلى التّأمل في خلقه وعظمة قدرته، وجعل الخيل زينة الحياة الدنيا ومتاعها في حياة الإنسان، فجاء في قوله تعالى:﴿**والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لتركَبُوهَا وزِينةً ويَخلُقُ مَالاَ تَعْلمُونَ**﴾[سورة النحل، الآية:8].

وللخيل فضائل عديدة استأثرت حياة الإنسان العربي، فاهتم بتربيتها فيقدم لها الطعام ويسقيها الماء ويعتني بتنظيفها، حتى أنه فضَّلها على نفسه ومجَّدها ووقَّرها، فاحتلت درجة عالية من العزَّة والكرامة، ولها أسماء مختلفة منها الجِياد وهي:"جمع جَواد؛ وهو الفرس سريع الجري، جيد الرَّكض، السابق في العدو ذكرا كان أم أنثى، يقال، فرس: فرس جواد، أي يجود بمدخل عدوه، ويقال:جاد الفرس، يجود،جودة، فهو جواد إذا أسرع في جريه وعدوه، والجمع جِياد"[1]؛ والجواد هو الحصان السّريع الجري الذي يركبه الفارس ويخوض به السّباقات والمعارك، كما يمتطيه في رحلته للصيد ويطارد به، كما أنّه كان أنسب وسيلة في الحرب.

والخيول العربية رمزا للجمال والأصالة والقوة وأيضا الرشاقة، و "الحصان حيوان هادئ ورصين، ليست له طبيعة عدوانية إلا إذا هوجم بشيء من القسوة، فيهرب عادة من المواجهة التي يخافها، ويقلق لأقل سبب لما له من طبيعة رقيقة (...)، أما إذا جوبه بالخطر أو إذا أُسيئَت معاملته فإنّه يستطيع ضرب عدوه برجليه الأماميتين وبرقبته حتى يطرحه أرضا"[2]، هذه تعتبر ميزة الحصان العربي، فهو يمتاز بالهدوء والرصّانة فهو دائم النشاط، يرى فيه صاحبه الكرم والوفاء وشدّة صبره على الشّدائد، إضافة إلى همّة نشاطه في الحروب وسرعته في الصّيد.

أمّا فيما يخص الفرس في حياة الشاعر الجاهلي وحضوره في القصائد الجاهلية، وما يكتنزه من رموز مختلفة تكشف دلالة الحياة الجاهلية، من طقوس وعادات تعبّر عن منطقة الجزيرة العربية من أرض صحراوية شاسعة

---

[1]- زغلول راغب محمد النجار: الحيوان في القرآن الكريم، ص146.

[2]- م ن ، ص148.

مترامية الأطراف احتوت قبائل متفرقة؛ إذ يغلب عليهم طابع البداوة والتّرحال الذي فطر عليه العربي في بيئته الصحراوية، كما سيطر على المجتمع الجاهلي الطابع القبلي، فكانوا قبائل متناحرة ومتضاربة فيما بينهم، خاضعة للحروب الطويلة وما تميزت به من صراع دائم لسنوات، وكان لكل قبيلة شاعرها الفذ، الناطق بلسانها ويدافع عنها معليا من شأن قبيلته، وأغلب شعراء الجاهلية أقبلوا بشكل قوي على حب الفرس والاعتزاز بامتلاكه في ممارسة توجُهات حياتهم المختلفة.

والفرس هو مفخرة العربي في قبيلته من خلاله تبرز عنده قيم الشّجاعة والشَّهامة والبطولة، هذا ما يزيده عُلوا وشأنا في نظر زعماء القبيلة في عصره، فأصبحوا يتلهفون بشدّة عليه لخوض حروبهم، و سلاحه في ذلك فرسه فيشارك معه رحلات الصَّيد و النّزاعات و الحروب الثّائرة، و هذا جاء في كثير من أشعارهم حيث كان الفرس بعد حيوان الناقة محلّ اهتمامهم، وقدّموا له أوصافا كثيرة، هذه الأوصاف قد اختزنت رموزا عبّرت عن حقيقة الفرس في علاقته بحياة الشاعر الجاهلي، في حضن بيئته القاسية التي فرضت عليه القوة ليمتلك صلابة وجوده، « و كانت القوة شرطا من شروط وجوده، وعاملا من العوامل التي تلعب دورها الفعال في مجتمعه، ولذلك كان الفارس مكرمة من مكارم قومه ومفخرة من مفاخرهم التي يعتزون بها ويشيدون ببطولاتها»[1]، تغنّى الشاعر الجاهلي مفتخرا بفرسه وأشاد ببطولاته معه، وأنه كان تلك الطاقة الخفيّة التي شحنته الشّجاعة في خوض الحروب ببسالة، كما اعتمد فرسه في الصَّيد ورحلات الطَّرد.

وعرف العرب في جاهليتهم الفروسية وذلك «في تقاليدهم و مثلهم و حياتهم و صورهم في أشعارهم التي خلفوها، فتركوا لنا أدبا وافرا يحمل النواة الأصيلة لشعر الفروسية والشّجاعة والحروب»[2]، و قد كانت هذه الأشعار تصف الفرس وبالتالي تخلق لنا احتمالات رمزية حَوَت معاني شعرية بألفاظ غريبة، تعبّر عن نفسية الشاعر تحت قناع رمزية الفرس؛ إذ ألبسوه صورا جمالية بأساليب تركيبية أفصحت عن الدلالات الرمزية للفرس في حياة العرب الجاهلية، وغالبا ما ارتبطت بالمعتقدات الدينية والاجتماعية وكذا الفكرية للعرب، وهذا ما أشار إليه "الشوري" فقد بدى له أنّ : «صورة الفرس في السماء كانت مرتبطة بالمطر و الماء (...) وهذا ما لفت الشاعر

---

[1]- نوري حمودي القيسي: الفروسية، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1964م، ص47.

[2]- م ن، ص40.

الجاهلي عند حديثه عن فرسه، فاتخذه رمزا للغيث والخير والحياة وأملا في المستقبل، وكأنَّ وجود الفرس على صورته الطبيعية كان مظهرا من مظاهر الإرادة الإلهية لتحقيق الحياة الإنسانية على الأرض»[1].

اتّضح أن الفرس حمل رمزية دينية تعبّر عن طقوس وأفكار العرب في الجاهلية، فكانوا يعتقدون وجود الفرس في السماء غير الذي في الأرض وهو مبعث الخير والرزق و المطر، ومنه يستطيع الإنسان أن يستمر في الحياة، فكان الفرس من هذا الجانب رمزا للحياة ورمزا للخير والخصب والنماء في حياة البشر، ولهذا «أحب العرب الخيل في العصر الجاهلي لما أدته لهم من نفع كثير، لذلك كانت عنايتهم بها و اهتمامهم بتربيتها عناية تفوق كل شيء، وقد اشتهر الجاهليون بالمحافظة على أنسابها و عدم الخلط بين سلالاتها، فنراهم يخلدون ذكرها وصفاتها في قصائدهم و مقطوعاتهم»[2].

اشتهرت الخيل في قصائد الشعراء الجاهليين فأكثروا من ذكر منافعها و فوائدها، فأولوها عناية خاصة على حساب أنفسهم، و تعتبر عندهم من أنفس الأشياء في الموجودات، لدرجة أنّهم يؤثرونها على عائلاتهم و أولادهم فرفعوا من شأنها وأعطوها مرتبة التّقديس، كما أن الفرس يُعبّر عن الكرم و الجود و هي من الخصال الحميدة التي يتحلى بها الإنسان في العصر الجاهلي، فاعتبر بذلك الفرس رمزا للكرم والعطاء دون مقابل، فكان الحصان و فارسه متوحدان و يشتركان معا في صفات متعددة، اقتضتها الحياة العربية القبلية التي تقوم على الصّيد و الحرب، وهنا يستلزم وجود فارس قوي وهذا ما ذكره الشعراء في أشعارهم التي «تتحدث عن الفارس الجاهلي نرى أن الفارس هو منطلق الفروسية، و إذا تحدثنا عن الحرب كانت الخيل قوامها، وإذا تحدثنا عن الصيد ذكرت الخيل أيضا، و إذا ذكر الكرم و العطاء كان الجواد صفة لمحذوف هو الإنسان الكريم العطاء، فكان الإنسان والحصان شيء واحد»[3]، وبذلك يعمد الشاعر الجاهلي إلى إسقاط كل مواصفاته التي يتحلى بها على فرسه برموز تعبيرية تلخص جوهره الباطني و حقيقته الشعورية، فكان رمز الفرس هو المعبر عن كل هذا.

فالشاعر الجاهلي يعيش في ظروف قاسية، مصرّحا عن معاناته في جلب الرّزق واشتياقه الشّديد إلى تحقيق حلم الاستقرار الهنيء و العيش بهدوء، لكنها تبقى عنده مجرد أفكار تطير بها أحلامه و ترجع إليه خاوية لتصيبه التعاسة وفقدان الأمل، لكنه وجد ما يغنيه عن كل هذا و هو فرسه الذي يرى فيه منبعا لقوته وصبره على هذه

---

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص141.

[2]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1970م، ص106.

[3]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا و فنون و نصوص، ص ص 418، 419.

الحياة القاسية، فكان الفرس بعد الناقة ذلك الحيوان الوفي حيث حمّله الشاعر الجاهلي كل أثقال همومه وآلامه ومآسيه، التي يتلقاها بصبر و روّية محاولا أن يثبت تأسيه و تجلده في تأمله لفرسه، مبرزا جميع مواصفاته في شعره برموز دلالية احتوت تلك الصفات، ليبقى «الفرس جزء من عالم الإنسان الجاهلي و لهذا فإن الشاعر قد اتخذ منها عنصرا لبناء نموذج الإنسان البطل، فهي وسيلة النصر الواقعي والميتافيزيقي عند الجاهليين، فإذا كانت الطبيعة قد فرضت نفسها على الشاعر، و أحاطته بهذا الفضاء الواسع الذي يثير الرَّهبة، و يُشعره بالتناهي و الصغر في مواجهة امتداد المكان اللاَّمتناهي»[1].

إن الطبيعة قست على الإنسان الجاهلي وأغلقت عليه أبواب الأمل من أجل تحقيق آماله المعلقة في هواء الأحلام والخيال، فينتهي به المطاف إلى طرق أبواب التعاسة والشعور بالتشاؤم، من هذه الحياة التي فُرضت عليه، إلاّ أنها ليست نهاية الطريق بل إنّ: « الطبيعة قد أمَدت للإنسان الجاهلي بالفرس والناقة ليكسر هذا الجمود المحيط به ويتجاوز الثبات المفروض عليه فيحقق ذاته من خلال الحركة»[2].

الفرس ساند الشاعر الجاهلي في تجاوز محنته التي كسرت وجوده واستمراريته، فكان خير رفيق ساعده على الصبر والتوجه نحو الحركة والاستمرار في حياته بقوة وثبات، و أن الحياة لا تتوقف عند هذا الحد، وهذا ما أبرزه شعراء الجاهلية كاشفين عن كيانهم النفسي تحت جناح الفرس، الذي أحاطت به المكنونات النفسية التي عمد الشاعر إلى نسْبها له، وفق خياله المستوحى من طبيعة بيئته وشساعة صحرائه، «كما نرى الشاعر يحيل شهادة بطولته إلى الخيل وكأنَّما أصبحت هذه الخيل بديلا عن الفرسان الذين يركبونها»[3]، وهذا ما يجسده قول"عنترة بن شداد" في هذين البيتين:

هَلاّ سَأَلتِ الخَيْلَ يا ابنةَ مالكٍ إنْ كُنْتِ جاهِلةً بِمَا لم تَعْلَمِي

ويكمل قائلا:

يُخْبرُكِ من شَهِدَ الوقَائِعَ أنَّنِي أَغْشَى الوَغَى وأعفُّ عندَ المُغنَمِ[4]

(1)- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص419.

(2)- م ن، ص420 .

(3)- م ن، ص ن.

(4)- عنترة بن شداد: شرح ديوان عنترة بن شداد، صححه: أمين سعيد، المكتبة التجارية، مصر،(د ط)،(د ت)، ص126.

ففي هذه الأبيات يقف "عنترة" مشددا، مطالبا عبلة أن تسأل خيله عن شجاعته وهمّته العالية في الحرب إن كانت لا تعلم بذلك، وأن تُقدم على مساءلة الفرسان حوله عن بطولاته وانتصاراته الدائمة، كما يعتز بكرامة نفسه وعزَّتها فهو لا يأخذ مالا ولا يستولي على الغنائم بعد انتصاراته كما يفعل غيره من الفرسان، فهو يرى في خيله النبل والصدق والاتحاد في الشدائد، وأنه شاهد على جميع غزواته في الحرب.

ويعلق على ذلك "حسني عبد الجليل يوسف" قائلا: «فكأن شهادة الخيل أصدق من شهادة الإنسان، وقد يرتبط هذا بواقع عنترة الذي جعله يقدم سؤال الخيل على الفرسان الذين كانوا كثيرا ما ينكرون بطولاته»[1]، فهو قدّم مساءلة الخيل أولا على الفرسان؛ لأنَّه يرى فيه الكائن الوحيد الشاهد بصدق على عزيمته وشجاعته في الحروب، وقد يكون فرس"عنترة" في نظره رمزا للصدق والنبل، كما أنه يرمز إلى الهمَّة والعفة والشّجاعة.

ويشير"يحي الجبوري" في نفس السياق إلى فرس "عنترة" فيقول:«أمّا فرس عنترة فقد أعدَّه للحرب والفارة، فهو فرس أصيل صبور وجريء، تحدث عنه في معلقته عند الحديث عن فروسيته، وقد وزَّع ذكره في ثنايا المعلقة فلم يجمعه في موضع واحد»[2]؛ إذ يمتاز فرس عنترة بما يمتاز به هو بالذات أي عنترة من أصالة وجرأة في الحروب، قصد تحقيق الانتصارات إضافة إلى صبره وتحمله المخاطر.

أما في تفسير هذه الأبيات السابقة فيكمل"يحي الجبوري" شارحا ذلك: «فهو يسائل عبلة ألم تسأل الخيل عنه وتستوضح أمر فرسانها ماذا كانت فِعَالُه في الحرب، فقد كان على صهوة جواد سريع لَيِنُ الجري كأنَّه يسبح في الهواء سباحة، وهو ضخم مرتفع في صدره جروح من طعنات الفرسان»[3]، رغم الجروح والطّعنات التي يتلقاها فرس "عنترة" إلا أنه يبقى صامدا محافظا على سرعته في الجري أثناء الحرب، متجها نحو إصابة هدف الانتصار ليعلو بذلك شأن فارسه عنترة، ويرى أن صموده وإقباله على الاستمرار في الحروب يرجع إلى فرسه، وهنا يُتخذ رمز الثبات والصمود وعدم التراجع، والخوض في غمار المعركة بإصرار كبير يمثل قوة وصلابة الفرس.

والمتعارف عليه أنَّ "عنترة" أمّه حبشية؛ ولذا عُدَّ من العبيد فعانى بذلك كثيرا، لكنه خاض بطولة فذة بشجاعة كبيرة خلدتها أشعاره، وصف فيها فرسه وأفعاله، من خلالها نستشف أهم الرموز التي احتوتها أشعاره في حديثه عن الفرس، ويقول"عنترة" في هذه الأبيات عن فرسه:

---

[1]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص420.

[2]- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4،(د ت)، ص74.

[3]- م ن، ص ص374، 375.

يَدْعُونَ عَـــنترَ والرِّمـاحُ كأنَّهَا أَشطانُ بئرٍ في لبــانِ الأدْهمِ

مـــــازِلْتُ أرْمِيهِـمْ بِثَغْرَةِ نَحْرِهِ ولِـبَانه حـــتى تَسرْبَلَ بالـدَمِ

فازْورَّ مـــــن وَقْــعِ القَنَا بِلبَانهِ وشَكى إِليَّ بِعَبْــرَةٍ وتَحَمْحُمِ

لو كان يَدري ما المُحاورةُ اشْتكى ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مكلَمِيْ

ولقـــد شَفى نفسـي وأبرأ سقمه قيلُ الفَوارسِ ويكَ عنترَ أقْدَمِ

والخَــيلُ تَقتحِمُ الغُبارَ عــوابِسًا ما بين شَيْظَمَةٍ وأَجْرَدَ شَيْظَمِ[1]

فهو في هذه الأبيات يتحدث بوجع وبرّقة عن إصابة فرسه في المعركة، حيث أطلقت عليه الرّماح على صدره فشبهها لطولها بأشطان البئر؛ أي الحبل الذي يستقى منه داخل البئر حتى عم جسده بالدماء، فتألم الشاعر بما أصاب فرسه وأحسّ بوجعه وألامه التي طرحته أرضا، واصفا بتأثير صادق صوت صهيله المليء بالأوجاع، فتسيل دموعه من شدّة الألم.

هنا تبرز العلاقة القوية والحميمية بين الشاعر وفرسه، من خلال إحساسه به بما يعانيه وما يجاهده من ضغينة وألم، وتجاوزه للمصاعب المؤدية للموت بشق الأنفس، وهنا «يبدو الفرس وكأنّه جزء من الفارس حيث تراه يرمي الفرسان بفرسه وكأنّهما شيئا واحدا، ويتجسّد امتزاج الشاعر بفرسه من خلال إحساسه بما يكابده الفرس من عناء ومشقة، وهو إحساس يقدمه الشاعر من خلال بثه للمشاعر الإنسانية في فرسه»[2]، عنصر الفرس في شعر"عنترة بن شداد" عبّر عن رموز كثيرة حسب ماجاء في أبياته الشعرية المتفرقة في المعلقة، فكان فرسه يمثل رمز الصمود والتّجلد والصّبر، كذلك احتل رمزا للقوة والصلابة، وهو أيضا رمزا للحياة واستمرارها وغالبا ما عبّر الفرس عن رمزية مهمة وهي الشّجاعة بشجاعة صاحبها.

إلى جانب"عنترة بن شداد" نجد"امرئ القيس" قد برع في وصف فرسه بدقة ووضوح في معلقته، مبرزا قوته وعظمته وسرعته في الصّيد، لتتفاعل ذات الشاعر مع فرسه مسقطا عليه مشاعره، بأسلوب فني رائع زيّنه بقوالب رمزية احتوت الإطار النّفسي للشاعر، وقد قال"يحي الجبوري":« فأما فرس "امرئ القيس" الذي يبكر قبل استيقاظ الطير، فهو ضخم عظيم الجسم قصير الشعر سريع العدو، يكرُّ ويفرُّ، ويُقبِل ويُدبر كأنَّه صخرة قذفها السيل من

[1]- عنترة بن شداد: شرح ديوان عنترة بن شداد، ص128.

[2]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص417.

شاهق، كُميتُ اللّون يضربُ إلى الصفرة(.....) وهو بعد ذلك كثير النّشاط سريعُ الحركة، له هباب وحمىَ عند نشاطه كالقِدر حين يغلي ينصب في عدوهِ انصباب لا تكاد حوافره تمسُ الأرض»[1]، يتجلى لدينا وصفا دقيقا لفرس"امرئ القيس" أبدى فيه نشاطه واستيقاظه الباكر، كما يصف عظمة جسده ولونه ببراعة فنية عميقة وسرعته في نشاطه المدهش، حيث يقول:

وقدْ أَغْتدِي والطَّيرُ في وَكناتِهَا بمنجَرِد قيْدِ الأوابِدِ هيْكَلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٌ مُدْبِرٌ معًا كَجَلمُودِ صَخْرٍ حَطَهُ السَيْلُ من عَلِ

كُميتٍ يزِلُّ عن حـــال متنه كـــما زلت الصَـــفواءُ بالمُتَنزلِ

على الذبْلِ جيّاشٍ كان اهترَامَهُ إذا جاشَ فيه حـــميه على مِرْجَلِ

مسَّح إذا مـا السَّابِحَاتِ على الونَى أَثّرنَ الغُبار بالكديد المُركَلِ

يزلُ الغُلامَ الخِفَّ عن صَهَوَاتِهِ ويلوَى بأثـــوابِ العنيفِ المثقَلِ

درِيرٍ كخُذروفِ الوليـــد أمرَّه تَتَـــابعَ كـــــفيهِ بخيط مُوَصَّلِ

لهُ أيطَلا ظَبيٍ وسَاقَا نعـــامة وإرخَاء ســـرحان وتقريب تَتْفُلِ

ضليع إذا مااسْتَدبَرَتْهُ سَدَّ فَرْجَهُ بضاف فريق الأرض ليس بأعزلِ[2]

يحيلنا الشاعر في هذه الأبيات إلى رؤية مشاهد تصويرية تمتثل في مخيلة قارئها؛ إذ أنه صور لنا بإبداع فني وتعبير حي سرعة فرسه وهو في حالة الصيد، ووقعِ سيره القوية تجعل الطيور تغادر وَكَناتها، حيث أبكر الصيد قبل أن تنهض الطير من مواقعها، وفي نفس المشهد يستمر في وصف قوة فرسه ونشاطه فهو مُكرٌّ مُفرٌّ، وفي سرعته يُشبه الصخرة التي ألقاها السيل من مكان عالٍ، كما يمضي إلى إعطاء صورة كاملة عن مظهر جسمه في انملاس ظهره واكتناز لحمه، إضافة إلى قوته البدنية في السير والعدو.

[1]- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص372

[2]- امرئ القيس: الديوان، ص ص 118،119.

كما أن فرسه لا يركبه إلا فارس متمكن يتحلى بالفروسية، وهو يرى أن الغلام إذا ركبه ينزلق من على ظهره إن لم يكن جيّد الفروسية، كما أنّ سرعته مثَّلها بسرعة الحصاة التي جعل فيها الصبي خيطا ويديرها على رأسه في لَعِبه، فهو يُشْبه سرعة دوران هذه الحصاة وغير ذلك كثير، فإنَّ فرسه يشبه حيوان الظّبي في خاصرته وأيضا شبه ساقيه بساقي النعامة لشدة سرعته،هذا وقد شبَّهه بإرخاء الذئب فقال: و إرخاءُ سرحان، هذا وإن دلَّ على شيءٍ فإنَّه يدل على رموزٍ كثيرة عبَّر عنها فرس "امرئ القيس"، وتجلت هذه الرموز بفضل براعة مخيِّلة الشاعر في تصويره لفرسه في حالة الصيد، حيث برز لدينا رمز الشّجاعة والقوة والسّرعة والنشاط، كما أبرز لنا صبر فرسه وجلده على الجري والسير قاطعا المسافات الطويلة، وبهذا يعتبر فرسه رمزا للصّبر والجمال الذي وصفه الشاعر بصورة فنية متناسقة، « وهذا الإعجاب بالحصان العربي هو الذي يغري الشاعر بأن يصفه وكأنّه يريد أن ينحته في شعره تمثالا نحو ما نجده في المعلقة»[1].

و يتوجه الشاعر إلى وصف فرسه وفق إيحاءات رمزية تحمل إشارات دلالية ذات بنية جمالية، كانت التفاتة فنية تجسد براعة الشاعر في إعطاء صورة متكاملة، عن رمزية الفرس في الشعر الجاهلي بصفة عامة، «وقد ارتبطت صور الخيل في الشعر الجاهلي بالصيد والفروسية، وأصْبغ الشعراء خيولهم صفات كثيرة كالصلابة والقوة وطول القامة، واهتموا أيضا بذكر حركاتها من كرٍّ وفرٍّ وإقبال وإدبار ووثب وجموح وتعريب وإصغاء»[2]، كل هذا كان له حضور مميز في فرس"امرئ القيس" الذي انعكس في رموز تصويرية، وفق إيحاءات جمالية انبعثت من مخيلة الشاعر، لتظهر لنا في لوحة رمزية انبجست من نفسيته العميقة، المفعمة بالإصرار والحماسة والمفاخرة بفرسه، فهو يمثل وسيلة أساسية في رحلاته الحربية وكذا رحلة الصّيد والطّرد فقد، «حرص امرئ القيس وغيره من الشعراء على تصوير سرعة الحصان وقوته بهذه الصورة الأسطورية وربطه بفكرة الماء، والسيل ماهو إلاّ وسيلة للخلاص النفسي الذي ينقلهم بعيدا عن واقعهم إلى واقع جديد متميز»[3].

فالسيل في القصيدة يحمل دلالة رمزية عميقة ليس بالسهل تحليل شفراتها الغامضة؛ فهو يعني رمز الخلاص النفسي من الواقع المؤلم الذي يعيش فيه الشاعر، ليسقط متحررا منه إلى واقع آخر تنبعث منه رائحة الأمل في تجديد حياته هو وفرسه، وهنا يحمل الفرس رمز الخلاص من الحياة القاسية والاستمرار بحثا عن الحياة الجيّدة، متجها إلى تحقيق أحلامه المنتظرة، ولهذا كانت «رحلة الصيد في فكر الشاعر الجاهلي رحلة أمل في المستقبل،

---

[1]- نوري حمودي القيسي وآخرون: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، دار الحرية، بغداد، (د ط)، 1979م، ص256.

[2]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص 141.

[3]- م ن، ص144.

ورغبة في استمرار الحياة ودوامها وكانت وسيلة الشاعر في هذه الرّحلة الفرس، كما كانت الناقة وسيلة في رحلة الظعن مما جعل الفرس رمزا للخير وللحياة»[1].

تتّحد حياة الشاعر مع فرسه ليصيرا كيانا متوحدا في السّراء والضّراء، في تحمل مشقّة الدّهر ولوازمه فاتخذه رمزا للعطاء والخير والحياة، ويعتبر الفرس تلك الأداة التي تحكمت بصدق في الكيان الشعوري للشاعر، وكأنّها هي التي تقوده في طريقه وليست هي من ينقاد لأوامره، ليرى الشاعر حاله خاضعا لا إراديا لأفعال فرسه وتصرفاته، التي حركت أحاسيسه وأرسلت إليه إشارات غير مباشرة فاستجاب لها بوعي وتفطن، ليأخذ صورة جديدة عن حياته وأنّه لابد أن تنحوا منحى ايجابي سيرا في اتجاه يفضي إلى فضاء مفعم بالأمل، حيث تتحقق فيه أمنياته التي هدأت بصبره، غرضا في الوصول إلى واقع أفضل يمحي واقعه السابق المؤلم.

ومع فرس آخر لشاعر جاهلي برع في وصف فرسه بصفات تحتمل أبعادا رمزية، في قالب فني ينبع من مخيلة الشاعر في إبداع تصويري خيالي، وهذا الشاعر "سلامة بن جندل" « هو من فرسان العرب المعدودين»[2] ، إذ يقول في وصفه للفرس:

والعادياتُ أَسَابِيُّ الدِّمَـاءِ بهَا كأنَّ أَعْنَـاقَهَا أَنْـصَابُ تَرجِيبِ

من كل حثٍ إذاَ مَـا ابْتَلَ مَلْبَدَه صَافِي الأَدِيم أَسِيل الحَدِ يَعْبُوبِ

يَهوي إذا الخَيلُ جازَتْه وثَارَ لَهَا هُويّ سجل مِـنَ العَليَاءِ مَصْبُوبِ

ليسَ بأسْقَى ولا أفنى ولا سِغلٍ يُعْطِي دَواءَ قـفّي السَكْنِ مَربُوبِ

فِي كلِّ قائِمَةٍ مِنْهُ إذا اندَفَعَتْ منـهُ أسـاوٍ كـفَرْغِ الدَّلْوِ أَثْعُوبِ

كأنَّه بَرْفَئِيٌّ نَـامَ عَـن غَنَم مُسْتَنْفِرٌ في سَوادِ اللّيلِ مَذؤوبُ [3]

---

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري ، ص144.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- المفضليات: تح وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، (د ت)، ص121.

تتجلى لنا الرمزية في صدر البيت الأول[والعاديات أسابي الدماء بها]، حيث شبه أعناق الخيل بعد عودتها من الغارة بالأنصاب، التي كانت تقدم عندها الأضاحي وهي مضرجة بالدّماء، وهنا تظهر رمزية قداسة الخيل عند العربي الجاهلي.

ويقول"عبد الشافي الشوري":«ثم نجد فرس سلامة بن جندل سريع العدو، فإذا فاته الخيل هوى كما تهوي الدلو العظيمة المملوءة بالماء، فهو يعبوب، وشبَّه دفعات جريه بأنصاب الماء من هذا الدلو في سهولة ويسر»[1]، فهو يصف خفة سرعته ورشاقة جسمه الذي مكنه من العدو السريع والنشاط المستمر؛ وبهذا تتضح رمزية الفرس في سرعته ونشاطه، إلى جانب مكانته المقدسة في المعتقدات الوثنية في الحياة الجاهلية، التي صرح بها الشعر الجاهلي عامة والمعلقات بصفة خاصة.

ويرى كثير من شعراء الجاهلية في الفرس وحسب ماجاء في قصائدهم، أنه الكائن الروحي الذي يبعث فيهم الأمن والحماية، حيث يتحصنون به من كل شر قد يلحقهم، فهو يمنع وقوع المصائب ويذيع فيهم روح الطمأنينة والإستقرار، "وقد وصل الأمر بالشاعر الجاهلي أن يصور الخيل حصونا تمنعهم وتحميهم»[2].

وعن هذا يقول"عبيد بن الأبرص" في هذا البيت:

مالنا فيها حُصونٌ غير ما ال مُقرباتِ الجُرْدِ تَرْدَى بالرِّجالِ[3]

أي أنهم يقربون الخيل إلى ديارهم لتحصينها، فهي لها كرامات الحماية والحصانة، وهذا مايراه بعض الشعراء في خيولهم، وبالتالي أصبحت الخيل عند الشاعر الجاهلي رمزا للاحتماء والوقاية تُحَصِنه من أي شؤم أو سوء قد يلحقه أو يصيبه.

يمكن القول أن الفرس في القصيدة الجاهلية عبَّر عن رمزية القوة والشّجاعة والصبر والبطولة، وهي رموز لا يختلف فيها أي شاعر، كما أنه يرمز للحياة واستمرارها، أيضا يعبر عن الأصالة والنبل وهذا ما صرحت به أشعارهم، ويرمزأيضا للخير والرزق والخصب، واحتل رمزية أخرى لا يمكن إنكارها وهي رمزية التقديس في معتقداتهم الوثنية في الفكر الجاهلي، وكذلك يُعبّر الفرس عن رمز الإنتماء.

---

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص144.

[2]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص415.

[3]- عبيد بن الأبرص:الديوان، ص101.

ثالثا:رمزية الحيوان الوحشي:

إن الشاعر الجاهلي في رحلته أَلِف وتآلف مع حيوانات كثيرة رافقته في سيره مستأنسا بها كالناقة والفرس، ولكن تعترض طريقه حيوانات وحشية مختلفة أثناء قطعه للأماكن الخطرة، فيعيش لحظتها مغامرات خطرة تهدد مصير حياته، في مناطق تحاصرها تلك الحيوانات المفترسة، التي تصادفه في طريقه، فيأتي الشاعر على وصف هذه الحيوانات، عاكسا نفسيته وذاته على ذلك الوصف الذي يختزن رموزا ترسم لنا أفكار الشاعر في قصيدته التي يحاول فيها التغلب على هواجس الخوف، متَّكئا على قوة المواجهة للقضاء على هلعه وذعره، ليعيش في حالة صراع نفسي من أجل الحياة، مع أنه يدري أن مصيره الفناء، إلاّ أنه يصارع ذاته المتأرجحة بين الموت والحياة، وهي فلسفة جدلية مختزنة في أعماق كينونة الذات الإنسانية، حقيقة لا يمكن انكارها، لنجده في صورة ذلك الحيوان مسقطا تجربته النفسية، فيحاول تجنب اقتراب الموت، ليكافح كل تلك العرقلات التي تلتقيه، من أجل تأصيل وجوده في هذا العالم.

وأكثر الحيوانات الوحشية التي نالت شهرة واسعة في القصائد الجاهلية، هي البقرة الوحشية، والثور الوحشي، والحمار الوحشي، والذئب...كلها احتملت رموزا متعددة، عبّرت عن ثقافة الشاعر الجاهلي الاجتماعية والفكرية والقبلية والعقائدية، وكذلك محيطه النفسي الذي يعكس جوف بيئته الصحراوية، بالأخص المناطق التي يقف عندها، والتي تكون نقطة التقائه مع هذه الحيوانات، وقد "ردّد الشعراء الجاهليون في أشعارهم وصف الثيران الوحشية والبقر الوحشي، والحمر الوحشية، والذي يبدو من خلال أوصافهم لهذه الحيوانات أن أكثر الصور التي ورد فيها ذكرها، جاء من خلال أوصافهم لرواحلهم"[1].

وارتبطت أوصاف هذه الحيوانات برموز أسطورية قديمة، تعلقت بالدّيانات القديمة الوثنية والمجوسية في الحياة العربية الجاهلية، وهذا ما يعكسه الواقع الفكري للبيئة العربية قبل الإسلام، الذي كان يحتكم إلى أساطير وخرافات قيّدت الفكر العربي، في تفسيره للظواهر الكونية والطبيعية والتي ارتبطت بتقديس الحيوانات خاصة، فالجاهلي يعيش حالة قلق نفسي وصراع ذاتي رهيب، وهذا راجع إلى طبيعة النظام الفكري القائم في العصر الجاهلي.

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص131.

ويشير"عبد الله الفيفي" قائلا: «لقد طبعت حياة العرب قبل الإسلام الإنسان بطابعها الخاص قلقا في نفسه وذهنه (...) في مجتمع قبلي تحكمه أعراف وتقاليد»[1]، والحياة الاجتماعية في البيئة الجاهلية، ذات طابع قبلي لأنّ الإنسان الجاهلي خاضع لسلطة القبيلة، فما تحمده القبيلة وترضاه يستحسنه هو أيضا، وما تنفر منه القبيلة وتستهجنه يستهجنه كذلك، وبالتالي نرى أنّ الإنسان الجاهلي« تحكمه أساطير وخرافات لا تُشبع فهم الذهن وعطش الروح إلى الفهم والقناعة والرضا، فإذا هي تستبد بالإنسان دواعي التساؤل والشك، لتبعده عن الاستمتاع بالحياة العابرة إلى التفكير في قضايا الإنسان الوجودية وكلِّياته المصيريَة »[2].

وقد ارتبط وجود الإنسان الجاهلي بصفة عامة، والقائم على تحقيق أهدافه بتآلفه مع حيوانات بيئته التي رافقته وكذلك التي صادفها خلال سيره، فيعمد إلى ربط كيانه الشعوري وأحاسيسه بتلك الحيوانات؛ إذ يتمعن في وصفها بدقة كاملة في جعل تلك الأوصاف رموزا تلخص تجاربه النفسية ومعاناته واضطهاده، في قالب قصصي زيّنته رموز جاءت بألفاظ غامضة تخفي وراءها مكبوتاته النفسية، فذلك الحيوان الوحشي سواء كان البقرة الوحشية أو الثور الوحشي أو الذئب...الخ، هي رموزا حيوانية كاشفة عن حقيقة المعاناة النفسية للشاعر الجاهلي، وقد يستحضر الحديث عنها في مواضع يشبه بها ناقته، فيسهب في وصفها مشبها ناقته مثلا بتلك البقرة ، واتضح ذلك في كثير من أشعارهم.

والصحراء هيَّأت الجو المناسب للشاعر الجاهلي كي يألف مع حيواناتها، ويعمل على إسقاط مكبوتاته النفسية على ذلك الحيوان، في ساحة المغامرة، حيث يصنع من نفسه بطلا لا يُقهر ولا يُهزم، رابطا بأسه وشجاعته بذلك الحيوان، والتفت الشعراء الجاهليون إلى وصف الحيوان الوحشي الذي يجوب الفلوات والفيافي الواسعة، في أشعارهم الفنية، ورسموا لنا هذا الوصف في لوحات فنية توحي ألوانها إلى رموز متعددة، تكشف لنا حد التّماهي الحاصل بين الشاعر وذلك الحيوان الوحشي، يصور لها أبعاد ودلالات نفسية عميقة، ومن هذه الحيوانات التي احتلت دورا كبيرا في دراما القصيدة الجاهلية نجد: البقر الوحشي، الحمار الوحشي، والثور الوحشي...، إذ يجعلنا الشاعر نعيش لحظة اكتشاف إستراتيجية الأبعاد الرمزية، التي سطَّرها الشاعر في أبياته

[1]- عبد الله الفيفي: مفاتيح القصيدة الجاهلية نحو رؤية نقدية جديدة، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 2001م، ص217.

[2]- م ن، ص ن.

الشعرية، « فالشعراء قد مثّلوا للإنسان في صراعه ضد الموت بقصة الحيوان الوحشي الذي يصارعه الدهر في صورة الصائد فيرديه، وتنتهي القصة دائما بموت الحيوان رمزا لاستحالة خلود الأحياء جميعا»[1]

كذلك الوعي الإنساني منذ القدم، ارتبط من أجل تحقيق البقاء، فيسعى جاهدا إلى الاجتهاد بحثا عن سبل العيش الناجحة والوسائل التي تعينه على الاستمرارية، وقد حددت لنا الأساطير الأولى صراع الإنسان مع قوى الدهر، مكتفيا بفكرة جوهرية هي فرض ذاته في هذا العالم، وهو يعلم أن نهايته المحتومة هي الموت، لكنه يعمد إلى معاكسة حقيقة القدر، مناقضا الواقع، ليصعد سلما آخر يصل به إلى عالم جديد ليحقق وجوده، وهذا ما أشارت إليه قصة الحيوان الوحشي وصراعه في حالة الصيد، حيث يكون نقطة هدف اقتناص الصياد،«وإذا كانت قصة الصيد تقدم لنا رموزا للصراع بين الموت والحياة، فإنّها تقدم لنا نموذجا للإنسان الصائد ونبدأ بصورة الصائد في هذه القصص التي تمثل ذلك الصراع الوجودي»[2]

إن قصة الحيوان الوحشي عند شعراء الجاهلية تدور ضمن سيناريو واحد، تمثل في صراع ذلك الحيوان مع كلاب الصيد التي تطارده، ومحاولة الهروب من القناص الذي يرقبه مرسلا إليه كلابه، وهي قصة تجسد واقع الشاعر الجاهلي في صراعه مع معاناة الزمن وقساوته، محاولا الهروب من واقعه الذي يطارده.

[1]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا و فنون ونصوص، ص422.

[2]- م ن، ص ن.

1- رمزية البقر الوحشي:

أولا ينبغي منا الإحاطة بما جاء في أبحاث الدارسين والباحثين في علم الحيوانات، وهناك من اتجه صوب البحث عن البقر الوحشي وأصنافه وما يتصف به في جوانب مختلفة جاءت من باب المعرفة، حيث يشير "الدميري"إلى البقر الوحشي فيقول:«هذا النوعُ أربعةُ أصنافٍ: المهَا، والأيِّلُ، واليحمورُ، والثَيْتَلُ، وكلّها تشرب الماءَ في الصيف إذا وجدته، وإذا عدمته صبرت عليه»[1].

وتمثلت أنواع البقر الوحشي تحت ألقاب مختلفة، ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، كالمها، الأيّل واليحمور والثيْتل، تطرق إليها الشاعر الجاهلي كذلك فإنّ «البقر الوحشيُ أشبهُ شيءٍ بالمعز الأهليّةِ، وقرونها صلابٌ جداً تمنع بها عن نفسها، و أولادها كلاب الصَّيْدِ والسِّباع التي تُطيْف بها»[2].

والشاعر الجاهلي تطرق في وصفه إلى الحيوان الوحشي في مواضع كثيرة، استلزمت منه أن يصغي إلى خياله الأسطوري، وتسليط الضوء على إعطاء أوصاف فنية بتصوير أسطوري لهذه الحيوانات الوحشية، التي تجوب الفيافي والفلاة الشاسعة، فكان البقر الوحشي حديث كثير من الشعراء الجاهليين، حيث اكتسب التفاتا في أشعارهم، وقد يأتي وصف البقرة في بعض الأحيان عن طريق تشبيه الشاعر ناقته بها، فاحتملت وجوها رمزية عديدة، وقديما عبّرت البقرة الوحشية عن الطقوس الدينية الجاهلية، وفي هذا السياق يقول "عبد الله الفيفي": «والبقر هناك هي البقرة الوحشية من المها والظّباء، ذات الوظيفة الدينية لديهم»[3].

إذ رصد الشعراء الجانب الديني للبقرة الوحشية في قصائدهم، فجسدت رموزا أسطورية توحي إلى ديانة الجاهليين،حيث قدّس المجتمع الجاهلي الحيوان، وهي ظاهرة دينية تعرف بالطوطم، أي عبادة الحيوان، في الفكر الديني الجاهلي، الذي اتخذته العشيرة، حيث يقومون بتعظيمها، واتخذوا لآلهتهم أسماءًا من هذه الحيوانات، ويشير جواد علي إلى ذلك قائلا: «ومن أسماء الحيوانات التي تسمت بها البطون والعشائر: كلب، ذئب، ودب وسلحفاة، وثعلب، وهر، وبطة، وثور، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطوطم»[4].

---

[1]- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص500.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- عبد الله الفيفي: مفاتيح القصيدة الجاهلية ، ص125.

[4]- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،ج1، جامعة بغداد ، ط2، 1933م، ص520.

وتندرج البقر ضمن الحيوانات التي عبدها الإنسان منذ القدم، في حقب تاريخية مختلفة، وهذا ما أرّخ له الشعر الجاهلي.

وكانت البقرة الوحشية من الحيوانات التي رأى فيها الشاعر الجاهلي تطابقا واضحا مع حياته، فتجلى ذكرها والحديث عنها في أشعارهم، فرصدوا صورها في لوحات فنية موحية إذ؛ «تعد صورتها في لوحة الصّيد من أكثر الصور ذكرا ومعالجة لمدى إبداع الشعراء، وتتشابه اللّوحات في الغالب في إطارها العام، لكنها مختلفة تمام الاختلاف في خصوصياتها الفنية»[1]، لأنّ كلّ شاعر يحظى بأسلوبه الفني الخاص، ينفرد به عن غيره من نفر الشعراء، ويميّز إبداعه المنبعث من وجدانه، الذي ينعكس في صورة البقرة الوحشية، هذا التصوير يخلق تمايز فني لدى كلّ شاعر، لأن الأحاسيس والمشاعر ليست واحدة، فاختلاف التصوير الفني من اختلاف نفسية الشاعر وما يجول في أعماقها، ويتجلى ذلك في رصدهم للصور المختلفة للبقرة في أشعارهم، تحتاج منا إلى تمعن دقيق، وقراءة متأنية، من أجل الكشف عن تلك الرّموز العميقة بعمق إيحاءاتها؛ إذ احتضنت معاني معبّرة عن البقرة الوحشية التي تطل على أغوار الذّات الإنسانيّة للشاعر وتجربته الشعوريّة الصادقة بصدق أحاسيسه، و التي« تعدّ صورتها في الصيد من أكثر الصور معالجة عند الشعراء، وتعتبر قصائد "لبيد"و"الأعشى"و"زهير" و"طرفة"و"النّابغة" من أبرز القصائد التي قيلت فيها وأطولها وأن كانت الملامح متشابهة»[2].

إن ملامح التصوير عند الشعراء للبقرة الوحشية، قد تكون متشابهة، إلا أن تتبع الشاعر الجاهلي للبقرة ورصد صورها التي اختزنت رموزا اختلفت عند كل شاعر باختلاف تجربته وحالته النفسية، أو أنّها رموزا تحمل المعاني نفسها، ولا عجب في ذلك كون الشعراء عاشوا الحالة نفسها والظروف القاسية، في بيئة خشنة اصطبغت في مشاعرهم الذاتية، فأعطوا بذلك للبقرة رموزا بمعاني متشابهة وقليلا ما تختلف.

والشعراء الذين تطرقوا إلى وصف البقرة الوحشية سردوا قصصا، حُبكتها تجسّد واقعا إنسانيا، مغمورا بعاطفة الأمومة، لكنه يرسل في ذهن القارئ حياةً مليئة بالشوق والألم، منطبعة في الذات الإنسانية، حيث جعلنا الشاعر الجاهلي"لبيد بن ربيعة" نعيش معه موقف قصصي حزين، مثله في صورة البقرة الوحشية، التي تعكس حالة الصّراع النّفسي الذي يعيشه الشاعر، فيخطف أحاسيسنا وعواطفنا لنعيش معه اللحظة ذاتها، فيقول في معلقته:

---

[1]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص135.

[2]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص133.

أفَتِلكَ أمْ وَحْشِيَّةٌ مســـبُوعَةٌ خَـذَلَتْ وهادِيَةُ الصَـوّارِ قـوامُها

خَنسَاءَ ضَيَّعَتْ الفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ عُرْضَ الشَقَائِق طَوْفُهَا وبُـغَامُـها

لُمَــعفَّرٍ قَهْـــدٍ تنازَعَ شِـلْوَهُ غُبْسٌ كُواسِبُ لا يَـمُنُّ طعامُـهَا

صادَفْــنَ منهاَ غِرَّةً فأصَبْنَـها إنَّ المَناياَ لاَ تَطيشُ سِـــهامُـــهاَ

بَاتَتْ وأسْبَلَ وأكِفٌ من دِيمةٍ يُرْوَى الخمائِلَ دائما تسْجَامُـهَا

يعْــلُو طَرِيفـَـةَ مَتْنِها مُتَوَاتِرٌ في لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُـــهَا

تجتافُ أصْلاً قالصاً متَنبِّذاً بعُجوبِ أنْــقَا يَميــلُ هيامُـــها

وتضيءُ في وجْهِ الظَّلام مُنيرَةً كَــجُمَانةِ البَحْريِّ سُــلَّ نِظَامُهَا [1]

يمدنا الشاعر بمشاهد حية تعكس الكيان النفسي للإنسان ، في صورة الحيوان الذي هو البقرة الوحشية في القصيدة، لنعيش في كل لقطاتها لحظاتٍ تطرق باب الحزن والألم في نفسية البقرة الوحشية التي افترس السَّبعُ ولدها بغفلة منها، فذاقت حرقة فراق الأم لوليدها، الذي أكله السّبع، فراحت تطوف أرجاء المكان بحثا عن ابنها المسبوع، لتتجرع في الأخير طعم الاستسلام، وخيبة لقاء ابنها حيا من جديد، لكن أصابها ألم أقسى بكثير وهو رؤية كلاب الصيد تنهش عظام ولدها، هذا المنظر القاسي، خلق فيها نوعا من الوحشية، فراحت تصيح بصوت ينبع منه الألم والخوف والفقد، وبعد آلام الفراق باتت تحت برد المطر يهطل عليها، إلاّ أنّها اختارت مكانا لها في جوف شجرة لتختبئ فيه من شدّة البرد والمطر، وعند سطوع ضوء النهار، تبقى سلسلة الصراع مستمرة، فتعيش حالة صراع آخر أنساها في ألم الأمومة، تمثل في قتالها الحاد مع كلاب الصيد، وفي الوقت ذاته حاولت تخطي وتجنب ضربات السّهام المتأتية من الصائد الذي يرصدها، باعثا لها كلابه، لمحاولة اقتناصها، فصارعت الكلاب بكل قوّتها، مغمضة عين الخوف لتكون الغلبة أخيرا من نصيبها فقتلتهم جميعا.

ويمكننا أن نستشف من أبيات القصيدة، رمزية الأمومة، وهي غريزة طبيعية في الذات الإنسانية، جسّدها الشاعر في صورة البقرة التي فقدت ولدها، لتعيش خلالها لحظات كلّها حيرة وألم وفقد، كرمزية للأمومة وهو أقسى

[1]- الزوزني: شرح المعلقات السبع، تح وشرح: أحمد أحمد شتيوى، دار الغد الجديد ، القاهرة، ط1، 2009م، ص 111- 113.

شعور تعيشه الأم عند خسارة ابنها، أيضا نلمح صراع البقرة في المشهد الثاني مع كلاب الصيد وانتصارها في النهاية، كرمزية الصراع من أجل الحياة.

بالرغم من هاجس الخوف والرعب الذي أصاب البقرة لحظة فراق ولدها، إلا أنّه لم يقتل فيها رغبة الحياة، وهي فلسفة الإنسان في حياته والمتمثلة في تأكيد وتأصيل وجوده، من خلال عدم الخضوع لنداء الموت، وكأنه في صراع مشتت مع قدر الموت، بغرض تحقيق الخلود، والبقاء حيا، غير مباليا بقوة أخرى غير قوته، وهي قوة القدر أو المصير المحتوم، وهذا ما عكسته الأساطير القديمة.

ويشير"الشوري" مبرزا المنظور النفسي للشاعر في قوله: « فالنصر للبقرة نجاة من الموت، وهطول المطر استمرار للحياة وهذا مايتمناه الشاعر في هذا العالم المحيط»[1]، انتصار البقرة جاء كرمزية الانتصار على الموت والاستمرار في الحياة.

وفي السياق ذاته يعطي"نوري حمودي القيسي" تأويلا آخر للقصيدة ليقول: «فإذا غريزة الدفاع عن النفس تغلب غريزة الأمومة، والحرص على الحياة تنتصر على عاطفة الإحساس بالطفل الفقيد، وإذا هذه الأم الحزينة صيدٌ يطلبه القنَّاص»[2].

ويشير"عبد المالك مرتاض" حول قصة البقرة الوحشية ومطاردة الكلاب لها، فهوى يرى أن: «هذه البقرة لم تعمد إلى قتل الكلبتين كساب وسخام إلا بعد أن كانت في الحقيقة، ابتليت بعدوان الصّياد وكلابه على جؤذرها، وبعد أن كانت أيقنت، بعد سبع ليال مضتها تنتظره لعلّه يؤوب إليها»[3].

كما أن مشاهد العاطفة التي رسمها الشاعر الجاهلي في أحداث قصة البقرة والكلاب، قد استهلها بعاطفة الأمومة، من أجل جذب المشاعر وتجييشها، ليخلص وراءها إلى غريزة حب الحياة، التي تجسدت في قوة الدفاع عن النفس والنجاة بها من مصير الموت، هي رسالة مشّفرة أرادها الشاعر، تمثلت أن خسارة الإنسان في حياته وفقده أثمن الأشياء، لا يعني نهاية وجوده، بل عليه الاستمرار نحو الأمل، وتأصيل وجوده رغم المكائد التي تواجهه، «و"لبيد"بأسلوبه القصصي الفذ استطاع جذب انتباهنا، وتشويقنا إلى نهاية هذه البقرة الوحشية ومصيرها،

---

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص132.

[2]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص133.

[3]- عبد المالك مرتاض: السبع المعلقات، دار البصائر، الجزائر،(د ط)، (د ت)، ص387.

خصوصا أنه تناول جانب الأمومة عند البقرة الوحشية، الذي يعد عماد هذه القصة بكل ما فيها من إحساس ومشاعر ينتابها الحزن والخوف والعجز والخطيئة»[1].

في القصيدة نجد الشاعر قد أصبغ على البقر الوحشي صفات إنسانية، كأنّه يلخص لنا رحلة الإنسان في هذه الحياة والصراع الذي يعيشه مع محيطه، المتمثل في الصحراء، ومع رغباته المتمثلة في عاطفة الأمومة، وحب الحياة، ومع الموت الذي تجلى في صورة الكلاب التي تطرده دائما، ليحقق انتصارا في هذه الحياة.

وفي الأخير تجلت لدينا رمزية البقرة الوحشية، بحيث اكتفينا بقصة البقرة الوحشية عند "لبيد"، ونفس القصة عند"الأعشى" و"زهير" وباقي الشعراء، لنستشف في النهاية أن البقرة الوحشية رمزا للأمومة، والحياة، والقوة رغبة في تحقيق البقاء.

2-رمزية الثور الوحشي:

[1]- جواهر محمد فايز الشهري: صورة أمومة الحيوان في الشعر الجاهلي، (مخطوط ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 2014م، ص153.

من الثابت أن يحضرنا في القصيدة الجاهلية، حيوان وحشي آخر التقى به الشاعر في عملية ترحاله، في حرارة الصحراء الجافة المفروشة بالرمال والصخور، ليظهر له الثور الوحشي، فأعطاه الشاعر الجاهلي أهمية بالغة ومحترمة في ثنايا القصيدة الجاهلية، وهو من بين الحيوانات الوحشية التي احتلت مكانة رمزية داخل نفسية الشاعر الجاهلي لاعتبارات كثيرة تعكس سطح المحيط الذي يعيش فيه.

ورد معنى الثور عند"الدميري" كما يلي: «الثور: الذكر من البقر، وكنيته أبو عجل، والأنثى ثورةٌ، والجمع ثِوَرَةٌ وثِيران وثِيرَةٌ»[1]، وأيضا « سمي الثور ثورًا، لأنه يثير الأرض، كما سميت البقرة بقرة لأنها تبقرها»[2].

وانبعثت لنا صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي، من خلال تصوير الشاعر لناقته ليأتي الثور آخذا حصته من هذا التصوير معبّرا عن المشاعر العميقة للشاعر الجاهلي، والثور الوحشي مثل البقرة الوحشية في ارتباطه هو الآخر برموز دينية أسطورية، احتوت الفكر الديني الجاهلي، في دواوينهم الشعرية، حيث أنّه:«من الباحثين من رأى في صورة الثور رموزا أسطورية لها أبعادها في الفكر الديني والإعتقادي لدى عرب الجاهلية، فعلى-أية حال- فإنّ صورة الثور الوحشي تظهر بشكل متلاحق في اللّوحات الفنية لدى الشعراء الجاهليين»[3].

احتل الثور في بيئة العرب قبل الإسلام صورا رمزية مختلطة، تعبّر عن ديانة العشائر والقبائل في منطقة جزيرة العرب، وهي رموز لها إيحاءات وإشارات ترمز إلى قدسية الثور في حياة الجاهليين المحتدمة بالأساطير القديمة، تحدد وعيهم وفكرهم الجاهلي في تلك الفترة، «ولا شك أنّ خيال الشاعر الجاهلي كان يرده بلا وعي إلى التاريخ الطويل المليء بالأساطير القديمة، وهكذا تبدو الصورة المكررة -النمطية- مرتبطة بعقيدة قديمة آمن بها القدماء(.....)إلى أن وصلت إلى الفترة التي سبقت الإسلام»[4].

عندما يتحدث الشاعر عن الثور الوحشي في قصيدته، يرجع بلا وعي منه إلى إحياء التراث الأسطوري الذي اكتنف حياة الجاهليين، فيشير في رحلة سرده قصة الثور إلى تلك الطقوس التعبيرية في العصر الجاهلي، وفي هذا إحالة واضحة على مدى إدراك الإنسان الجاهلي وتبجيله للمعتقادات والأساطير القديمة وتقديسها، فيمضي إلى ربط تلك التصوّرات الدينية والعقائدية، والرّوحية والفكرية للشاعر الجاهلي في سياق نصه الشعري، لنلحظ

[1]- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص589.

[2]- م ن، ص590.

[3]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص128.

[4]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص118.

مدى تأثير القصص الأسطورية والدينية على النّطاق الفني للقصيدة الجاهلية، التي تجلّت في قصة الثور الوحشي، ويوضح ذلك"اسماعيل محمد عبد العاطي" بأنه «لا يخفى علينا ما كان للثور من موروث ديني في المنطقة العربية وغيرها، من هذا الموروث تقديم الثور كأضحية للآلهة، وهذه التضحية تعيد للمجتمع اتزانه، وبقايا الدماء التي على قرني الثور تمثيل رمزي لتلك التضحية»[1].

المادة الأسطورية في القصيدة الجاهلية جاءت مرتبطة بالسّياق الديني والاجتماعي للفكر العربي قبل الإسلام في البيئة الجاهلية، جاء فيها الثور رمزا للتضحية وغيرها من الرموز الدينية التي عبّر عنها الثور في عقائدهم، وقد صرّح بها الشعر الجاهلي بعبارات تحمل معاني رمزية تشير إلى الموروث الديني الجاهلي.

وقد ورد الثور في بنية القصيدة كمشبه به للناقة، أو الفرس، وهذا يرجع إلى الذات الشاعرة، وما يحتدم فيها من صراع نفسي، تناضل من أجل حماية وجودها في عالم الشرور.

والشاعر الجاهلي «فجأة يشبه ناقته بحيوان(...) ولنأخذ ثور الوحش مثلا، فهو المشبه للناقة، يمشي بين أبقار جميلات كأنّهن نساء، ويطردُهُنَّ حين ينحرفنَ عن السبيل بحوافره، ويطرد عنهن أيَّ ثور آخر متطفل فهو غيور عليهنَّ غيرةَ الرّجلِ على نسائه، والأبقار يُطِعن ثور الوحش لأنّه الفحل الوحيد المكتمل، الذكيّ، القويّ»[2].

وهي صور فنية رسمها الشاعر بألوان مشاعره وأحاسيسه، في حدود رمزية عبّرت لنا عن سلوك الثور وقداسته عند المجتمع الجاهلي.

ونقف عند مهمة استكشاف الدلالات الرمزية التي حوت معاني الثور الوحشي في الشعر الجاهلي، وهي أبعاد دلالية نابعة عن التأثير النفسي للشاعر، في إتحاده وتماهيه مع سلوك الحيوان الوحشي، في محيطه وفق جوانب مختلفة، تُبرِز لنا تغلغل الشاعر في الأعماق النفسية للحيوان، وإبرازها وفق رموز إيحائية يسودها الغموض والضبابية.

فنجد الشعراء يلتفتون إلى«أحوال الثور النفسية، فيصفون تردّده، وخوفه و هلعه، وجرأته، وتوتره، وغضبه، وضيقه، وصبره، وجزعه، وقلقه وسهاده، ثم إقدامه وإرادته وعزمه»[3]، كلّها مكبوتات نفسيّة مثلت لنا رد فعل

---

[1]- محمد عبد العاطي: الأسطورة والرمز في الشعر الجاهلي، ص187.

[2]- عبد الإله الصائغ: الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، دار الفكر المعاصر، صنعاء، ط1، 1999م، ص445.

[3]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص113.

الثور الوحشي في مواقف معينة، يترصد لها الشاعر ليعمل على تحويرها بأسلوب فني يضفي لمسة جمالية لها إيحاءات، تبرز المحيط الخيالي للشاعر الجاهلي.

وأتقن الشاعر مهارة رسم الخطوط الرمزية للثور الوحشي في القصيدة الجاهلية، في لوحة تصويرية تعرض نفسية الثور، التي هي محاكاة لنفسية الشاعر الجاهلي في موقف شعوري حي، يلهم القارئ ليعيش لحظات رَكَّبَها الشاعر بقدراته الخيالية، ليعيد هو تفكيك شفرة تلك الرموز معتمدا على خياله أيضا، «وقد تحولت قصة الثور الوحشي إلى تقليد فني، بعد أن كانت ذات مغزى ديني انقرضت طقوسها وشعائرها، ولم يبقى منها سوى أشكال فنية محددة تنافس في إبرازها شعراء الجاهلية»[1].

صار الحديث عن الثور الوحشي بمثابة صورة نمطية تكرّرت عند كل شاعر، فحمل بذلك رموزا تشابهت في كل قصيدة، وكأنّها نابعة عن شعور واحد لشاعر واحد.

والنّابغة الذبياني صور لنا قصة الثور الوحشي وهو يعيش صراعا دمويا مع كلاب الصيد الضارية، حيث يقول في داليته:

كأنَّ رحـــلي، وقد زالَ النَّهارُ بِنَا، يـومَ الجليلِ، على مسـتأنسٍ وحـــدِ

من وحـــش وجْرَةَ، مَوْشِيّ أكَارِعُهُ طَاوِي المَصِير، كَسيفِ الصَّقيلُ الفَرَدِ

سَــرتْ عَلَـيه، مــن الجوزاءِ،سَاريةٌ تزجي الشَّمـــــالُ عليه جامِدَ البرَدِ

فارتاعَ مِنْ صَـوتِ كِلاَب، فَبَاتَ له طوعَ الشَّوَامِت من خَـوْفٍ وَمن صردِ

فـــبثَّهُنَّ عـَـليهِ، واستمـــــرَّ به صُمْـــعُ الكُعُوبِ بريئاتٌ من الحَرَدِ

وكان ضُمْرَانُ منــــه حيث يُوزِعُهُ طَعَنَ المُعَارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ

شكُ الفَــريصَة بالمِدْرى فأنفَذَهَا طعِنَ المُبَيطِر، إذ يَشْفِي من العَضَد

كأنَّه، خـــارجًا من جنبِ صفحتِه، ســفودُ شَــرْبٍ نَسُوهُ عنــد مُفْـتَأدِ

[1]– مصطفى عبد الشافي الشوري :الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص117.

فظلَّ يعجُمُ أعلى الرَّوْقِ، مُنْقبضَـا في حالِكِ اللَّون صدِقٍ، غير ذي أوَدِ

لمَّا رأى واشقٌ إقعــاصَ صـاحِبهِ ولا سَبِـــيلَ إلى عـــقْلٍ، ولا قَـــوَدِ

قالت لهُ النفسُ: إنِّي لا أرى طمَعًا وإنَّ مولاكَ لم يَســـلَمْ، ولم يَصِدِ[1]

النّابغة يصف رحلةَ صيدٍ للثور الوحشي، وصراعه مع كلاب الصيد الضامرة بشجاعة كبيرة، مبرزا قوَة صبره على القتال والمواجهة، وعدم الاستسلام والقنوط، وهنا الثور يمثل شخصية الشاعر الذي يكابد الصعوبات التي تحاصره بقوة وعزيمة، وهي تمثل محاصرة الكلاب للثور، وصراعه معها، في الصحراء الموحشة المخيفة، وهي رمزية الصراع من أجل البقاء، وهو يصف لنا حالة الثور المذعور من مطاردة الكلاب له، فشعر باقتراب رائحة الموت منه، هذا الذي جعله يواجه الكلاب ويدافع عن نفسه، وهي نفس الصعوبات التي تداهم الشاعر في حياته مبرزا قوة المواجهة التي يمتلكها في صراع قدر الموت، محاولا الانتصار عليه، وهي صورة موازية بين الشاعر والثور الذي لم يقنط ولم يستسلم بل إنّه استمر في القتال، مدافعا عن حياته، فقتل الكلب الأول مما جعل الثاني ينسحب لأنه أدرك قوة الثور، وأن مصيره سيكون لا محالة مصير رفيقه، وأنه لا أمل في الانتصار عليه، والأخذ بالثأر، فتراجع منسحبا خوفا من الثور الذي يمثل في هذا الموضع رمز القوة والصلابة، والانتصار على الموت، وعدم الخضوع لقوى الدهر، بل إنَّ الشاعر من هذه الناحية يبرز قوة حبه للحياة منتصرا على الخوف والهلع، الذي يخلق في نفسيته لحظة قطعه سبيل الصحراء الموحشة الخالية، إلاّ أنّه لا يؤمن بمصير الموت، مضيئا فكرة الحياة والبقاء فيها رغم المخاطر، مؤكدا قدرته في انتصاره على الموت.

وتتحدد لدينا الدلالة الرمزية للثور في شعر"النابغة" وغيره من الشعراء، على أنه رمز القوة والانتصار في دروب الحياة الشّاقة، إذ «علينا أن نستضيء ونسترشد بالقوة في حياتنا، هذا ما يود الشاعر قوله»[2].

إن وَصْفَ الشعراءِ للثورِ في ليلة ممطرة هي دلالة رمزية عميقة توحي إلى الخصب والنّماء، أما الزّمن اللّيلي الموحش في بيئة مثل الصحراء جاء كرمزية للوحدة والسكون والهدوء، والشاعر يربط وحدته وانفراده بالثور ليمثل لنا رمز الوحدة والانفراد، وهي هواجس نفسية يعيشها الشاعر مع أعماق ذاته المشوبة بالألم والحزن والمعاناة، أسقطها

---

(1)- النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، شرح: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1991م، ص49-51.

(2)- وهب رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص312.

في معاناة الثور مع كلاب الصيد الضامرة التي أرادت قتله لكنه حقق روح الانتصار، التي أرادها الشاعر في محاولة انتصاره على أوجاع الدّهر ومآسيه وتحقيق الغلبة على أقدار الزمن مثل التي حققها الثور.

3- رمزية الحمار الوحشي:

استأثر الحمار الوحشي نفسية الشاعر الجاهلي، فأتى على وصفه وأعطاه حقه من الأهمية كغيره من الحيوانات الأخرى، كالثور والبقرة والتي حملت أبعادا رمزية ، ارتسمت بفعل أحاسيس ومشاعر الشاعر الجاهلي التي اصطبغت على صفة ذلك الحيوان، الذي يمثل المعادل الموضوعي للذات الشاعرة، وكان الحمار الوحشي من بين الحيوانات التي تكررت صورها في بنية القصيدة الجاهلية، فأقدم الشعراء على إعطاءه سردا حافلا بدلالات رمزية احتملت وجوها تصويرية متعددة لذلك الحمار، ليقيم الشاعر علاقة عميقة بينه وبين حياة الحمار الوحشي في سياق نفسي، يعكس لنا تلك الاضطرابات النفسية التي يمرُّ بها الشاعر الجاهلي في البيئة الصحراوية، وهو يجوب الفيافي براحلته، قاطعا معها سبُل المفاوز العظيمة، فإذا به ينطلق في وصف مباشر للحمار الوحشي، مسقطا أشلاءه الذاتية عليه، بتعبيرات رمزية، وأحيانا يجعله مشبها به ناقته، ويبقى في الأخير أنّ الحمار الوحشي يشكل معادلا موضوعيا في القصيدة الجاهلية، تعكس الإطار النفسي والاجتماعي والفكري للشاعر الجاهلي.

يمكننا استشعار تلك الرموز من خلال فهم إيحاءاتها عبر الصور الفنية، التي التقطها الشاعر للحمار الوحشي، وكيف أنَّه يواجه أعدائه التي تتربصه من كل اتجاه، وكان الشاعر يسرد قصته، في مواجهته للمخاطر والمصاعب، التي تظهر في حياته، تحت ستار آخر تَمَثَّل في مشهد الحمار الذي يعبّر عن نظرة الشاعر للحياة، ومنطلقاته الفكرية والذاتية.

ويقول"الشوري":« ومن الصور التي تتكرر كثيرا في الشعر الجاهلي صورة الحمار وأتنها الوحشية، وقد أغرم بها الشعراء وأكثروا من إيرادها، وهذه الصور متفقة فيما بينها من أحداث(...) ولجأ الشعراء إليها في معرض حديثهم عن الناقة عن طريق إدِّعاء الشبه بينها وبن الحمار والأتان»[1].

ونمضي في عرض قصة الحمار الوحشي برموز خفية وراء سرد يرويه الشاعر بصورة موضوعية، عن حالة الحمار وما يكابده في حياته من مغامرات وصراع مع قوَّة الحياة ، وهي قصة تكاد تكون نمطية، لأنها تدور حول موضوع واحد في نفس المكان والزمان، تكررت في قصائد الشعراء الجاهليين التي «تحكي حكاية حمار الوحش

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص133.

عناصر الصراع مع الطبيعة والإنسان، وحول الماء يتم الصراع مع الجوعى والطامعين، ويتمثل هذا الصراع القناص البائس المختبئ في ناموسه يرقب الحُمُر»[1]

نستحضر هنا قصة الحمار الوحشي في الشعر حيث أبدع الشاعر في سبك أحداثها بدقة متناهية، تمثلت في لحظة صراعه مع الإنسان الغادر المتمثل في الصياد، الذي يرقبه ليخطف اللحظة الملائمة لاقتناصه عند وصوله إلى نبع الماء مع أتانه، هي رحلة قصصية شاقة تراوحت بين الشعراء لحد التماثل، انبثقت عنها رمزية الصراع من أجل الحياة واستمرارها، وانحلت المشاعر النفسية الدّاخلية المتأصّلة في الشاعر لحظات حزنه وآلامه في صورة ذلك الحمار، لتبعث لنا رموزا ترصد الواقع الحي للشاعر جسدها الحمار في صراعه مع الصياد وكلابه، « وقد تناول هذه القصة أكثر من شاعر، "كامرئ القيس"، و"النّابغة" و"زهير"، ولكنهم لم يبدعوا في هذا الوصف مثلما أبدع "لبيد" في قصة الحمار والأتان»[2].

فطر الإنسان الجاهلي على تقبل حياة الصحراء وتقبل حياة الحلّ والتّرحال، وما لحقها من مخاطر وقساوة المناخ، الذي يميل بها إلى حالة الجفاف، إضافة إلى شدّة الرياح التي أصابت النباتات طيلة فترة الجفاف إلى التلف والنفاد، هذا أدى إلى انعدام الأكل في الصحراء، ممّا جعل الحيوانات تَكِّد جاهدة إلى رحلة بحث عن بقايا العشب لتضمن غذاءها، و«يظل الحمار هكذا مع أنثاه يقطعان طريقا مليئة بالمخاطر والخوف أثناء رحلتهما نحو الحياة، فالطريق مطروقة من قبل البشر والحرارة شديدة والعشب قد جف ونفد»[3].

هي ظروف مؤلمة لحد الخوف لأنها تقتل رغبة الحياة في أي كائن حي، إلاَّ أنَّ ذلك لم يقتل نبض الحياة وحب استمرارها في الحمار الوحشي وأتانه، حيث « يبدأ الحمار والأتان الركض وهما صائمان باتجاه الحياة-الماء- وقد خلَّفَا وراءهما غبارا كثيفا ممتدا، ثم يصلان أخيرا إلى الماء»[4]، ولحظة وصولهما يصادفهما صياد غادر بكلابه الهائمة، لتتحول رحلة البحث عن الماء، إلى رحلة الصراع من أجل الحياة، وما أقساه من شعور يدق ناقوس الخطر، ومثَّل لنا الشعر الجاهلي كل تفاصيل هذا المشهد المؤلم، بألفاظ أضاف عليها معاني مجازية في رموز غير

---

[1]- عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا، ص227.

[2]- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي، ص382.

[3]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص134.

[4]- م ن، ص135.

مرئية، كما أنَّ الشعراء « وصفوا حمار الوحش بصفات دقيقة وعلامات خاصة ومنه"لبيد" من الإنسان لهوه وطربه وغوايته»[1].

يمضي "لبيد" في سرد رحلة الحمار مع أتانه بحثا عن مواطن الحياة، ومصدر البقاء، ورصد الأماكن التي تضمن حياته، وهذا ما صرّحت به معلقة "لبيد" في مقطع قصصي يخصُّ فيه قصة الحمار الوحشي، فيقول:

حتى إذا سلخا جُمادى ستَّةً جَــزا فَطالَ صيامُهُ وصيامُـهَا

رَجَعا بأمْـــرِهِمَا إلى ذي مرَّةٍ حـصد ونُـجْحُ صَريمةٍ إبْرَامُهَا

وَرَمَى دَوَابرَها السَّفا وتَهَيَّجَتْ ريحُ المَصَايفِ سَوْمُهَا وسِهَامُها

فتَنَازَعا سَــبِطا يطيــرُ ظِلالُهُ كدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُها

مَشْمُولَةٍ غُلِــثَتْ بنابت عَرْفَجٍ كَدُخانِ نــارٍ ساطعٍ أسْنَامُهَا

فمَضَى وقدَّمَــها وكانَتْ عادَةً مِنْهُ إذا هي عَـرَّدَتْ إقدامُها

فتوسَّطَا عُرْضَ السَّريِّ وصدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَــجَاورًا قُلاَّمُها

مَحْفُوفَةً وَسْطَ اليَــراعِ يُظلها مِنْهُ مُصَرَّعُ غَــابَةٍ وقِيامُها[2]

يقصُّ لنا"لبيد" رحلة محفوفة بالمخاطر، بطلاها الحمار وأتانه، إذ يمضيان معا في ركض معبَّأٌ بالنشاط، هدفه واضح هو العثور على موضع نبع الماء، في حرارة الصحراء التي جفَّت نباتاتها من شدَّةِ الحرّ، فحلَّ محلُّها الشوك، الذي جرح مآخيرَ حوافر الحمار وأتانه، ويصف سرعة ركضه نافضا غباراً ساطعا يصعد كدخان النَّار الموقدة التي أصابتها ريحُ الشَّمال، من شدّة السّرعة، حتى وصلا إلى نهاية النهر وتوسطا المكان، بعد عناء مضني، وتعب شديد، هذا كله لم يقطع خيط الصبر والتجلد في أمل البحث عن الماء، والحمار الوحشي يمثِّل المعادل الموضوعي للشاعر الذي عكس معاناته في ظل واقعه المؤلم، وأسقط مشاعره الممتلئة بهموم الحياة، والمهترئة بطعنات الدهر، على الحمار وأتانه، في قصة وَجَد فيها راحة الاتِّساع للتعبير أكثر عن ما يجوب في نفسيته، معتمدا على

[1]- حسين الحاج حسن: أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط3، 1997م، ص156.

[2]- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص108-110.

أفق خياله، الباعث برموز تعبيرية يسودها الغموض، "نلاحظ كيف صور الطريق تصويرا ينِم عن هواجس تظهر فكرة الموت وسط عناصر الحياة"[1]،ويعتبر الحمار في هذا المشهد رمز القوة والصبر والتجلد والصلابة...هي رموز تصوِّر الجوانب الذّاتية للشاعر ، التي تعيش في اضطراب داخلي حاد لايعلم مصيره.

تظهر لنا صورة الحمار الوحشي عند"لبيد" مستترة خلف معاني رمزية توحي إلى الرغبة في الحياة، من خلال قطع المفاوز الحافلة بالمخاطر والمكائد، كما أنَّ طريق الحمار الوحشي الخطرة هي طريق الشاعر نفسه، وعبوره لها قاطعا سبل الخوف جاء كرمزية الانتصار على الخوف، والوصول إلى نبع الماء سالما هو رمز للحياة، وبالتالي الشاعر لخص لنا رحلته القاسية بقساوة محيطه ورذاءة الظروف التي تحتضنه، في رحلة ذلك الحمار الذي ألمَّ في صوره بالجوانب النفسية والاجتماعية للشاعر، محاولا الانتصار والتغلب على قوة الطبيعة ومواجهتها، كرمزية للبقاء وهزيمة الموت.

[1]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص135.

4- رمزية الذئب:

الذئب من الحيوانات التي اهتم بها الشعراء الجاهليون، وأولوه عناية فنية كبيرة، وارتبط بدلالات و معاني كثيفة تؤكد لنا علاقة الشاعر مع محيطه، خاصة مع حيوانات صحرائه، منها الذئب الذي أخذ اهتماما بالغا في توحده واندماجه مع حياة الشاعر الجاهلي، ولكن أكثر ما ارتبط الذئب مع حياة الصّعاليك، الذين اتَّخذوا أنسنة الذئب بدل مجتمعهم البشري الضَّار، وظهر ذلك في لوحاتهم الشعرية خاصة في شعر الصّعاليك.

والذئب في معناه هو« كلب البرّ، جمعه أذؤب، وذِئاب، وذُؤبان، والأنثى ذئبة يَهمز ولا يُهمز، وأصله الهمز»[1].

أما أسماء الذئب فهي كثيرة وصفاته تجري مجرى تلك الأسماء، منها: أشْبَة- أوْس- الخَيْعَلْ- السِّيد- العِلوَّسْ- كساب.

وأما كُنيته في بيئة العرب الجاهلية هي: أبو ثمامة- وأبوجاعد- أبوجعدة- وأبو رعلة- أبوسَبَلَة- أبو كاسب- أبو مذقة[2].

ورد الذئب في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ قالَ إنِّي لَيَحْزُنُنِي أن تَذْهَبُوا بِهِ وأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب و أنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [سورة يوسف- الأية: 13].

لقي الذئب حضورا مميزا في القصيدة الجاهلية-كان حديث أغلب شعراء الجاهلية- خاصة طائفة الشعراء الصّعاليك، ويمثل الذئب لهم أنسب حيوان توحد مع نفسية الصعلوك، وفق رموز بإيحاءات ضبابية لها معاني نفسية واجتماعية، تعبّر عن أعماق الذات الدّاخلية للشاعر الجاهلي خاصة الصعلوك الذي اختار حياة التّمرد والتّشرد.

ويشير"يوسف خليف" إلى طائفة الصّعاليك قائلا:« ويخرج هؤلاء الشّذاد على حياتهم الجديدة، ليجدوا في الصحراء متّسعا لنشاطهم المتمرد الذي لا يحتمله مجال القبيلة الضيِّق، ليشقوا طريقهم في الحياة بأسلوبهم الذي اعتادوا عليه»[3].

---

[1]- شاكر هادي شكر: الحيوان في الأدب العربي، ج2، ص123.

[2]- ينظر: م ن، ص ن.

[3]- يوسف خليف: الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر،(د ط)،(د ت)، ص96.

الذئب ذلك الحيوان الوحشي الذي التصق بحياة الصّعاليك ومغامراتهم، القائمة على السرقة والنّهب سببه الحرمان المخيف الذي يسجن حياة الصّعلوك، حيث يعتبر الذئب صورة انسانية نسجها الشاعر الجاهلي بصور رمزية عديدة، أوحت إلى تلاحم نفسية الذئب مع حالة الشاعر الجاهلي.

يُصَنفُ "الشنفرة" ضمن طائفة الصّعاليك، وهو أكثر من وصف الذئب في شعره،ناقلا نمط حياته الاجتماعية و الفكرية والنفسية، مصطنعا لها قالبا رمزيا جسدها الذئب، فرمزية الذئب في الشعر الجاهلي عامة، تحاكي واقعا أليما يعيشه الإنسان الجاهلي، حيث صور الشعراء تجارب حياتهم الفاشلة المليئة بالخوف، في بيئة خشنة لا توفر له متطلباته، مهدمة خيال أحلامه البسيطة.

ويطلق على طائفة شعراء الصّعاليك بالذُؤبان أو ذؤبان العرب نظرا لتشبيههم بالذئب، من ناحية سرعتهم الفائقة في العدوِ، وكذلك في شراستهم في الهجوم والغارة، لتأتي صورة الذئب كرمزية تشير إلى الواقع البيئي والمعيشي الذي خنق حرّية الإنسان الجاهلي بكل مافيه، فعاش حالة قلق واضطراب نفسي، فاختار الانفراد بذاته بعيدا عن قهر المجتمع، فاختار الشاعر الجاهلي الذئب أنيسا له في وحدته، معبّرا عنه بألفاظ استوحى معانيها في رموز تحيل إلى جوانبه الذاتية والنفسية، هي رموز عميقة بعمق مشاعره، تخفي وراءها شعورا بالخوف والأسى، مثّلها الشعراء بالذئب كرمز يوحي إلى تلك التّقلبات النفسية المتضاربة في أغوار النفس، بألفاظ فخمة تميل إلى الغرابة، نحسها صادقة لأنها بعيدة عن التّكلف تكشف عن الصدق النفسي للشاعر، و«اللوحات الشعرية التي تتأمل عالم الذئب في الشعر العربي تدل على حقيقة نفسية وعلى حقيقة أخرى فنية»[1].

الشعراء عبّروا عن تجاربهم النفسية في مواقف مختلفة، بوجه فني في إطار القصيدة الجاهلية، محافظين على أدبية النص الشعري بلغة فنية بتراكيب لغوية توحي بالجمالية.

ويفصّل"النوتي" رأيه قائلا: «أما الحقيقة النفسية فهي ارتعاب الإنسان العربي من القدر، كخيانة فاجعة لنقاء فطرتنا الطبيعية»[2]، الذئب في الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة معروفا بأنه رمز للإنسان الغادر والمخادع،

[1]- زكرياء عبد المجيد النوتي: الذّئب في الأدب القديم، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م، ص33.

[2]- م ن، ص ن.

وهي نقطة رمزية التقى فيها جلّ الشعراء، إذ يبقى الذئب في نظرهم رمز الخيانة والغدر، و« أمّا الحقيقة الفنية فهي عملية الإسقاط التي يقوم بها الشاعر حيث يجسّد أحزانه ووساوسه من خلال إسقاطها على الذئب»[1].

ويبدو أن الشاعر يتحد كيانه مع الذئب في حُلَة الإنسان المخادع، فالذئب يمثل رمز الخيانة بصفة شمولية، فالإنسان الجاهلي تعرّض للغدر في مجتمع إنساني لا يرحم، تنعدم فيه الروح الإنسانية، فعهد على اختيار قراره الذي يبعده عن عالم الإنسان، ليندمج في عالم الحيوان.

ويعتبر الذئب رمزا للصّعلوك، هذا الأخير تحكمت فيه عوامل جغرافية وسياسية كقهر القبيلة ونبذها للصعلوك، وعوامل أخرى اجتماعية واقتصادية، على رأسها الفقر والجوع...الخ كلّها أدت إلى ظاهرة الصّعلكة في عالم صحراوي إبان عصر الجاهلية، كل هذا جاءنا في شعر الصّعاليك.

ويشير "حسني يوسف" إلى أنّ الذئب في الشعر الجاهلي«هو رمز للتشرد والضياع والنفور، فالشنفرى الصعلوك يجعل منه المعادل الموضوعي لتشرده وضياعه»[2] .

استمال "الشنفرى" بإرادته إلى المجتمع الحيواني، لأنه يتحلى بقيم وجدها تنعدم في المجتمع الإنساني الذي تغيب فيه مظاهر الاتحاد والقوة والتعاون، التي وجدها عند الحيوان الذي ينتمي إلى فصائل مختلفة.

"الشنفرى" والذئب متوحدان معا تحت مجتمع واحد، وهذه الوحدة «تمثل مرحلة البحث عن انتماء جديد في رحلة الشنفرى، ممّا جعله ينضوي في هذه المجموعة المتوحشة التي يجمعها مع الشنفرة، التوحش والعداء لبني البشر»[3].

يقول "الشّنفرى" في مقطع من لاميته الشهيرة:

وأَغْدُوا عَلَى القُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا أَزَلُّ تَـــهَادَاهُ التنَائِفُ أَطحَلُ

غَـــدَا طَاوِيًـــا يعتنُّ للـــرِيحِ هَافِيا يَخُوتُ بِأَدنَابِ الشّعابِ وَيَعْلُ

فلمَّا لَواهُ القُوتُ مِـنْ حَيث أَمَّـــهُ دَعَـا فأجـــــابته نظائرُ نُحَّلُ

---

[1]- زكرياء عبد المجيد النوتي: الذئب في الأدب القديم، ص33 .

[2]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص428.

[3]- عمر عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية "الأسطورة والرمز"، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت،ط1، 2009م، ص211.

مُـــهَللة وَشَيبُ الـــوُجُوهِ كَأنَّها قِـــــدَاحٌ بكفي ياسـر تَتقَلقَلُ

أو الخشْرَمُ المبعوثُ حِثحَثُ دَبْرَةُ محابيضُ أرْسَاهُنَّ سامٍ مُعسَّلُ

مـــــهرتهُ فـــــوهُ كأنَّ شُدُوقَهَا شُقوقِ العصِي كالحاتٌ وبُسَّلُ

فـــــضجَّ وضـــجَّت بالبراحِ كأنَّها وإيَّاهُ نُـــوْحٌ فوقَ عَلَياء بُكَّلُ[1]

في هذه الأبيات رتَّب الشاعر أحداث المشهد في بيئة صحراوية جبلية، لعب فيها دور البطل في صورة الذئب، مع جماعة الذّئاب الأخرى التي تمثل جماعة الصّعاليك، عبَّر عن حالته الفكرية والنفسية بمعاني إيحائية وفق ألفاظ دلالية عميقة تغطيها الغرابة والغموض، لكنها تحمل صورا صادقة حرّكت في المتلقي مشاعره، لينعطف مباشرة متأثرا بالحالة المأساوية للشاعر، التي جسّدتها صورة الذئب الجائع، لنتعايش مع أحداث مؤلمة أيقظت مشاعرنا الإنسانية، لحالة اجتماعية ونفسية أكثر ما تكون حقيقية، لأنها عبّرت عن واقع اجتماعي بابه الأمامي الفقر، الذي يخفي ألام الجوع والحرمان، التي دفعت بالشاعر الصّعلوك إلى التّمرد على وضعه، راضيا بحالة التشرد والفقر بكرامة، على أن يعيش في جوّ الذل بحياة خاضعة لسلطة القبيلة.

اختار الشاعر حياة التمرد بعيدا عن سيطرة القبيلة، ليرسم لنا خطوط معاناته وفقره وجوعه في جوف الصحراء القاسية، حيث قدم صورة حية للذئب يعكس مشاعره وسلسلة حياته الحزينة، فالتقط صورة لذئب نحيل الجسم، هزيل من شدّة الجوع الدّائم، إضافة إلى تنقله بين فلوات الصحراء، آملا في أن يجد ما يسكت ويهدئ ألم جوعه، ليصل إلى منتهى مساره يائسا فاقدا للأمل، فيعوي متصلا بعوائه بجماعة الذئاب الأخرى علَّها تحن عليه بما لقته من طعام، فترد على عواءه بنبرة واحدة، متحدة بصوت يتخلله نبرة الألم والجوع، فاستشعر حينها أنّها مثله جائعة ضامرة لا تملك شيئا، جاءت كرمزية للجوع والفقر الذي يحتل الشاعر، ويستمر واصفا حالة الذئاب الجائعة ونحالتها وكآبة منظرها، هي صور أرسلتها أحاسيس الشاعر بواسطة رموز تجلت في صورة الذئب الذي عبّر عن وحدته وحالته المزرية في ظروف قاسية، ونموذج الذئب أنسب نموذج لأنه يعادل الذات الباطنة الشاعرة، وبقية الذئاب الأخرى هي جماعته من الصّعاليك. هي لوحة أبدع الشاعر في رسمها، ونجح في استنهاض مشاعر الألم

[1]- الشنفرى: ديوان الشنفرى، حققه وشرحه: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م، ص63-65.

والأسى لدى المتلقي، ليتعاطف مع حالة الشاعر التي عكسها الذئب في رمزية الفقر والحرمان، إذ يعتبر الذئب رمز الجوع والتشرد والضياع ، و"لقد جمع الجوع والبؤس بين طائفة الصّعاليك، ذؤبان العرب وذئاب الوحش"[1].

هي صورة حقيقية لشاعر لم يجد مكانه بين جماعة البشر، فأخذ العهد بالرّحيل، مستبدلا بذلك عالم الإنس بعالم الحيوان الوحشي الذي مثّله الذئب، وهو الحيوان المؤهل الذي تطابقت حالته النفسية، مع حالة الشاعر، و"الشّنفرى" كغيره من الشعراء ترجم مراحل حياته بقصة الذئب، بتعابير احتوت معاني رمزية سبغتها الغموض والتعقيد.

كما أخذ الشعراء للذئب رموزا أخرى، فكان رمز المكر والخديعة التي يتصف بها عالم البشر، والذئب رمز الصعلوك بصفة عامة، وبقية الرموز التي مثلها وتداولها الشعراء في قصائدهم، هي رموز عبّرت عن واقع إنساني مؤلم، احتضن الشعراء في جو من الفقر والضياع والألم، والتشرد والجوع...هي رموز بمعاني صادقة بلورتها نفسية الشاعر، مضفيا عليها لمسته الخيالية.

[1]- زكريا عبد المجيد النوتي: الذئب في الأدب القديم، ص53.

رابعا: رمزية الطير:

المتمعن في لغة الشعر الجاهلي يجعلنا نلتمس بأن أغلب عباراته ومعانيه زاخرة بالغموض والإبهام، هذا الغموض يختزن أبعادا إيحائية رمزية، وأكثر تلك الرموز ارتسمت في صورة الحيوان على نطاق واسع في علاقته القوية بالشاعر ومدى تتبعه في الوصف وترقب حركاته وردة فعله، يبرز لنا قوة الارتباط النفسي والروحي بين الشاعر وذلك الحيوان في بيئته، وهذه الحيوانات على اختلافها وتميزها منها الأليفة التي رافقت الشاعر في البيداء، والوحشية التي لقاها في طريقه فأتى ذكرها على سبيل التشبيه أو من أجل إسقاط الشاعر لمشاعره ومعاناته في صورة ذلك الحيوان، كما رأينا سابقا، ولم تنحصر رموز الحيوان في صوره عند هذا الحد، بل إنّها امتدت إلى عالم الطيور بأنواعها، ليختلق الشاعر لنا في لوحاته الشعرية رموزا أخرى لون بها ألفاظه، فكانت نظرته للطير تضمر كثيرا من الأسرار التي تسبح في جوف عوالمه النفسية، والتي تجرعت بصبر قسوة الحياة الصحراوية الجافة والخشنة بخشونة سكانها.

1-رمزية النعام:

ومن بين الطيور التي حلقت في سماء القصيدة الجاهلية، وحظيت بحضور قوي عند أغلب الشعراء الجاهليين نجد النعام، وهو من الطيور التي استرقت أنظار الدارسين والباحثين، في تأمل تلك الصور التي رسمها الشاعر الجاهلي للنعام بألوان رمزية مختلطة، وربما كانت صورة نمطية، عند الشعراء الجاهليين لكن نحاول التماس المعاني الخفيّة التي تسترت وراء رمز النعام، وإماطة اللّثام عن الرموز التي عبّر عنها طائر النعام في الشعر الجاهلي، وأشار الدّارسون والنقاد إلى النعام، وقال"الدميري": « النعام: معروف، يُذكر ويؤنَّثِ، وهو اسم جنس، مثل حمامٍ وحمامةٍ، وجرادٍ وجرادةٍ، وتجمع النعامةُ على نُعاماتٍ»[1].

أما من حيث ألقابها «يقال لها: أمُّ البيضِ، وأمُّ الثلاثين، وجماعَتْها: بناتُ الهيْقِ، والظَّلِيمُ ذكرها»[2]، وتعتبر أكبر الطيور في العالم، والنعامة هي الطائر الوحيد الذي لديه أصبعان في كلّ قدمٍ، والظّليمُ ذكرها وهو طائر يغطي

[1]- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج4، ص72.

[2]- م ن، ص ن.

جسمه الضخم ريش أسود، وقد ضرب المثل بالنعام في الجبن والحمق، والسّرعة في العدو،«فقالوا: أجبن من نعامة وأحْمَق من نعامة وأمْوَق من نعامة، وأعْدَى من ظليم»[1].

والنعام من الطيور التي وقع اختيار الشاعر الجاهلي عليها، إذ جاء الحديث عنها في سياق تشبيه ناقته بهذا الطائر، أو يشبه به فرسه أحيانا في مواضع مختلفة بمواقف استدعت منه هذا التشبيه، بأوصاف فنية رسمت بألفاظها رموزا دلالية بإشارات إيحائية عبّر عنها النعام، وأكثر صور النعام احتوت في رموزها معاني تشير إلى السُّخرية والاستهزاء والتَّقليل من شأن شخص أو جماعة بتشبيههم بالنعامة، وهذا ورد بوضوح في أشعارهم حيث أنَّ: «النعام من الطيور التي وردت في الشعر الجاهلي بكثرة، وبمسميات متعددة مثل: الظّليم، والنقيق، والخاضب، والهيق، والصُعَّل، والمصلم»[2]، وجاء ذِكر النعام في الشعر الجاهلي بأسماء مختلفة، تدل على سِعة ثقافة الشاعر الجاهلي ومخزونه المعرفي، الذي يعكس محيطه وبيئته.

وكان النعام من الطيور التي احتلت مكانة عالية في قلب القصيدة الجاهلية، محتملة رموزا عميقة، انبثقت من مخيلة الشاعر الجاهلي، وشساعة رؤيته الفنية بشساعة صحرائه الواسعة، فأثّرت في وعيه الفكري والنّفسي والنعام يُعبّر عن الجبن والخوف والهزيمة، وقد تكرر ذلك في شعرهم بصفة نمطية، ويوضح"القيسي" ذلك قائلا:«ولابد أن تتبادر إلى أذهان الشعراء صور الذين ينهزمون من المعركة، أو يفرون منها، وعندها يجد الشعراء الصورة صالحة للمقارنة بين هؤلاء الفارين، وبين النعام الذي عرف بينهم بالجبن والهزيمة»[3].

وغالبا ما ارتمت صور النعام في جسد القصيدة الجاهلية بين الخوف والفرار من المواجهة والهزيمة، هي صور عبّرت عن النعام في حالة الحرب والعراك، التي تجعل من الشاعر يفضي وينغمس في هجاء الأعداء، مستحضرا ذكر النعام في سياق الهجو السّاخر« وأغلب ماكانت تأتي هذه المقارنات في حالات الهجو، فبشر بن أبي خازم يشبه خصوم قومه بالنعام النافر حين يهربون مسرعين»[4].

يقول:بشر بن أبي خازم:

---

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص148.

[2]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص163.

[3]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص148.

[4]- م ن، ص149.

وأَمَّا بنو عامرٍ بالنِّسارِ غداةَ لَقونَا، فـــكانوا نعامًا

نعامًا بِخَــطمةَ الخُدُو دِ، لا تطْعَمُ الماءَ إلاّ صِيامًا[1]

يستلذ الشاعر في هذين البيتين بروعة هزيمة أعداء قومه، مبرزا ذُلَّ خيبتهم بالنعام النَّافر لحظة هروبهم مسرعين، في هيئة النعام المائلة أعناقها لشدّة طولها عند ارتفاع رأسها، لتصطبغ نفسية الشاعر في صورة النعام لتأخذ رمزية الخوف والهروب، لتعتبر النعامة في نظر الشاعر رمزا للإنسان الجبان، الذي يهرب من مخاوف الدهر، ولا يرضى الاستمرار في طريق الانتصار على خيبات الزمن القاهر، لتنعكس لدينا رؤية الشاعر النفسية في لوحة الشّجاعة والإقدام و مواجهة عثرات الدهر، لكنه في اللحظة نفسها يستهين بالإنسان الخائب والضعيف، الذي يتردّد في ساحة المعركة، وينسحب من المواجهة، فهو عنده يقابل النعام لحظة فراره خائفا من الأعداء، وبالتالي فالنعام هنا تحمل رمزية الإنسان الجبان، فهو رمز الهزيمة والخوف والتراجع.

إضافة إلى ذلك فقد انبهر الشعراء الجاهليين بسرعة النعام في جريه، وجاء كمشبه به لنياقهم في صفة السّرعة، قال "تأبط شرًّا" في سرعة النعام:

فأدبرتُ لا ينجُو نجـائيَ نِقْنَقٌ يبادِرُ فَرْخَـــيْهِ شمالاً وداجنًا

منَ الحُصِّ هزروفٌ يطيرُ عِفاءَه إذا استدرجَ الفيفَا ومدَّ المغابنَا

أزَجُ، زلـــوجٌ خِزْرفيٌ زُفازِفٌ هزَّفٌ يبذُّ النَّاجِياتِ الصَّــوَافِنَا[2]

وراء تلك الألفاظ تنكشف لنا المعاني الرمزية من خلال وصفه للنقنق وهو الظليم ذكر النعام، بحيث قدَّم لنا مشهدا حيا، يبعث في أذهاننا حركة تصويرية عدّلها الشاعر بوصف لافت للإنتباه بطريقة ذكية تجعل القارئ يعيش داخل ذهنه وخياله متأملا ذلك المشهد بصورة مباشرة، في حيّزِ مخيِّلته، فالشاعر يصف سرعة الظَّليم في العَدْوِ، ويستمر في وصف ساقيه بالطُّول مقتنعا بأنهما سرُّ سرعته الفائقة في الجري وكأنه يتزلج بهما في قوله :أزجُ، زلوجٌ، فهو شديد الحركة، سريع في الفيافي الواسعة، لدرجة أنَّ سرعته هذه تفوق الخيل السريعة ليقول:[هزفٌ يبذُّ الناجيات الصوافنا]، وتستتر وراء تلك الأوصاف البليغة رموزا أبدع الشاعر في تشكيلها، وألقى مهمَّة رصدها

---

[1]- بشر بن أبي خازم الأسدي: ديوان بشر بن أبي خازم، تح: عزة حسني، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق،(د ط)، 1960م، ص ص190، 191.

[2]- تأبط شرا: ديوان تأبط شرا، شرحه وحققه: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، ط2، 1984م،1999 م، ص ص216،217.

وتَتَبُع كشفها للقارئ، ليعتبر النعام رمز السّرعة والقوة والحركة، وهي رموز استعارها الشاعر في أوصاف فنيّة بصورة مستحسنة، حاول رسمها في إطار ينبض بالحركة والسّرعة والقوة، والتي ينبغي على الإنسان الجاهلي أن يتّسم بها في حياته ليتجاوز المفاوز المهلكة والأماكن الخطرة، غرضه في ذلك التغلب على قدر الموت والاستمرار في الحياة ببأس وشجاعة وثبات، مستعيرا صورة النعام، لأنّها الأبلغ لتجسيد هواجسه النفسية وإيصالها عن طريق رموز بإشارات غير صريحة، أسقطها على النعام، ليكون هذا الأخير رمزا للقوة والسّرعة والحياة، كما «يحرص الشاعر على ذكر هذه الألفاظ المترادفة التي تدل على السّرعة وتوحي بالحركة والصوت، وكأنَّ الشعراء وجدوا في بعض الألفاظ تعبيرا مُوَفقا لاستعمالها في حديثهم عن النعام»[1].

تقاطع الشعراء الجاهليون في ألفاظ مختلفة ومترادفة تحمل معنى السّرعة والحركة اتفقوا على جعلها تركيبة وصفية للنعام، الذي يعتبر كما رأينا رمز السّرعة والحركة، وهي أوصاف منبعثة من ذات الشاعر، لأنه يرى فيها قدرة على النجاة من مكائد الصحراء، والخلاص من مخاطرها المفاجئة، دون سابق إنذار، «فهذا الوصف للسرعة المسحوبة من النعام، دفع الجاهليين إلى وصف إبلهم ومطاياهم بالسّرعة، وقدرتها على الخلاص، وقد شبهوها بالنعام السريع، حيث تنجيهم هذه المطايا من شرور الصحراء وتخلصهم من نوائبها القاتلة»[2]

يسافر الشاعر بمخيلتنا إلى عالم يضج بصخب الحركة والقوة الباعثة على السّرعة كلها تجلت في طائر النعام، بألفاظ مترادفة تزخر بالغموض والتعقيد، استعان بها الشاعر ليزخرف معاني رمزية عبر عنها النعام في الشعر ليأخذ بذلك أبعادا دلالية رمزية توحي بعمق المشاعر والأحاسيس، فكان النعام أنسب حيوان أسقط عليه الشاعر أحاسيسه الباطنية، في رموز تبعث بالحركة والاستمرار والسّرعة.

والشعراء قدموا لنا صورا متناقضة للنعام، في الأول اعتبرو النعام رمزا للعجز والجبن والخوف، في حين أعطوا له رؤية تناقضية تعلي من مكانة هذا الوصف ونقيضا للأول في أن النعام يبقى رمز السّرعة والحركة والهروب من الموت.

2- رمزية البوم:

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص150.

[2]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص165.

البوم من أصناف الطيور التي ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، بصفة متكررة لدى الشعراء،« والبوم: طائر من كواسر اللّيل، جمعه أبوام للذكر والأنثى، والهاء في بومة للواحد لا للتأنيث، وقيل: بومة للمفرد، وجمعه بوم»[1]

ومن أنواع البوم نجد: البُومَة، الثَّبَج، الحَبَل، الضُوَع، النُهام، الهامة.[2]

والبوم من الطيور التي تعيش في عزلة، وتظهر ليلا أُطلق عليها مسمى الحارس اللّيلي، ويستطيع الإنسان أن يميّز البومة من الوهلة الأولى بعينيها الكبيرتين، ورأسها الكبير العريض، وترتكز في الأماكن المرتفعة كالشجرة وهي من طيور اللّيل، «ويقال للطائر الذي يخرج من وكرها باللّيل البومة والصدى والهامة والضُّوَع والوَطواط والخُفَّاش، وغراب اللّيل، ويصيدُ بعضها الفأر»[3]

والبومة تقنص الطعام أثناء اللّيل، كما أنَّها من آكلات القوارض الضّارة، فهي طائر جارح يقتل الحيوانات ويأكلها ويقول "الجاحظ": «البُوم يدخل باللّيل على كل طائرٍ في بيته، ويُخرجه منه ويأكل فراخه وبيضَه»[4].

إن شكل البوم ومنظره غير محبب عند كثير من الناس، ولقي استنفار أحادا في نفوسهم، ويتخوفون عند رؤيته في طريقهم، معتقدين أن النّظر إليه، يجلب لهم المصائب، فهو يعتبر نذير شؤم يوحي بالخراب والهلاك، وهي اعتقادات سيطرت على نفسية وفكر الإنسان الجاهلي واعتقدوا أنّها من أدّلة الموت، وقد اتخذها بعض الشعراء محل فخرهم ببطولاتهم، وانجازاتهم في بيئة قاسية كالصحراء التي لا ينجو منها إلّا الشخص القادر على ارتياد المصاعب، والتجرُؤ على الخوض في أرض المخاطر.

ويشير"القيسي" أنّ« البوم من الحيوانات التي يتشاءم منها بعض الناس، لأنهم يعتقدون أنّ رؤيتها تجلب المصائب وتجر النوائب»[5].

---

[1]- شاكر هادي شكر: الحيوان في الأدب العربي، ج1، ص231.

[2]- ينظر: م ن، ص ن.

[3]- الجاحظ(أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ): الحيوان، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1969م، ص ص298، 299.

[4]- م ن ،ص299.

[5]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص193.

وهذه النظرة التشاؤمية للبوم، تراقصت بين رموز عديدة، عبّر عنها الشعراء مسقطين عليها مشاعرهم، تركت أثارهم النفسية والفكرية، وهذه الرموز عبّرت عن تجارب حية عاشها الشاعر الجاهلي، فاستعار طائر البوم ليعبر عن هاجس الخوف والتّشاؤم والضّياع الذي يعتري الشاعر، في رموز إيحائية توحي بواقعه المؤلم، الذي لم يستطع الانسلاخ منه.

ويأتي الحديث عن البوم في الشعر الجاهلي في مواقف مختلفة، بأسماء متنوعة استلهمها الشعراء في قصائدهم، «وقد برز البوم في الشعر الجاهلي بأسماء عدة: كالهام والبوم،والصّدى، وهو عندهم رمز للخراب والدّمار والموت، وارتباطه باللّيل جعلهم يربطونه بالشّر والهلع لأن ظلام اللّيل عند العرب يعني المجهول»[1].

اقترن البوم في الشعر عند الجاهليين، بصفات ارتبطت بدلالات رمزية تعلقت بنفسية الشاعر الجاهلي واعتقاده الذي يوحي بالتّشاؤم والهلع والموت، والمصير المجهول،« واعتقد العرب بأنها من جنس الصدى والهامة وهما من أدلة الموت، ولهذا كان يأتي ذكرها في الحديث عن الصحاري الموحشة، التي يخاف الرحالة السير فيها»[2]، الشاعر الجاهلي وهو يسير في بيداء موحشة، سالكا طريقا لا يدري أين ينتهي، ولا يعرف سبيل الخلاص منه، إلاّ أنه يمضي مستمرا في قطع المفاوز الخطرة، في وسط تحيط به كل أصناف الوحوش القاتلة، منصتا إلى صدى فراغ الصحراء ينطق بالهلاك والخطر، ومن رياح الفيافي الشاسعة يشتم رائحة الموت عَجَّل في الوصول إليه، فيعيش حالة ضجر وهلع نفسي محتوم.

ويستحضر الشعراء البوم كرمز للموت والهلاك، والشُّؤم وتجلى ذلك في شعرهم، في إطار رحلاتهم التي ارتبطت بالمصير المجهول، خاصة عند نزول اللّيل، فيغطي بظلمته رمال الصحراء المترامية الأطراف بلا نهاية، وارتبط البوم بالصحراء في الشعر الجاهلي ويظهر ذلك في قصائدهم، وفي هذا الموضع يأتي الشاعر الجاهلي" الأسود بن يعفر النهشلي"وهو «شاعر جاهلي مشهور، عده ابن سلام الجمحي من شعراء الطبقة الخامسة»[3]، ويقول:

وسمْحةٍ المشيِ شَملالٍ قَطَعتُ بها أرضًا يَحارُ بِها الهادونَ ديمومَا

مَـــــهامِـــهًا وخروقًا لا أنيسَ بها إلاَّ الضَّوابحَ والأصداءَ والبُومَا[4]

---

[1]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص175.

[2]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ص193، 194.

[3] عفيف عبد الرحمان: معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ص18.

[4]- الأسود بن يعفر: ديوان الأسود بن يعفر، صنعه: نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، (د ط)، 1970م، ص60.

الشاعر في هذه الأبيات يصف لنا رحلته في الصحراء فوق ناقته السريعة، يستعرض وحشة الصحراء المخيفة في ظلام اللّيل، يقول أن الأصوات التي كانت ترافقه هي الصدى وصوت البوم، كرمزية للخوف، والمكان القفر الخالي.

يبقى البوم في نظر الشعراء الجاهليين رمزا للتشاؤم والدمار والخراب، كما أنّه رمزٌ للخوف والقتل والموت واقتراب الخطر، ونلحظ الشعراء حمّلوا البوم صفات سلبية، في شكل رموز فنية يسودها الغموض والتعقيد زادت من حدة جمالية النص الشعري.

3- رمزية الغراب:

أشار الشعراء إلى طائر الغراب في مواضع عديدة، إذ ارتبط بعقلية الإنسان الجاهلي، في جوانب حياتية مختلفة، ويعيش الغراب في الصحراء وهو من الطيور الكبيرة السوداء التي نالت جاذبية اهتمام الشعراء، فاعتنوا بتقديم صفات حية للغراب، ووصفوا شكله ولونه، بدلالات رمزية تحيل إلى ارتباط أفكارهم بمعتقدات دينية وأسطورية ونفسية عند تفكيكها.

سمي الغراب بذلك الاسم لسواد لونه أما كنيته « أبو حاتم، وأبو جحادب، وأبو الجرّاح، وأبو حذرٍ، وأبو ريْدان، وأبو زاجرٍ، وأبو الشؤمْ...»[1] ، وهي ألقاب تحمل معاني عبّرت عن الواقع الفكري و الديني والأسطوري للبيئة العربية قبل الإسلام.

أما الغراب في معتقدات العرب ارتبط عندهم بالتَّشاؤم والغربة والفراق، والعزلة، واستوحوا من أسمائه معاني كثيرة حملت دلالات تشاؤمية، كما تعبّر عن تَطيُّرهم من هذا الحيوان واستنباذهم له «وليس في الأرض شيء يتشاءم به إلاَّ والغراب أشأم منه وأنكد، حتى أصبحوا يذكرونه مصاحبا بكل مايتطيَّرون منه، فهو المقدم في الشؤم، ومن أجل هذا أصبح كل جزء منه مدعاة للتطير»[2].

استكره العرب طائر الغراب، واستنفروا من لونه، وشكله ونُعابه، محذرين منه، معتبرين أنَّ كل من يراه سيلحقه مكروه محتوم فهو نذير شؤم وموت، وارتسمت هذه الصور في أشعار الجاهلية برموز عديدة في ألفاظ يشوبها الغموض والتعقيد ترجع بنا إلى معتقدات الجاهلية القديمة، و« الحديث عن الغراب في الشعر الجاهلي حديث طويل أشار إليه الشعراء كثيرا، واستخدموه في مواضع عدة ولكن معظم الحديث عنه في باب التشاؤم، لأنه أشأم الطيور عند الجاهليين»[3].

حمل الغراب رمز التشاؤم في الشعر الجاهلي، كما أنه يرمز إلى النوى والرّحيل ويقول في ذلك"النوتي": «ويظل في معتقدهم سواد الغراب رمزا للنوى والرّحيل»[4]

---

[1]- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج3، ص258.

[2]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص190.

[3]- م ن، ص ص189، 190.

[4]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص173.

قال"النّابغة الذبياني":

زَعِمَ البَوارِحْ أنَّ رِحلَتَنا غدًا وبِذاك خَبَّرَنَا الغُرابُ الأسودُ. [1]

سواد لون الغراب يحيل في معتقدات الجاهليين إلى الرّحيل، والفراق والبعد والنوى، وهي رموز فنية تنبأ بها الشاعر الجاهلي واستوحاها من لون الغراب الأسود الذي يبعث في نفسيتهم، فجيعة الفراق والرّحيل بلا عودة، وبهذا يكون رمزا للتشاؤم، لأن أقسى ما يؤلم الإنسان هو فراق أحبته وعدم رؤيتهم ثانية، هو فراق أبدي يعيشه المرء، فيبعث فيه شعورا بالقلق والضَّجر والتّشاؤم.

ويقصد الشاعر بهذا الرّحيل رحيل أحبته، فأخذوا معهم أمنه واستقراره، فصار يعيش في قلق وحيرة بالغة مثلها في صورة الغراب الأسود.

الغراب عند الشعراء الجاهليين «من رموز التشاؤم والخوف والقلق، وقد اتسعت المساحات الشعرية التي جاء فيها الغراب في الشعر الجاهلي رمزا من رموز الخوف المتمثلة بالطير، وتشكل كامل الخوف منه نتيجة صوته ولونه»[2]

بهذا يكون"النوتي" لخص لنا المعاني الرمزية للغراب التي احتوتها أشعار الجاهلية، في نواحي مختلفة، فجاء كرمزية للتشاؤم أولا، ثم يلحقها رمز الخوف والقلق، كلها راجعة لعوامل متعددة، تحيل إلى الحالة النفسية للشاعر الجاهلي وما يعيشه من قلق نفسي واضطراب وخوف وسط صحراء قاسية، لم يجد فيها سبيل تحقيق حرية أحلامه المقيدة، فأغلقت عليه أبواب الأمن والاستقرار.

[1]- النابغة الذبياني: الديوان، ص 68.

[2]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص175.

قال"النّابغة الذبياني":

زَعِمَ البَوارِحْ أنَّ رِحلَتَنا غدًا وبِذاك خَبَّرَنَا الغُرابُ الأسودُ. [1]

سواد لون الغراب يحيل في معتقدات الجاهليين إلى الرّحيل، والفراق والبعد والنوى، وهي رموز فنية تنبأ بها الشاعر الجاهلي واستوحاها من لون الغراب الأسود الذي يبعث في نفسيتهم، فجيعة الفراق والرّحيل بلا عودة، وبهذا يكون رمزا للتشاؤم، لأن أقسى ما يؤلم الإنسان هو فراق أحبته وعدم رؤيتهم ثانية، هو فراق أبدي يعيشه المرء، فيبعث فيه شعورا بالقلق والضَّجر والتّشاؤم.

ويقصد الشاعر بهذا الرّحيل رحيل أحبته، فأخذوا معهم أمنه واستقراره، فصار يعيش في قلق وحيرة بالغة مثلها في صورة الغراب الأسود.

الغراب عند الشعراء الجاهليين «من رموز التشاؤم والخوف والقلق، وقد اتسعت المساحات الشعرية التي جاء فيها الغراب في الشعر الجاهلي رمزا من رموز الخوف المتمثلة بالطير، وتشكل كامل الخوف منه نتيجة صوته ولونه»[2]

بهذا يكون"النوتي" لخص لنا المعاني الرمزية للغراب التي احتوتها أشعار الجاهلية، في نواحي مختلفة، فجاء كرمزية للتشاؤم أولا، ثم يلحقها رمز الخوف والقلق، كلها راجعة لعوامل متعددة، تحيل إلى الحالة النفسية للشاعر الجاهلي وما يعيشه من قلق نفسي واضطراب وخوف وسط صحراء قاسية، لم يجد فيها سبيل تحقيق حرية أحلامه المقيدة، فأغلقت عليه أبواب الأمن والاستقرار.

[1]- النابغة الذبياني: الديوان، ص 68.

[2]- أحمد موسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، ص175.

الفصل الثاني

الدلالات الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد

أولا: طرفة بن العبد

1- اسمه ونسبه:

جاء الحديث عن شخصية طرفة بن العبد في أغلب الدراسات الأدبية القديمة، والكتب التراثية التي اهتمت بتاريخ الشعر الجاهلي، هذه الكتب أشارت بطريقة مباشرة إلى حياة الشاعر ونسبه، فكادت تكون نفسها في كتب هؤلاء وأبحاثهم فيما يخص ترجمة حياة الشاعر.

لذلك نحاول الحديث عن حياة هذا الشاعر وسيرته، من خلال قراءتنا لتلك الكتب الأدبية، التي دونت تفاصيل حياة طرفة ونسبه واسمه وكنيته وكل شيء يتعلق بحياته الشعرية والاجتماعية.

هو:« عمرو بن عبد بن سُفيانَ بن سعد بن مالك بن ضُبيعَة بن قيس بن ثعلبةَ، قال أبو سعيد السّكري: اسمه عُبيدٌ، ويقال معبَدٌ، ولقب طرفة ببيت قاله، وكنيته أبو إسحاق »[1]

«وطرفة لقبه وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل إحدى قبائل ربيعة، وكان قومه ينزلون بالبحرين (شمال شرقي بلاد العرب على خليج البصرة) »[2]

نشأ طرفة بن العبد في أسرة معروفة بكبار الشعراء، الذين ذاع صيتهم إلى يومنا هذا، وحفظت أشعارهم في دواوين نالت حظ اهتمام الدارسين والنقاد، و«يمت طرفة بصلة القرابة لعدد من الشعراء، فالمرقش الأكبر عم أبيه، والمرقش الأصغر أخو أبيه، أما خال الشاعر فهو المتلمس (جرير بن عبد المسيح) الشاعر المعروف »[3]

رأينا أن طرفة ينحدر من أسرة شعر، « ولذلك عاش في بيئة الشعراء: أعمامه وأخواله»[4]، يعني أبوه أخو المرقش الأصغر، وابن أخ المرقش الأكبر، أما خاله المتلمس أخو أمه وردة بنت قتادة، وله أخت شاعرة تدعى الخرنق بنت بدر، هذا وقد أشرنا إلى أسرة طرفة ونسبه وما يتعلق بأعمامه وأخواله الشعراء.

هناك من يعتقد في لقبه " طرفة "، لقوله هذا البيت:

لا تُعْجِلا بِالبُكَاءِ اليومَ مُطَّرِفاً وَ لاَ أميرَيْكُمَا بالدَّارِ، إذْ وَقَفَا[5]

---

[1]- المرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى): معجم الشعراء، تح : فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط1، 2005م، ص21.

[2]- فوزي أمين : دراسات في الشعر الجاهلي، دار المعرفة، مصر، (د.ط)، 2007م، ص321.

[3]- م ن، ص ن.

[4]- قصي الحسيني : شعر الجاهلية وشعراؤها، المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان، ط1، 2006م، ص357.

[5]- طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد، شرح: الأعلم الشنتمري، تح: درية الخطيب و لطفي الصقال ،المؤسسة العربية، البحرين، إدارة الثقافة والفنون،بيروت، لبنان، ط2، 2000م، ص171.

واختلف في كنيته، هناك من يقول: كنيته أبو إسحاق، والآخر يقول أبو سعد، وفريق آخر يرى أنها أبو عمرو.

2- حياته (مولده ونشأته):

أما مولده كما ورد في المصادر الأدبية والتّراجم، أنه « ولد في البحرين نحو سنة 543م، في أسرة كثر فيها الشعراء، وفقد أباه وهو طفل، فتعهّد أعمامه ، إلا أنهم ظلموه وهضموا حقوق أمه وردة بنت عبد المسيح، فنشأ لاهيا يبذر ماله في السكر والمجون، فطرده قومه وراح يضرب في البلاد، متشردا ثم عاد إلى قومه فأرعوْهُ الإبل»[1]

ولد طرفة في البحرين، وهي مجموعة جزر في منطقة الخليج العربي كانت في الأصل متصلة بالجزيرة العربية، ثم انفصلت عنها لعوامل جيولوجية، وهذا يعني أن قومه كانوا يعيشون في منطقة البحرين على الخليج العربي، إضافة إلى أنه عاش طفولة معذبة قاسية، إذ توفي أبوه وهو صغير، وعانى في طفولته ظلم أعمامه مع أمه، فقد منعوهما حقهما من إرث أبيه، وهذا أثر كثيرا في نفسية طرفة، واتضح ذلك في شعره، فسلك طريق الانحراف نحو اللهو والمجون، فعاش حياة التشرد والضياع، فأنكره قومه لأنهم رؤوا فيه شخصا لاهيا، ساعيا نحو ملذاته، مبددا أمواله وإسرافه في اللهو، فلا فائدة من بقائه داخل القبيلة، فطردوه لكنه عاد بعد فترة إلى قومه، فشغلوه رعاية الإبل، إلاّ أنه لم يحسن ذلك وأهمل عمل، ربما لأنه أحس بالإهانة.

وتحضرنا قصة طرفة عندما أهمل رعاية إبل أخيه الذي استأمنه شأن العناية بها، فنشأ خلاف بينهما بسبب ذلك، فارتحل طرفة عن قومه، قاصدا في طريقه بلاط الحيرة، حيث يتواجد صهره عمرو بن بشر وخاله المتلمس، فأحسن الملك عمرو بن هند استقباله وجعله مع خاله المتلمس لشدة إعجابه بشعره، ليدخل في خدمة الملك في القصر واستمرت حياته هناك على أحسن حال، لكن لم يدم ذلك طويلا إلى أن أخرجه الملك من حاشيته، مع المتلمس إلى حاشية أخيه قابوس ولي عهده، بسبب تغزله بأخته، فغضب الملك عليه، فتردت حاله وساءت، وفقد مكانته في القصر، وصار خادما في حاشية ولي العهد قابوس، يقوم بأعمال شاقة جعلته يتذمر ويشكو حاله.[2]

فحياة طرفة شبيهة بحياة امرؤ القيس، في لهوه متتبعا ملذات الدنيا و « يروى أن طرفة كان يغشى بصحبة رفاق اللهو مجالس الأنس، وكانوا يطمعون به لثروته الرهينة بين الطاس والكأس، فيحوم على موارد الملاذ ينفق ماله بروحه المتلافة التي تأنف من البخل و تتمكن بصاحبه، كما كان يغشى مجالس الشورى في القبيلة، جامعا بين

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م، ص230.

[2]- ينظر: قصي الحسين: شعر الجاهلية وشعراؤها، ص360.

أساليب اللهو وطرق المجد، حتى لم يبق بحوزته من المال ما يسد به حاجاته، فتفرق عنه صحبه، وكثر لائموه، وشرد على وجهه »[1]

انغمس طرفة في ملذات الدنيا، متخذا سبيل اللهو في مجالس الأنس مع رفاقه، الذين استغلوا طيشه في تبديد أمواله وثروته لصالحهم، متغافلا على أن مصاحبتهم له كانت من أجل إتلاف ماله في أساليب اللّهو واللعب، وحينما أفلس، انصدم بحقيقة رفاقه الذين استغنوا عنه، وتفرقوا بعيدا، فوجد حاله وحيدا يأكله الندم على ما ضاع منه، و ما خسره في أشياء لا تنفع أدت إلى ضياعه، باكيا على غدر أصدقائه، زرع فيه ألما شديدا مما أثّر ذلك فيه، فضاقت نفسه على ما تعرض له من خيانة وغدر بسبب طيشه ولهوه، فلم يبق له إلا أن يمضي نحو حياة التمرد والتشرد، متخذا سبيل النّهب والغزو، مستبدلا صداقة الإنسان الغادر بصداقة الحيوان الذي يرى فيه معاني الوفاء والأمان بعيدا عن عالم الإنس الموحش الغادر، المليء بخيبات الخيانة والاستغلال، «وقد أثرت عليه هذه التجربة أثرا بالغا بسبب انقلاب أصحابه عليه، ومفارقته خولة التي كثر حديثه عنها في شعره، فهام على وجهه ليعيش حياة الصّعاليك، تارة يغزو وطور يلجأ إلى المغاور في الجبال العاصية، فإذا ما جاور قوما غير قومه، أنس للوحش وبث ناقته شكواه »[2]

وهناك من يرى أن طرفة لم يتعود حياة الصعاليك القائمة على النهب والغزو، فحاول الرجوع إلى أهله وقومه، بعد مراجعة أفكاره واستشارة ذاته، قرر العودة إلى قومه، فمنحه أخوه رعاية إبله، فأهمل ذلك، « فكان راعيا مهملا، كثيرا ما تعرض لتأنيب أخيه الذي كان يلومه على انصرافه للشعر وعدم الإنتباه لأخذ الإبل منه، قائلا له: ترى إنها إن أخذت تردها بشعرك هذا؟ »[3]

عاش طرفة حياة قاسية بدأت بحرمانه من عاطفة الأبوة، فعاش مع أمه التي تعرضت لظلم أعمامه فاستولوا على إرثهم، هذا أثر على مرحلة شبابه التي قضاها لاهيا متجاهلا مسؤولية الحياة وغدر الدهر، فلم يحسن التصرف في أمواله التي ضاعت منه دون أن يشعر بذلك، ليبدي مرارة ندمه في الأخير الذي لا نفع له.

3- وفاته:

أغلب المصادر المتعلقة بتاريخ الشعر الجاهلي، وتراجم الشعراء الجاهليين، اجتمعت على ذكر حادثة مقتله، «وقد قتل طرفة في ريعان شبابه بإيعاز من عمرو بن هند الذي تولى ملك الحيرة من سنة 568م، ويقول

[1]- قصي الحسين: شعر الجاهلية وشعراؤها، 358.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- م ن، ص ن.

الإخباريون أن طرفة حين قتل كان في العشرين من عمره ومنهم من يقول أنه كان في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين»[1]، الظاهر من ذلك هو أن طرفة لم يعش طويلا، فمات في ريعان شبابه، على الرغم من قصر حياته فقد أعطى للشعر الجاهلي ثروة فنية هائلة تبرز موهبته الشعرية التي بدأت منذ طفولته، فكانت حادثة مقتله مؤلمة وحزينة، وتدور قصة مقتله حول « هجاء طرفة عمرو بن هند ملك الحيرة، فاضطغنها الملك عليه حتى إذا ما جاءه هو وخاله المتلمس يتعرضان لفضله، أظهر لهما البشاشة وأمر لكل منهما بجائزة، وكتب لهما كتابين، وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه، وبينما هما في الطريق ارتاب الملتمس في صحيفته، فعرّج على غلام يقرؤها له، فإذا بالصحيفة الأمر بقتله، فحاول اللّحاق بطرفة ليخبره فلم يستطع(...)، وذهب طرفة إلى عامل البحرين فقتل هناك نحو سنة 569م »[2]

يتألم السامع لحادثة مقتل طرفة بن العبد، فيتأثر لذلك، فهي قصة حزينة ومؤثرة لشاب يافع فطر على قول الشعر، مات ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، مع أن تاريخ وفاته غير ثابت، فاختلف الباحثون في ذلك، لكن ليس بفارق كبير، و«هكذا مات طرفة في ربيع الحياة، ولم يُتح له أن يُعطي للأدب، وكان باستطاعته أن يعطي كثيرا لأن موهبته الشعرية التي تفتّحت منذ الطفولة كانت من أعظم المواهب التي عرفتها الجاهلية »[3]

وعلى الرغم من ذلك فقد وصلتنا معلقته الدالية الشهيرة، التي جعلته في مقدمة فحول الشعراء، فحظيت بمكانة عالية في الشعر الجاهلي، وجعلته من شعراء المعلقات في الجاهلية، كما أن له شعر كثير كشف عن إبداعه الفني وموهبته التي فطر عليها.

ويقول ابن سلام الجمحي: "طرفة بن العبد، عبيد بن الأبرص، علقمة الفحل، عدي بن زيد، وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنّما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة»[4]، فيرى أن الرواة أخلوا بواجبهم اتجاه هؤلاء الشعراء من بينهم طرفة، فلم يجمعوا كل شعرهم، ربما لقلة اجتهادهم على ذلك، فلم يحيطوا بكل شعرهم، هذا سبب لقلته، كما أنّ طرفة مات في أوائل شبابه، هذا ما جعل شعره قليلا، إلاّ أنه وصلنا قدر لا بأس به كشف موهبته الشعرية، حيث «قال الذين قدموا طرفة: هو أشعرهم إذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في

[1]- فوزي أمين: دراسات في الشعر الجاهلي، ص321.

[2]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ص230.

[3]- م ن، ص ن.

[4]- ابن سلام الجمحي (أبي عبد الله محمد): طبقات فحول الشعراء، تح: عمر فاروق الطّباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997م، ص78.

طول أعمارهم، وإنّما بلغ من عمره نيفا وعشرين سنة ، وقيل: لا بل عشرين سنة، فخبّ وركض معهم »[1] وافته المنية في مقتل شبابه، واختلف الدارسون في تأكيد تاريخ وفاته، والأرجح أنه قتل في العشرين من عمره.

4- عقيدته:

تعددت عقائد العرب في الجاهلية قبل الإسلام، فكانت الوثنية والنصرانية واليهودية، ديانات عرفها الفكر الديني للبيئة العربية قبل مجيء الإسلام، فانتشرت بين قبائل العرب وشعرائها، أو بالأحرى فإنّ لكل شاعر عقيدته التي وجد لأجلها فكانت امتدادا لديانة آبائه وأجداده الذين سبقوه.

ويقول قصي حسين: « لعل الأب شيخو كان من بين كثير من الباحثين الذين اهتموا بالكشف عن عقيدة شعراء الجاهلية، وقد جعل طرفة من عداد شعراء النصرانية، دون تعليل لذلك، غير أنّه أشار إلى جملة الأسباب التي دعته إلى هذا الاستنتاج في كتابه التالي الذي ظهر عام 1923م تحت عنوان "النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية"»[2]

ويشير إلى الأسباب التي دعت الأب شيخو يؤكد على نصرانية طرفة بن العبد لخصها في أن أهله كلّهم كانوا على النصرانية، كما أنه توجه لخدمة بلاط الحيرة النصراني، فكانت تربطه به رابطة الدين النصراني، كذلك خاله المتلمس وصهره عبد عمرو بن بشر كانوا من حاشية البلاط، أيضا فإن عيشتهم في الحيرة كانت بين النصارى[3]

كما تناول المستشرقون في كتاباتهم حياة العرب الجاهلية، فأولوا اهتمامهم بالجانب الديني لتاريخ الشعر الجاهلي وشعراءه، و«والمستشرق "سيلغسون" فقد وجد في حياة طرفة سلوكا يبعده عن المثال المسيحي لأنه أمضى حياته لاهيا في الحانات، وقد استنتج أنه كان وثنيا يعبد الصنم "أوال" وغيره من أصنام العرب التي كانت تنتشر على طول الجزيرة وعرضها، قبل ظهور الإسلام»[4]

يضحد "سيلغسون" كون طرفة كان نصرانيا، ويرى أنه كغيره من العرب يعبد الأصنام، حتى أنه حدد اسم الصنم الذي كان يعبده طرفة و هو " أوال "، وتباينت آراء المستشرقين، وبعض الدارسين في أبحاثهم حول العقيدة التي ينتمي لها طرفة وقومه بين من يقول أنه كان نصرانيا، وقول آخر يُقر بوثنيته.

---

[1]- أبي زيد القرشي: جهمرة أشعار العرب، شرح: عمر فاروق الطّباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت،(د ط)، ص62.

[2]- قصي الحسين: شعر الجاهلية وشعراؤها، ص360.

[3]- ينظر: م ن، ص 360.

[4]- م ن، ص 361.

ثانيا: شعره:

يجمع النقاد أن طرفة أشهر شعراء عصره بعد امرؤ القيس، فقد اعتلى منزلة شامخة في بيئة الشعر، على الرغم من حداثة سنه وقلة شعره، يبقى من كبار شعراء العصر الجاهلي، وقد صنفه ابن سلام مع شعراء الطبقة الرابعة من فحول الشعراء، مع عبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة، وعدي بن زيد.

ومن النماذج الرائعة في الأدب العربي، ما وصلنا من قصائد سميّت بالمعلقات لشعراء جاهليين أبدعوا في لغة الشعر، من بينها معلقة طرفة بن العبد وهي دالية مشهورة نسجت على البحر الطويل.

إلى جانب معلقته فقد جمعت أشعاره في ديوان صغير يبرز القيمة الفنية والفكرية للشاعر، كما أنه عبر عن خصائص الشعر الجاهلي وموضوعاته التي دارت في أغراض فنية مختلفة، وعُني الدارسون بشرحه وتحقيقه ونشره، وكان المستشرقون أولوا عنايتهم بطباعة ونشر الديوان في الغرب، ويقول حنا الفاخوري: « لطرفة بن العبد ديوان صغير في الشعر ينطوي على غزل ولهو وفخر وهجاء و وصف(...) وشرح هذا الديوان الأعلم الشنتمري في القرن الحادي عشر، ونشره بالطبع المستشرق وليم بن الورد Ah Lwardt في لندن سنة 1870م، ثم الأب شيخو في مجموعته "شعراء النصرانية"، ثم المستشرق سَلغْسُون Max Seligshn سنة 1900م»[1]

إن الحالة الاجتماعية والنفسية لطرفة بن العبد، تمخضت عنها خصائص جمالية ارتدت ثوب الخيال أحاطت بقصائد شعره، زادت من نهضة الشعر الجاهلي ورُقيه، فشعر طرفة بألفاظ انزوت نحو الغرابة والغموض، قد عبر بصدق فني عن الحالة الشعورية التي سلكها في مراحل حياته التي لم تدم طويلا، لكنها لخصت رحلة عمرية طويلة، انتهت أخيرا إلى فراق عتبة الحياة، واحتضان قدر الموت، بعدما عاش طرفة صراع وجودي انطوى على تناقضات حياتية مختلفة، في مقاومة عناصر الفضاء الخارجي المتمثل في قساوة البيئة الصحراوية وخشونتها، وجسد الشاعر وجوده من خلال ارتباطه القوي بناقته التي حلت في حضورها أهمية بالغة في نفسيته المضطربة والقلقة من مسالك الحياة، لكنه أخذ من ناقته مبادئ الصبر والقوة والمجابهة منطلقا في خوض طريق الحياة القادمة.

امتاز شعر طرفة بجملة من الخصائص رسمت مذهبه الفني في الشعر، تبرز لنا منهج الجاهليين في أشعارهم وخطى سيرهم في بناء نصهم الشعري على وتيرة واحدة تصل إلى حد الاتفاق بينهم.

ويقول مصطفى صادق الرافعي: «ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلة بمجموع هذا المعنى، غير شعر طرفة، فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة قومه واستمسك

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)، ص ص 230، 231.

بميثاقهم»[1]، حيث يحيلنا إلى نباهته في قول الشعر في موضع الفخر، بل وفي أغراض شعرية أخرى خاصة شعر الحكمة الذي ملأ قصائده، جعلته يتبوأ أعلى مراتب الشعر ويزاحم فحول الشعراء، ليفرض من شخصيته القوية في بيئة تبارز فيها فحول الشعراء، محققا وُجودهُ في بيئة الشعر والشعراء وهذا ما نبَّه له النقاد في مؤلفاتهم.

نلحظ في شعر طرفة توجهه الكبير إلى الوصف على باقي الأغراض الأخرى، ليغرق في وصف مظاهر الطبيعة الحية والصامتة، فيشير إلى ارتباطه القوي بحيوانات صحرائه، فيتأملها بدقة، معطيا صورة واضحة عن تلك الحيوانات، وكانت الناقة أكثر حيوان اعتنى به الشاعر، أعطى لها وصفا مفصلا يبرز من خلاله حيثيات الرحلة ومغامراته، معتمدا على خياله الشعري بتراكيب جمالية وفنية، « و قد وصف طرفة النوق وصفا شعريا، ولكنه قد قصَّر في وصف الخيل وجاءت في كلمة متفرقات من الحكم والأمثال، وهي أبدع ما في شعره، ثم موقد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثّاقب، ولكنه قليل المدح نازل الطبقة فيه»[2]، عرف طرفة بإغراقه في الوصف لحد المبالغة فيه، ويتضح أكثر في وصفه للناقة، على حساب الخيل الذي لم يوله أهمية كبيرة في الوصف، إلاّ في مواضع استدعت منه ذلك في باب الحكمة والأمثال، وقد قل المدح عنده وكذلك الهجاء لم يكثر منه، و«يمتاز هذا الرجل بالمبالغة والإغراق، فكأنّه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلور»[3]

كما امتاز شعره بقوة ألفاظه ومتانة تراكيبه، وحسن المعاني، وجودة أسلوبه، كذلك نجد « الصنعة في شعر طرفة قليلة إلا أنها جيدة»[4]

ويضيف الرافعي رأيه في شعر طرفة قائلا: "وأرى شعر هذا الرجل كالشباب: حقيقة جماله في القوة والمتانة، فإن اتفق معه شيء من ظواهر الجمال كان ذلك بمجموعه كمالا»[5]

أما أسلوبه فهو أسلوب الجاهليين، من خلال توظيف التشبيهات الكثيرة، والاستعارات، بالإضافة إلى المحسنات البديعية التي أخذت بشعره إلى الإغراب والغموض، وبالتالي اعتزل الوضوح وتجنب الشرح والمباشرة، واستبدل مكانها رموزا حسية عميقة تولدت نتيجة الغرابة في الوصف والتعبير، فنجد « أسلوب طرفة في تعبيره هو أسلوب الجاهليين الحسي التشبيهي، وهو هنا غيره في وصف الناقة حيث أغرب ما استطاع من الإغراب، فهو

---

[1]- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د.ط)،(د ت)، ص844.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- م ن، ص845.

[4]- م ن، ص 846.

[5]- م ن، ص ن.

يسير في سهولة وصفاء، وينتهج نهج الهدوء الذي تثقله الفكرة ويخيم عليه القلق الحزين، وتنهض به أحيانا عاصفة المفاخرة الجاهلية، التي تمد فيه عصبا قويا في غير قسوة ولا عنف»[1]

أكثر طرفة في أسلوبه من الإغراب، من خلال وصفه لناقته، وتفادى كل ما هو مألوف وتجنب الوضوح، وكأنّه تعمد ذلك ليزيد في شعره بصمته الوجودية، التي تبرز ذاته الشعرية وروحه الفنية وعبقريته اللغوية، حيث يعيش حالات تناقضية، فتارة يكون هادئا هدوء يوحي بحالة القلق الوجودي التي يمر بها الشاعر في أسلوب هادئ ينطق بالحزن، بألفاظ تتنهد القلق والتوتر، ليتحول بعدها مباشرة إلى أسلوب يكشف قوة عصبية الشاعر في باب المفاخرة بالقبيلة أو قومه.

أما من حيث الأغراض، فنجد الشاعر في أغراضه الشعرية اعتمد أكثر على الوصف، فهو موضوعه الأساس، إلى جانبه استعمل أغراض أخرى لكنها قليلة في شعره، فنجد:

1- الغزل: وهو ركن هام من أركان البنية الفنية للمعلقات، وللقصيدة الجاهلية عامة، فبعد بكاء الشاعر على الأطلال واستذكار أيامه السابقة، يأتي ذكره لمنازل الحبيبة ووصفها في موضع الغزل، لكن طرفة لم يستغرق كثيرا في الغزل كما فعل سابقيه من الشعراء، « فهو وصف أكثر مما يسمى غزلا، وهو وصف مادي وتشبيه حسي، لا يحوي اختلاجا ولا اضطرابا، ولا ينبض بالحياة، ولا يجاري غزل امرؤ القيس في الحوار والقصص، والشاعر يمرّ به مرًّا ولا يوطئ به لوصف الناقة وللحكمة»[2]، يَعْبُر الشاعر على الغزل في لمحة خاطفة، وكأنَّ الأمر محتوم عليه ليطبق قانون نسج القصيدة الجاهلية، ليقفز سريعًا إلى وصف ناقته بشواهد توحي بالحكمة ورجاحة العقل، فالغزل عنده يكاد ينعدم، جاف خالي من نبض الحياة، معطيا جل اهتمامه إلى ناقته ليبرع في وصفها بألفاظ تركيبية، بمعاني لغوية راقية تدق باب الحكمة والوعي، والواقع الحي، على الرغم من أن الشاعر عاش حياة البذخ والترف في لهو ولعب، غير أنه لم يقترب من ذكر قصص الغزل ولم يطل فيها.

2- المدح: اتجه طرفة إلى العيش مع خاله المتلمس في بلاط الحيرة، ولم نلتقي داخل قصائده بمدحه لملك الحيرة، هذا يدل على أنه لم يكن من شعراء التكسب في البلاط، ولم ينوِ أن يرفع في شأنه لدى الملك، من خلال مدحه لهُ، أو أنه لم ينتبه إلى أن يستعلي مناصب عليا في القصر، لكن نجده قد مدح المناذرة بالحيرة على حد قول الباحثين، ويشير حنا الفاخوري في قوله: « مدح طرفة المناذرة بالحيرة ومدح غيرهم كسعد بن مالك، ومدحه وجيز يدور حول الصفات المعهودة التي نجدها في كل مدح من كرم، ونبل أصل، وطلب العلى، ولكننا لا نجد في مدحه

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ص236.

[2]- م ن، ص ن.

كذلك أو تزلّفا بل نشعر أن نفسه تنبض بالشّهامة والعنفوان والكرامة»[1]، نلمس في مدح طرفة على رغم من قلته، عزّة نفسه وكرامتها، بعيدا عن التّكسب والتّذلل، حتى أنه لم يتطرق في مدحه إلى ملك الحيرة لأغراضه الشخصية، بل انتبه إلى مدح الخصال أو الفضائل الحميدة التي هلل بها العرب كالكرم والشجاعة والنبل، هي صفات يمجدها الإنسان العربي، فكان طرفة يمدح كل من يكتسي هذه الصفات المجيدة، ويبقى مدحه قليلا جدا إلى حد الانعدام.

3- الوصف: وصف الشعراء الطبيعة ومشاهدها الحية أو الجامدة، فوصفوا حيواناتها كالناقة والفرس، وقد زخرت المعلقات بالوصف، واشتهر شعراء كثيرون في وصف حيواناتهم كطرفة بن العبد، الذي كان الوصف هو موضوعه الأساسي في شعره، فوصف كل شيء وقع عليه بصره، معطيا صورة فنية لذلك الوصف، فوصف ناقته بكل تفاصيلها، فكان الوصف أداة الشاعر في كل غرض شعري تطرق إليه، إلاّ وكان الوصف حاضرا فيه، « فهو ميدان واسع للمباهاة والمنافسة، وقد بذل الشاعر كل ما بوسعه ليكون الوصف كاملا يحوي من الألفاظ الغريبة والموسيقى القاسية ما يضطرب في جو من الضخامة الفريدة في نوعها»[2]، استخدم الشاعر في وصفه ألفاظا تمتاز بالغرابة والغموض تنحرف عن طريق الوضوح، وتمضي نحو قسوة الإغراب، ليخلق لنا ألفاظا تعبيرية مالت إلى التعقيد والخشونة في التعبير بصورة فنية، تظهر براعة الخيال الأسطوري والفني للشاعر، وهذا اتضح خلال رسمه لصورة ناقته، وقد «أخذ يرسم أجزاءها رسما دقيق المعنى يرتقي على أجنحة من الخيال الأسطوري شديدة الانطلاق وثابتة الخطى (...) وتشبيهه متراكم تراكما يحملك على الظن أن كل ما في هذا الوصف صور وأصباغ أو حركة وحياة»[3]، اعتمد في وصفه لناقته على تشبيهات تنبض بالحركة والديمومة وتبعث بالحياة، مبرزا مدى دقته الشديدة في هذا الوصف، بمعاني ترقص على أنغام موسيقية استحدثها الشاعر، باعثة شرارة تأثيرها في نفس المتلقين ليعيش على إيقاع حي متناغم، خلقه الشاعر بإبداعه الفني، فينسجم ذلك مع ذات المتلقي ويحاول أن يطل من خلال تلك الموسيقى التصويرية على باطن الذات الشاعرة، فيتأثر بذلك، «وطرفة يعنى عناية خاصة بالتأثير، فهو يرمي إليه عن طريق الضخامة والموسيقى، وهو في موسيقاه الشعرية يحاول أن يجعل النغم صدى للمعنى وصورة لهُ»[4]، وكأن الشاعر تعمد في وصفه إلى خلق قوة تأثير موسيقاه الفنية، مجسدة قوة المعاني في ألفاظ تتراقص على حافة هذا الوصف الذي يكشف على حيوية نفسه الشاعرة، التي تنبض بقوة الحياة والصبر.

---

[1]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ص 238.

[2]- م ن، ص237.

[3]- م ن، ص ن.

[4]- م ن، ص ن.

نلحظ أن الوصف أكثر الأغراض التي نالت عناية واهتمام الشاعر، فاعتنى في وصفه كل ما وقعت عليه عينه، في بيئته الصحراوية، التي احتضنته هو وناقته التي كانت بطلة موضوع الوصف عند طرفة بامتياز، إذ وصف حركتها الحسية والجسمانية، مبرزا مدى تأثره بها، فاحتضنت وجوده في الصحراء، ليجسد قوة ارتباطه الروحي رفقة ناقته، أما باقي الأغراض في شعر طرفة فكان التطرق إليها خفيفا جدا.

ثالثا:قراءة في المعاني الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد:

1- رمزية الناقة:

رسم الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد صورا فنية لناقته، أبدع في نحتها بخياله الفني، فقدم وصفا يمتاز بالدقة والشمولية للناقة، برصد مكوناتها الجسمانية والروحية، فأغرق في وصفها بروح صادقة مضفيا عليها عمق مشاعره الحية، إذ جاء وصفه مكثّفا برموز دلالية عميقة تسطحت نصه الشعري، فجاءت معانيه اللفظية مثقلة بأعماقه النفسية الشعورية واللاّشعورية، حيث تنهدها في كلمات رمزية خبّأت داخل إيحاءاتها أسرار عميقة دارت في النفس الشاعرة، التي تنطق بغلاظة الحياة وقساوة محيطه ضمن البيئة الصحراوية، فالفضاء الخارجي المتمثل في البيئة الصحراوية له أثر قوي في تكوين الفضاء الداخلي للشاعر، «فالناقة هنا، داخل التجربة الشعرية، تنتقل من مستوى الواقع إلى مستوى الرمز، فتتلون، حسب الرؤى، ونمط التجارب»[1]

تعتبر الناقة عند أغلبية الباحثين والنقاد، على أنها الحيوان الأليف الذي رافق حياة الشاعر الجامح، إذ نرى أن طرفة أطنب في وصف ناقته والحديث عنها، فذكرها في كل المواقف والمواضع التي يحلّ بها أينما ذهب، إذ لوحظ مدى تعلقه الشديد بها الذي كان يضاهي تعلقه بمحبوبته، لذلك أضفى عليها جل أحاسيسه ومشاعره بصور جمالية ذات طابع نفسي استشعره الشاعر من روح الارتباط العميق الذي يربطه بالناقة، كما أبدع في وصف مكوناتها وتفاصيل جسدها، مع الاهتمام بحالاتها النفسية والشعورية، التي تتماشى بطبيعة الحال مع مكونات الطبيعة الصحراوية وصلابة أرضها وقساوة مناخها المتقلب، «والناقة عند الشاعر الجامح بساطه السحري، يجوب بها الآفاق والطباق، حتى يصل إلى مقصوده وغرضه»[2]، كل هذا كان على شكل تعابير رمزية جاءت في سياق نفسي بمنظور اجتماعي، كشفت عن المكبوتات النفسية لحياة طرفة بن العبد، الذي اتخذ من ناقته واسطة لرحلة طويلة وسط الصحراء القاسية، لتلعب ناقته دورا مهما باعتبارها أداة تواصلية، أحسن طرفة استغلالها من خلال جعلها تتلقى معاناته وآلامه واضطهاده، من عيشته المؤلمة، لتشاركه أعباء وتراكمات خيبات الدهر وخيانته، كل هذا أسقطه الشاعر على ناقته، ليصيرَا كيانا واحدًا تجمعهم ظروف اجتماعية متشابهة وتحضنهم بيئة واحدة وهي الصحراء، ليخوض معها تجربة الصراع بين الموت والحياة.

يتفاعل طرفة مع الناقة وجدانيا وروحيا في حياة الحلّ والتّرحال، محافظا على قوة روحه وصلابة وجوده، حتى يقدر على مواجهة مفاجآت القدر أو الزمن، ليعمل من أجل السيطرة على قلقه واضطرابه النفسي الذي

---

[1]- حسن مسكين: الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص76.

[2]- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص127.

يعيش داخله، بصبر وقوة وشجاعة، التي استمدها من ناقته، ليستمر في رحلته مصارعًا ظروف الحياة التي تحاصره، هذا قد جاءنا في شعر طرفة بسياقات متعددة شكلت نصه الشعري في شكل أنساق شعرية، جسدتها رموزا تكاثفت داخل شعره بكلمات غريبة، هذا ما تنبّه له الدارسون في شعر طرفة وباقي الشعراء، حيث " كانت السمة الغالبة على أشعارهم التي وصفوا بها الناقة هي الكلمات الغريبة، والتي لابد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية لفهم معانيها»[1]

تحدث طرفة عن ناقته في أبيات كثيرة، وأفاض مطولا في وصف الناقة بصورة مفصّلة، اكتست عبارات وكلمات امتازت بالغموض والعمق والإبهام، في شكل رموز قيّدت وكبحت حرية فهم المتلقي لبنية النص الشعري، جعلته عاجزا عن الوصول إلى المعنى الأصلي الذي أراده من وصفه، مرتديا أقنعة رمزية قطعت رباط الفهم والتصريح، وأقامت جدار التعقيد والغموض، فجاءت الناقة عند طرفة في رموز دلالية مختلفة عبرت عن معاني حسية تكشف عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، متخذا من الناقة قدوة لاستمرار حياته، من أجل تأصيل ذاته وفرض وجوده، وإن كان هذا مستحيلا إلا أنه يؤمن بقوة الإصرار على تحقيق رغبته في الوجود.

ويصف طرفة ناقته وصفا فيزيولوجيا مفصّلا يقول:

وَإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي

أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَسَأْتُهَا عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

جَمَالِيَّةٍ وَجْنَاءَ تَرْدِي كَأَنَّهَا سَفَنَّجَةٌ تَبْرِي لأَزْعَرَ أَرْبَدِ

تُبَارِي عِتَاقَاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَتْ وَظِيْفَاً وَظِيْفَاً فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَّدِ

تَرَبَّعَتِ القُفَّيْنِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي حَدَائِقَ مَوْلِيِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَدِ

تَرِيْعُ إِلَى صَوْتِ المُهِيْبِ وَتَتَّقِي بِذِي خُصَلٍ رَوْعَاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ

كَأَنَّ جَنَاحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَا حِفَافَيْهِ شُكَّا فِي العَسِيْبِ بِمِسْرَدِ

فَطَوْراً بِهِ خَلْفَ الزَّمِيْلِ وَتَارَةً عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُجَدَّدِ

لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيْهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

وطَيُّ مَحَالٍ كَالحَنِيِّ خُلُوفُهُ وأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْيٍ مُنَضَّدِ

كَأَنَّ كِنَاسَيْ ضَالَةٍ يَكْنِفَانِهَا وَأَطْرَ قِسِيٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ

[1]– علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص143.

لَهـــَا مِرْفَقَـــانِ أَفْتَـلانِ كَأَنَّما تَمـــُرُّ بِسَلْمَيْ دَالِـــجٍ مُـتَـشَـدِّدِ
كَقَنْطَرَةِ الرُّومِـيِّ أَقْسَـمَ رَبُّهَـا لَتُكْتَـنَفَنْ حَتـَى تُـشَـــادَ بِـقَـرْمَـــدِ
صُهَابِيَّةُ العُثْنُونِ مُوْجَدَةُ القَـــرَا بَعـِيْـدةُ وَخْـدِ الـرِّجْـلِ مـوَّارَةُ الـيَـدِ
أُمِرَّتْ يَدَاهَا فَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ لَـهـَا عَضُـدَاهـَا فِي سَقِيْـفٍ مُسـنَّـدِ
جـنُوحٌ دِفَاقٌ عَـنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَـتْ لـهَـا كَتِفَـاهَـا فـِي مـُعَـــالَى مُصَعَّـدِ
كَأَنَّ عُلُوبَ النِّسْعِ فـِي دَأَيَاتِهَا مَـوَارِدُ مِـن خَـلْـقَـــاءَ فـِي ظَهْرِ قَرْدَدِ[1]

لحظة قراءتنا لشعر طرفة في وصفه الناقة، نشعر بذلك الجوهر النفسي العميق المضمر، الذي أنتجه الخيال الشعري وفق رموز دلالية تحمل أبعاد إيحائية داخل أنساق النص الشعري، حيث يستدعي منّا تفكيك شفرات تلك الرموز التعبيرية، التي دارت حولها تأويلات عديدة، تطلبت من القارئ اعتماده على سلاح الخيال ومقابلته مع خيال الشاعر، حتى يتسنى له القدرة تفكيك تلك المعاني الخفية تحت أجنحة الرمز، وذلك بعد اطّلاعه الواسع على المحيط النفسي والاجتماعي لحياة الشاعر، باعتباره الباعث الأول الذي دفع به إلى نظم قصيدة مطولة على بحر الطويل، الذي جاء ملائما في موسيقاه الشعرية وإيقاعه الوزني مع أحاسيس الشاعر ومشاعره الباطنية، كذلك للبيئة أثرها القوي في تشكيل الصورة الفنية في علاقة الناقة بالشاعر التي صدرت من خياله الشعري والباطني الذي يتغلغل في أعماق النفس، وبالتالي "فالناقة هي المعادل الموضوعي الذي يوظفه الشاعر الجاهلي للتعبير عن إرادة قهر المحيط القاسي الذي كان يحيط به"[2]

كما قلنا أن البيئة هي الإطار العام الذي احتضن صورة طرفة مع ناقته، جمعتهما رابطة قوية جعلت حياته تلتحم مع حياة الناقة، فأسقط عليها مكبوتاته النفسية وأعماقه الشعورية، في نَفَسٍ قصصي فني يروي فيه مراحل حياته القصيرة، التي انتهت قبل بلوغ آفاق أحلامه المنتظرة، والناقة في صورها جسدت كل طموحات طرفة، وأحلامه المعلقة في عجلة الخيال التي أبت أن تتحرر إلى أرض الوجود، فرسم طرفة عالمه الباطني في صورة الناقة بألوان رمزية، مثلث عالم الحياة وما انطوى عليه من أسرار تخبأت في اللاشعور.

الناقة عند طرفة مثلث مسار حياته من خلال سعيه إلى البحث عن الوجود، والإصرار على تحقيقه بمصارعة قوى الدهر والحياة معا، ممتطيا ناقته قاطعًا معها مسالك الحياة المجهولة في رحلة شاقة ومضنية هدفها

[1]- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص52-58.

[2]- محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءة السياقية، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2004م، ص165.

البحث عن الذات، ليجد لها مكانا يعترف بمصداقية الأنا الداخلي، الذي يتألم من أوجاع الماضي الأليم، ويحتضن الشاعر فكرة طموحه للوصول إلى العالم المفقود، أي عالم الوجود المثالي الخالي من كدرات الزمن وتنعدم فيه خيانة البشر، هو عالم اشتمل بين ثناياه على عبق الإنسانية الذي يفتقده طرفة في قومه، وبقي متمسكا بأمل الوصول إليه وسرعان ما انكسرت أحلامه، ليأتي قطار الموت مختطفه إلى العالم الآخر، « والشاعر يستطيع أن يصور ناقته مستقرة، كما يستطيع أن يصورها متحركة نشيطة، وهو في هذا كله قادر على أن يحسن التصوير، ويأتي بالشعر »[1]

ويبقى شعر طرفة حول ناقته صورة حية، جسدت أهدافه، وحددت خططه، برموز منسقة، فكانت إيحاءاتها توحي إلى حياة ذلك الإنسان المتمرد، الرافض لسلطة الآخر، ساعيا في تصويره للناقة إلى تحرير الأنا من قيود المجتمع والقبيلة، لكنه وجد ذاته تسبح في ملذات الدنيا، فعاش حياة مليئة بالبذخ والترف واللهو، معتقدا هذا بداية نجاحه في الحياة، أن عيش لذاته ولأجل ذاته، مرضيًا رغباته النفسية.

يسعى طرفة إلى عيش حياة مفعمة بروح الإرادة، ليتوحد مع ناقته في رحلة قصصية شيّقة في بيئة صحراوية جبلية، تجلت في هذه القصيدة، وذلك عند تحليل رموز الناقة ودلالاتها التركيبية، التي رسمها في أبيات شعره، فأحدث لنا تفاعل حي يبرز توحده مع الناقة، «فهي ليست وسيلة نحو هدف مرسوم، أو قصد مخطط له، بل هي منبع أحاسيس ومشاعر، بل هي الذات نفسها»[2]

أفرط طرفة في وصفه للناقة، وإسهابه في هذا الوصف المشتمل على رموز دلالية عميقة يجعله ينطق باعتراف صادق على أهمية الناقة في حياته، والمكانة التي تحتلها في جوف نفسيته المقهورة، ووجدانه المتألم، جعله يتَّحد مع الناقة روحيا ونفسيا، ليصيرا كيانا واحدًا، جمعته بيئة واحدة، وظروف متقاربة، فيبدو أن طرفة يعيش حياة مليئة بالهموم والأحزان كبحت سعادته، يقول:

وَإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي

أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَسَأْتُهَا عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ[3]

يعيش طرفة حياة مليئة بالمآسي والأحزان، مما جعله يؤكد ذلك في قوله:إِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ، بحرف التوكيد "إن"، فيحاول تجاوز أشجان القلق والأسى، فيمضي إلى تناسيها من خلال ناقته التي تخفف عنه، عناء الحياة

---

[1]- طه حسين: حديث الأربعاء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،(د ط)، (د ت)، ص67.

[2]- حسن مسكين: الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة، ص 95.

[3]- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص 52.

وأحزانها، فإذا بطرفة يتجه صوب ناقته العوجاء، التي تأقلمت مع حياة السير الطويلة والتّرحال الدائم، وسط الفيافي وامتداداتها القاحلة، فيندهش طرفة من سرعة سيرها بنشاط كبير، كدلالة رمزية عن الحركة والنشاط والسرعة على تحمل مدة السير الطويلة أثناء الرحلة.

انغمس طرفة في وصف عميق للناقة، وأشار إلى كل عضو من أعضائها بتشبيهات مختلفة، ممّا جعلنا نستشعر خفايا الرموز الباطنة، التي جاءت بألفاظ فتحت أمامنا باب الغموض في شعره، زاد المعنى تعقيدا وإغرابًا في صورة الوصف للناقة، أضفى على خطاب نصه الشعري بلاغة وجمالا، لكثرة استعماله للتشبيهات والاستعارات، فيصف ناقته بالعوجاء المرقال كرمز لشدّة التحمل والصبر على السير الدائم، وفي الوقت ذاته يحيلنا طرفة في وصفه، إلى اطمئنانه وارتياحه الكبير لحظات ركوبه الناقة، وكأنّ الشاعر يشعرنا بفقدانه إلى الأمن والاستقرار في عالم البشر حيث يتواجد بين قومه وقبيلته، لكنه يتذوق طعم الطمأنينة والهدوء رفقة ناقته.

نرى أن طرفة يركز بشكل كبير على إبراز المكونات الجسمية للناقة، واصفا تركيبها الفيزيولوجي الذي يخالط تركيبها النفسي والروحي، فيندمجان معا بقوة خيالية تفوَقَ الشاعر في رسمها بريشة خياله، فأعطى صورا للناقة انسجمت وتوافقت بصدق مع كيانه النفسي والعاطفي.

بعد مرحلة ركوب الناقة يتأمل طرفة تراكيب جسمها بدقة، وعند زجره لها وهما يسيران معا في طريق الصحراء الوعرة، يشبه عظام جنبيها بتابوت كبير، في قوله: "أمون كألواح الإرانِ"، هذا يظهر مدى سعة خيال الشاعر في وصفه أعضاء الناقة، مخترعا لها تشبيهات ملائمة، فعظامها كالألواح الإران، فيستعمل أداة التشبيه الكاف ليشبه ناقته مباشرة بالتابوت الكبير، كما شبه الطريق التي يسيران عليها، بظهر برجد أي الثوب المخطط، لتكتمل صورة الناقة مع طريق الصحراء كرمز للقوة والتحمل والصبر والاستمرار، وفي كلمة "أمونٍ" التي توحي في معناها إلى الأمن وبالأخص اطمئنان الشاعر لناقته، يشير بها إلى رمز الأمان والاستقرار، الذي أحسه الشاعر في ساعة ركوبه الناقة، فشعر خلالها بحالة من الهدوء والراحة والاطمئنان، لتعتبر الناقة رمز الاحتماء والاحتواء بالنسبة للشاعر هذا ما أراد إيصاله خلف هذه الرموز، فالناقة احتوته واحتضنت معاناته وأسراره، بروح تغلي فوق نار الصبر والتحمل والصمود أمام الصعاب .

وناقة طرفة «نشيطة في سيرها، ينقد بها صاحبها همه، مأمونة العثار، قوية العظام، تشبه الجمل ضخامة واكتناز لحم»[1] ويصفها قائلا:

[1]- أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص132.

جَمَالِيَّـةٍ وَجْنَـاءَ تَـرْدِي كَأَنَّهَـا سَفَنَّـجَـةٌ تَبْـرِي لأَزْعَـــرَ أَرْبَـــدِ[1]

يشبه ناقته بالجمل من حيث قوتها وصلابتها وضخامتها، وقدرتها على مواجهة صعاب السير في طرقات الصحراء الصعبة بسرعة ونشاط، فكان طائر النعام أحسن ما يشبه ناقته، في نشاط سرعتها، وبالتالي الناقة من هذا الجانب رمز السرعة والنشاط والقوة، من حيث امتلاء جسمها واكتناز لحمها الذي زادها قوة وقدرة على السرعة، «كأنها نعامة تباري العتاق النجيبات، ترعى أيام الربيع، وذلك سر عافيتها واكتناز لحمها، زكية القلب والجنان»[2]

أكثر الشاعر من التشبيهات البلاغية، التي تلاءمت مع حركة الناقة وسلوكها، والتي يبرز من خلالها اندهاشه الكبير من سرعة ناقته، وكأنها تسابق إبلا عتاقًا، لتصل قبلهم إلى خط نهاية السباق، فيبدع طرفة في هذا الوصف بقدراته الخيالية، بلغة شاعرية، معتمدا على لغة الغموض والإدهاش فيقول:

تُبَارِي عِتَاقًـاً نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَـتْ وَظِيفًـا وَظِيفًـا فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعبَّـدِ[3]

وجاء هذا البيت كرمزية لسرعة الناقة وصلابتها، وصمودها بروح صابرة رغم طول الطريق.

ويستمر الشاعر مع وصف فيزيولوجي للناقة، حيث تطرق إلى قوة عظم ساقها ورجلها، قائلا: "وَظِيفًا فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعبَّـدِ"، كرمز للقوة والصلابة.

لخص طرفة في رحلة وصف الناقة مشهدًا تصويريًّا ممتلئًا بمعاني رمزية دلالية موحية، تمخضت من ذاتية الشاعر ونفسيته، فكانت الناقة في مرحلة حركتها، تمتاز بالقوة والسرعة والصبر والمواجهة والاكتناز، من حيث سماكة جسمها وصلابته، هذا الذي تولد عنه سرعة ونشاط في السير والعدو.

انتقل بنا الشاعر إلى مشهد تصويري آخر، يمثل مرحلة سكون وارتياح الناقة، بعد سفر شاق أنهك أعضاء جسمها، وأصابها بذلك جوع شديد، لأنها قطعت مسافة طويلة لا يقوى أي أحد على تحملها، فيقف قائلا:

تَرَبَّعْتِ القُفَّيْنِ فِي الشَّـوْلِ تَرْتَعِي حَدَائِـــقَ مَوْلِـيَّ الأَسِـرَّةِ أَغْـيَـدِ[4]

يصف طرفة ناقته وتصرفاتها الحسية والمعنوية، فقد اختارت المكان المناسب لترتاح فيه من تعب السير، وأشار إلى اسم المكان الذي تربعت فيه، قائلا: "في الشول" ترتعي وهو مكان الرعي المرتفع، الذي تكتسيه

---

(1)- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص 53 .

(2)- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص132.

(3)- الزوزني شرح المعلقات السبع، ص53

(4)- م ن، ص ن.

أعشاب أحياها ماء المطر، فاستحسنت الناقة هذا الموضع فتربعت فيه لترعى بهدوء هذه الأعشاب بنكهة المطر، لشدة جوعها من السير الطويل، ويبرز لنا خيرات هذا المكان وجماله، كدلالة توحي إلى أن الناقة تمثل رمز النقاء والبقاء والحياة، من خلال تركيزها على الأكل، تلبية لحاجياتها الروحية والبيولوجية، فالماء هنا يخفي سر الحياة الذي أراده الشاعر، لتكون الناقة من هذا المنظور رمزا للنماء والخصب واستمرارية الحياة، هي رموز فنية جاءت بألفاظ غريبة، ذلك أن وصف الناقة «من حيث قوتها وضخامتها وإرقالها وطول عنقها وغلظ سنامها، كل هذه الصفات تحتاج إلى الألفاظ الغريبة»[1]

يكشف لنا طرفة دور الناقة ووظيفتها في عالم الحياة برضى تام، يوحي بوصفه إلى إيمانها القوي بقضاء الحياة وقدرها، في المقابل يجعل الشاعر من الناقة معادله الموضوعي الذي يعكس رؤيته للحياة، فطرفة بذاته يبحث عن دوره في هذا العالم المخبأ بالأسرار، وعند تأمله الدقيق لناقته وسلوكاتها يستحضره تساؤل في ذهنه عن الدور الذي ينبغي أن يؤديه، وما السبب الذي يعيش لأجله؟ هي تساؤلات وجودية فلسفية كونية، تعكس إيديولوجية الشاعر، وأفكاره الوجودية، التي تحمل رؤى ميتافيزيقية، تحاول أن تطل على العالم المفقود، استدعت منه رسم صورة فنية للناقة في لحظات جوعها، وتوجهها إلى مكان الرعي، وكأنّها تعِي محطات حياتها بإدراكها لأحاسيس وميولات صاحبها، مثلا: مرحلة بداية سفرها قاطعة المسافات الطويلة، ومرحلة إعطاء جسمها حرية الراحة والأكل، فتربعت على أرض خصبة لترتاح، حتى لا تصاب بالضعف والانهيار، لتتمكن حينها من الرجوع للمرحلة السابقة، وهي مرحلة الحركة واستمرارية السير مكملة طريق رحلتها، والناقة عند طرفة تحافظ على وجودها واستمراريتها من أجل البقاء، هذا خلق أثر نفسي للشاعر، فسلوك الناقة له أثر قوي على حياته، جعله يقرر على الالتزام بفرض وجوده وتحقيق بقائه، مما جعله يعيش حالة قلق نفسي، وتكاثرت الأسئلة في ذهنه، هي تساؤلات غيبية نابعة عن شعور القلق والارتعاب من المستقبل، تبحث عن تفسيرات للعالم المجهول، وبالتالي اتخذ من الناقة قدوته في الحياة ليكمل معها طريقه المجهول، ربما يجد في طريقه أجوبة لتلك التساؤلات الغيبية التي استفزت ذاته وتفكيره عموما، «فالشاعر يناجي الناقة، ويصغي إلى شكواها، ولعل ذلك شعور عام لدى الشعراء الجاهليين بالنسبة لوصفهم للحيوان»[2]، هكذا هي علاقة طرفة مع ناقته صراع من أجل الحياة ، و محاولة تحرير الأنا الداخلي من شبح القلق والخوف من الحاضر والمستقبل المجهول.

---

[1]- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص143.

[2]- م ن، ص ن.

الناقة تنقاد لصاحبها وتخضع لأوامره وإرادته، ويبدو أن طرفة منبهرًا من ليونة الناقة رغم تعبها الشديد، يقول في هذا البيت:

تَرِيْـعُ إِلَى صَوْتِ المُهِيْبِ وَتَتَّقِي بِذِي خُصَلٍ رَوْعَاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ[1]

في هذا البيت كلمات مفتاحية تكسو طابعا شعريا رمزيا، يوحي بالعمق النفسي للذات الشاعرة، التي تتجنب التصريح والمباشرة وتميل كل الميل إلى تعمد الوقوع في الغموض والتعقيد بعيدا عن الشفافية والوضوح.

يصف طرفة بلغة شاعرية ذات طابع رمزي، طاعة هذه الناقة واستجابتها لأوامر مالكها، حيث صنفها ضمن طائفة فحول الإبل التي يميل لونها إلى السواد من شدة حمرتها – بذي خصل روعات أكلف – هنا يعكس الشاعر شعوره بالخوف وارتعابه من المستقبل المجهول على الناقة، مشيرا إلى خوفها وخشيتها من الخطر، في قوله: "روعات أكلف ملبد"، مما جعلها تلتزم الطاعة والخضوع لسلطة صاحبها، فجاءت الناقة في هذا المشهد رمزا لليونة والهدوء والخضوع والطاعة.

يستشعر المتلقي أو القارئ خوف الشاعر الذي يعيش داخل هواجس مليئة بوساوس الخوف والرعب، اتضحت في طريقه قاطعًا المفاوز العظيمة، متجاوزا بروح المغامرة شرارة الخطر، باحثا عن طريق النهاية، حيث تكمن رغبته الوجودية، في عالمه المنتظر، ويبقى هاجس الخوف طاغيًا على أحاسيس طرفة ومشاعره، محاولا الانفصال بجسده عن هذا اللباس الضار، ثوب الخوف من المجهول المحتوم.

أسقط طرفة هواجس الخوف على الناقة، لأنها تتوحد معه وجوديًا وشعوريًا، فيرسم بلغة فنية بواسطة ألوان رمزية تشير إلى تصرف الناقة، التي تعكس بسلوكاتها المختلفة الباطن النفسي للشاعر، وخفاياه في ردة فعل الناقة.

ويكمل طرفة وصفه في إبراز التفاصيل الدقيقة للتراكيب الجسمية للناقة، فجاءت مختلطة بمعاني روحية، تغلفت بصفات رمزية بلغة شاعرية، تبرز أدبية النص الشعري، بتراكيبه اللغوية والفنية، وفي وصفه للناقة يحاول أن يكشف التفاصيل العميقة لحياته التي كان يعيشها، والتي تبدو كما يرى طه حسين أنّها «لم تكن حياة جد مظلم، ولا حياة لهو مفسد للنفس، وإنّما كانت مزاجا معتدلا من الجد واللهو، ومن العمل والفراغ، كانت مقسومة قسمة عادلة بين ما ينبغي لقومه، وما ينبغي لنفسه من الحق عليه»[2]

[1]– الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص54.

[2]– طه حسين: حديث الأربعاء، ص76.

ومازال طرفة يخلق تشبيهات جمالية، لأعضاء ناقته، ليشبه ضخامتها وكبر حجمها بأحد الطيور الجارحة، فكان النسر من كواسر الطير مشبها به الناقة، هذا يرجع لشدة اندهاشه من ضخامة جانبيها وعظمتهما فهما كجناحي نسر كبير، يقول :

كَـأَنَّ جَنَـاحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَـا حِفَافَيْهِ شُكَّا فِي العَسِيْبِ بِمِسْـرَدِ[1]

إن هذه الناقة لشدة ضخامتها وارتفاعها، وكبر جانباها، كأنّهما جناحي مضرحي، هذا هو التشبيه الظاهر أو المرئي الذي أراده الشاعر، أمّا المعنى الخفي وراء هذا التشبيه العلني، نجده يحمل معاني رمزية دلالية، تجلت في عظمة هذه الناقة وشهامتها، وبقاءها قوية محافظة على اكتنازها، وتناسقها، رغم صعوبات الحياة وظروفها، إلا أنّها بقيت صامدة من أجل مجابهة مسالك الحياة المجهولة، لتكون الناقة رمز القوة والحركة والصلابة والضخامة، والصبر على تحمل قساوة مناخ الصحراء، وخشونة أرضها، هذا ما زاد الشاعر شجاعة وإرادة وعزيمة على إكمال طريق رحلته، محافظا على قوة كيانه الروحي، ليواجه أعداء الحياة بكامل شجاعته.

رأينا أن طرفة انتبه إلى إبراز جميع التفاصيل التركيبية لناقته، وأعضائها الفيزيولوجية، التي كل عضو فيها يشغل وظيفة حياتية معينة، لتتكامل مع بعضها البعض بقوة روحية، تتسم بالصبر والتجلد في مواجهة حواجز و عراقيل الحياة في اتحاد أعضائها مع بعض ، هكذا طرفة يحاول أن يتّحد مع ذاته بجمع شتات أفكاره ويقضي على وساوسه المرتبطة بالعالم المجهول وتساؤلاته الغيبية، من أجل تحقيق ذلك الارتياح الداخلي والاطمئنان النفسي الذي أصبح جزءا من أحلامه.

ويركز طرفة على تصرفات الناقة وردود أفعالها، أثناء الرحلة قاطعة معه مسافات طوال، حتى أنّها تضرب بذنبها يمنة ويسرة، وهذا التصرف إشارة واضحة إلى حالة الملل الداخلي والضجر الذي أصاب الناقة، جعلها تضرب بذيلها الراكب الخلفي وأحيانا تضرب ضرعها الذي شبهه بالقربة الجافة، لأنّ اللبن انقطع منها ليقول:

فَطَوْراً بِهِ خَلْـفَ الزَّمِيْـلِ وَتَـارَةً عَلَى حَشِفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُـجَدَّدِ[2]

في تشبيهه هذا، يخفي الشاعر دلالة رمزية عابرة، تمثلت في الجانب النفسي المضمر، فهو يشعرنا في قوله، أنه يعيش حالة اضطراب داخلي قوي ، وقلق حاد، وضجر نفسي شديد، عكسه على تصرف الناقة التي أخذت تضرب بذيلها يمينا ويسارا، لتخفف من أزمة القلق الباطني، الذي تمر به في أوقات سيرها، وشدة مللها من طول الطريق الذي لا ندري نهايته.

---

[1]- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص55.

[2]- م ن، ص ن..

ويستمر الشاعر على إكمال رسم لوحته الفنية داخل نسق النص الشعري، فيشير في رسمه إلى أن هذه الناقة مكتملة الخلقة حسنة المظهر، فيصف اكتناز فخذيها، وكبر حجمها وارتفاعها، بالباب الكبير العالي، كعلو هذه الناقة، كرمزية للقوة والضخامة والبقاء كما تعتبر رمز الكمال، يقول:

لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيْهِمَا كَـأَنَّهُمَـا بَابَـا مُنِيفٍ مـُمـــرَّدِ[1]

وينتقل بنا طرفة بجزالة ألفاظه وأسلوبه الرّصين، إلى وصف فقرات ظهر الناقة وتراصها ترتيبيا وراء بعضها البعض، حيث استحضر في ذهنه صورة القوس مباشرةً، ليشبه به انحناء أضلاع ظهرها، فجاءت متلاصقة ببعضها البعض مع عنقها، وأعطى بذلك لكل عضو منها حقه الكامل من الوصف والإبداع، فأشار إلى «فخذاها مثل بابي قصر منيف، وفقرها متراصفة، فكأنها القسي المتداخلة، ومرفقاها قويان، حتى كأنّهما سقاء يحمل دلوين تحت إبطيه، فبدت أضلاعه»[2]

فطرفة أبدع في خلق مشهد حسي بصور فنية، رصدت شكل الناقة الفيزيولوجي والروحي، مبرزا عظمة خلقتها، بلغة شعرية، جاءت بأسلوب قصصي تصويري زاد نصه جمالا وإبداعًا.

وتعتبر الناقة حسب تصوير طرفة لها، رمزا للبقاء والكمال وتحمل الشدائد، وحب الحياة والحفاظ على البقاء، هي رموز تحوي دلالات عميقة، مختبئة داخل أغواره النفسية، أحاطها الشاعر بخياله الفني وأخرجها في ألفاظ وتراكيب لغوية رمزية.

ويقول طرفة:

كَأَنَّ كِنَاسَيْ ضَالَـــةٍ يَكْنُفَانِهَا وَأَطْـرَ قِسِـــيٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّـــدِ[3]

فهو يبرز انعطاف قسيها، أي ضلوعها التي تمتاز بالقوة والصلابة، تحت صلبها المؤيد أو القوي، بهذا الوصف يؤكد على رمزية القوة والصلابة للناقة.

بقي طرفة غارقا في إعطاء تفاصيل ناقته، مشبها مرفقاها بالحبل الدّالج المركب في عروة الدّلو، فهما مفتولان كحبل هذا الدّلو، ويقول:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَـمَ رَبُّهَـا لَتُكْتَـنَفَنْ حَتـَى تُـشَـادَ بِقَـرْمَـدِ[4]

(1)- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص55.

(2)- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص133.

(3)- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص56.

(4)- م ن، ص ن.

يشبهها بقنطرة الرومي في علوّها وارتفاعها، التي أقسم الشاعر ببناء مثلها، من حيث علوّها بالآجر، دلالة على روح الإرادة القوية، و جرأته على المواجهة، فيتضح لنا إصرار الشاعر من إصرار ناقته ، على السير بحثا عن ذاته، ليفرض وجوده بعيدا عن قهر المجتمع، وقسمه هذا له دلالة تخفي قوة العزيمة والإصرار التي يتحلى بهما الشاعر.

ويشير إلى ناقته بأدوات رمزية لها أبعاد إيحائية عميقة، داخل أنساق النص الشعري، يقول:

صُهَابِيَّةُ العُثْنُونِ مُوْجَدَةُ القَــرَا بَعِـيْـدةُ وَخْـدِ الـرِّجْـلِ مـوَّارَةُ اليَــــدِ[1]

عثنونها صهبة تميل إلى الإحمرار، وهي ناقة قوية لما تحمله من أثقال في رحلتها، في قوله: وخد الرّجل، كرمز السرعة والنشاط في السير.

أما في قوله:

أُمِرَّتْ يَدَاهَافَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ لَـهَـا عَضُـدَاهــَا فِي سَقِيْــفٍ مُسـنَّـدِ
جـنُوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَـتْ لـهَـا كَتِفَـاهَـا فـِي معُـالَى مُصَعَّــدِ[2]

وهو بذلك يصف سير هذه الناقة التي تتمايل في مشيتها من شدّة التعب، لكنها بقيت محافظة على حجم سرعتها، ودرجة نشاطها، لتبقى الناقة رمز الحيوية والنشاط والسرعة الدائمة لتخطي الفيافي والقفار.

حرص طرفة من خلال وصفه للناقة، على بعث إيحاءات رمزية خاصة، انبعثت من أعماق مشاعره النفسية التي تعيش في حالة صراع حاد، تتخبط بين دفتي الموت والحياة، بحثا عن إجابات تقنع تساؤلاته حول عا لم الغيب والمصير المجهول، التي بقيت ملتصقة بذهنه حتى يعثر على أجوبة ترضي قناعته، ممتطيا سبُل التّرحال بحثا عن سر الوجود.

---

(1)- الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص57.

(2)- م ن، ص ن.

2- رمزية الفرس:

حظي الفرس في شعر طرفة بن العبد، بمكانة مميَّزة ومتفردة عكس فيها أحداث حياته وشخصيتة البطولية، برموز دلالية أظهر من خلالها جوهر العلاقة الرُّوحية والفنية التي تربطه بالخيل، واصفا إيَّاه بتصويرات فنية ذات منحى خيالي، تبدو أكثر واقعية لأنها تتوازى مع تجربته الحياتية والنفسية التي عاشها طرفة، وتُظهر مدى التقارب النفسي والرّوحي مع الخيل، فنجده يعمل على نسج صفاته الفيزيولوجية –كما فعل مع الناقة – بصفات فنية مبرزا أسس الارتباط العميق، بوصف وافٍ جاء مفصلا لجميع سلوكات الخيل وردود أفعالها في مواقف مختلفة التقت بالشاعر، في إطار بيئة اجتماعية صحراوية تماشت مع هذا الوصف، الذي اختزن داخل ألفاظه مدلولات رمزية بإشارات مختلفة أحاطت بحيثيات بنية نصه الشعري، الذي تزيَّن بصور بديعية وبيانية تدفقت منها القدرة اللغوية والبلاغية لشاعرية طرفة؛ إذ تفنن في رسم لوحة شعرية للفرس لونت أجزاء القصيدة في سياقات مختلفة تحتاج إلى وعي المتلقي وفطنة خياله، لينجح على تفكيك خلفيات ومرجعيات تلك الرموز المتعلقة بوصف الفرس.

وأشار طرفة إلى الفرس في مواضع كثيرة اقتضتها ظروف معينة، ومواقف بسياقات عديدة استدعته إلى التقاط صور للخيل بألوان فنية، تعكس عقلية البيئة الصحراوية، ويرسم لنا طرفة لوحة عن فرسه فيقف بالتفصيل عند مختلف الملامح والتفاصيل الصغيرة والكبيرة المتعلقة بجسده، ليلج بعدها إلى أحواله النفسية، معرِّجًا على مختلف المحطات المتعلقة بذلك.

قد أفضى طرفة في قصيدته الميمية واصفا الخيل، ببراعة لغوية فائقة كشفت عن رقيّه الفني والشعري والبلاغي، أبرز فيها مقدرته الخيالية على إعطاء أبعاد رمزية جاءت بتشبيهات بلاغية، في وصف تفصيلي للخيل حيث يقول:

وفُحُولٍ هَيْكَلاتٍ وقُحٍ أعوَجِيّاتٍ، عَلى الشّأوِ أُزُمْ
وقَناً جُرْدٍ، وخيْلٍ ضُمَّرٍ شُزَّبٍ، من طُولِ تَعْلاكِ اللُّجُمْ
أدَّتِ الصَّنعةُ في أمتُنِها فَهْيَ، من تحتُ، مُشِيحَاتُ الحُزُمْ
تَتّقي الأرْضَ بِرُحٍّ وُقُحٍ وُرُقٍ، يَقْعَرْنَ أنْبَاكَ الأكَمْ
وتَفَرَّى اللَّحمُ مِنْ تَعْدائِها والتَّغَالِي، فهيَ قُبٌّ كالعَجَمْ
خُلُجُ الشّدِّ مُلِحَّاتٌ، إذا شالتِ الأَيْدِي عليها بالجِذَمْ

قُدُماً تنضُو إلى الدَّاعي، إذا خَلّلَ الدّاعي بدَعْوَى، ثــمّ عَـمّْ
بِشَبـابٍ وكُـهُـولٍ نُــهـدٍ كليـوثٍ بيـنَ عـرِّيـسِ الأجَـمْ
نمسِكُ الخيلَ على مكروهِهَا حيـنَ لا يُمسِـكُ إلاَّ ذو كَـرَمْ[1]

ألم طرفة بذكر تفاصيل فرسه، محيطا بجميع جوانبه الداخلية والخارجية بصورة تمثيلية وتشبيهية، عمد من خلالها إلى استبطان الأعماق النفسية للخيل، مخترقا نطاق اللاّشعور متجها إلى مزجه بالمواصفات التكوينية، مُظهرا تقريبا جميع أجزائه التركيبية بوصف دقيق تعتليه سمة الغموض والتعقيد والإبهام، بألفاظ رمزية تلاعب طرفة على نثرها أو بسطها على أبيات القصيدة، بصياغة أدبية ولغة راقية تبرز مقدرته البلاغية والفنية على التصوير، من خلال توظيف الصور التشبيهية والتخييلية للفرس، والتدقيق فيها على شكل إيحاءات رمزية، اختزنت في جوف المكونات الجزئية التي عرضها طرفة وفصل فيها بإطناب وغُلوٍّ.

في هذه الأبيات الشعرية ينتصر طرفة بخياله الفني الواسع، على تقديم أوصاف حية للمكونات الجسمية للخيل، في قالب رمزي خالص اصطبغ بمشاعره وأحاسيسه الملتوية، مفضيا في حديثه عنها بشكل نمطي، تكرر عند كل جزء من أجزاء شعره، كغيره من شعراء الجاهلية، فمثلا نجد الشاعر "امرؤ القيس" «بعد أن يصور همومه الحالمة على صدره، وليله الحالك الظلام، يتحدث عن فرسه العجيب الذي ينتشله ممّا فيه إلى آمال كان الشاعر يتمنى أن تتحقق»[2]، هكذا طرفة هو أيضا ابتدأ الحديث عن همومه وأحزانه التي لا تزاح إلا باللجوء لناقته، ثم بعد ذلك ينطلق في وصف الخيل بصورة تبعث بالحركة والحياة، تكشف عن الأثر القوي الذي تركه الخيل أو الفرس في نفسيته.

ينطلق الشاعر في رسم التركيبة الجسمية للخيل، ليُلِمَّ تقريبا بجميع أنواع أجزائه الخارجية، ويرصد ذلك بأوصاف فنية ذات بعد رمزي تشير إلى توحد الشاعر مع فرسه عبر رموز تفتح باب الغموض والتعقيد، لكنها تظهر قدرة أو براعة طرفة على التلاعب بالألفاظ داخل نسق نصه الشعري، ليمنح موضوعه بعدًا نفسيًّا، ضمن سياق اجتماعي بيئي يُتيح للقارئ فرصة فهم وتأويل التركيبات الرمزية داخل النسق الشعري، والعمل على تفكيك مدلولاتها ورصد إيحاءاتها و إصابة المعنى الحقيقي لتلك الرموز.

يبدو أن الفرس محل اهتمام كبير لدى الشاعر، فهو يعزز من وجوده ويعلي من شأنه، فتتبين لنا طبيعة العلاقة التي تربطه بفرسه، لنجده غارقا في وصفه مضفيا عليه نزعته الإنسانية التي زادت من أهمية وصفه وعمق

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 117-121.
[2]- مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص139.

رموزه بالتحديد، لأنها اندمجت مع مشاعره الذاتية والحسية زادت من سماكة نسقه الشعري وتركيباته اللغوية التي تغتني برموز دلالية لمعاني الفرس.

يقول طرفة واصفا ضخامة الخيل:

وفُحُـولٍ هيكَـلاتٍ وُقُـحٍ أعـوَجِيّـاتٍ، عَلـى الشّـأوِ أُزُمْ

وقَنـاً جُـرْدٍ وخيْـلٍ ضُـمَّـرٍ شُـزّبٍ، مـن طُـولِ تَعْـلاكِ اللُّجُمْ[1]

هذه الخيل من الفحول من حيث ضخامة عظمها، وصلابة حوافرها، التي صارت كالرّماح الملساء في قوله: "وَقَنـاً جُـرْدٍ"، شبهها بذلك لكونها اعتادت على ديمومة السير وقطع المسافات الطويلة، والعدو مسرعة في الحروب أو في رحلات الصيد، ويدل على ذلك حوافرها الصلبة التي تنزلق مع سطح الأرض، وكأنّها مهيّئة لمقاومة صلابة وخشونة الصحراء بصلابة حوافر أرجلها بحيوية وصرامة، دلالة على شدة التحمل ومواجهة عنف الطبيعة القاسية.

يتضح وراء هذا التشبيه دلالة خفية وعميقة للفرس، الذي يعتبر رمزا للضخامة والصلابة واستمرارية الصمود والمقاومة أمام قوة الطبيعة الصحراوية وقساوتها.

ويثبت الشاعر أن هذه الخيل ضامرة شزّب أي نحيلة، لأنّها تستعمل كثيرا في حالة الحرب التي يمجدها الإنسان الجاهلي، ولا يليق بها إلا فارسًا شجاعًا يركبها بفخر واعتزاز كدلالة رمزية على الرشاقة والشجاعة والنشاط في السير والعدو، فجعلها ذلك محافظة على تفاصيلها الجسمية، التي رسمها الشاعر بتشبيهات مدهشة، تشير إلى طبيعة التوحد بينه وبين الفرس، ويدل على ذلك لغة الوصف من خلالها مزج أحاسيسه وخباياه النفسية مع النواحي التكوينية، التي أطنب في وصفها بلغة شاعرية اكتستها رموزا تعبيرية إيحائية تميل إلى الغموض داخل بنية أو نسق النص الشعري.

ويفضي الشاعر في وصفه للخيل متتبعًا تفاصيلها الفيزيولوجية، ومكوناتها الجزئية بدقة بالغة، هذا يحضر عند كل شاعر جاهلي في أغراض مختلفة، و«في وصف الفرس أو الخيل عامة لامل الشاعر تتبع بناءها الجسمي ضامرة ومكتنزة بتفصيل ودقة، ترتسم في ظلهما الملامح المثالية للأصالة والجمال»[2]

أسهب طرفة في وصف تفاصيل الخيل الجسمانية والرّوحية، التي تركت فيه أثرا قويا في سلك الحياة القاسية، فأطلق على أوصافه رموزًا تحتمل معاني دقيقة تبرز توحد الشاعر مع الخيل، الذي يمثل وسيلته المثالية في عبور طريق

---

(1)- طرفة بن العبد: الديوان، 119.

(2)- صلاح رزق: الشعر الجاهلي السياق والملامح أهم القضايا، أبرز الأعلام، ص195.

المجهول، من أجل تحقيق رغباته الذاتية التي أسقطها على الخيل، الذي يعكس حالته الوجودية الحاضرة في سعيها نحو الوصول إلى طموحاته وأحلامه التي يتشوق للقائها برغبة كبيرة ويطمح لبلوغها.

ويبقى طرفة مستمرا على إدهاشنا متممًا في وصفه الأعضاء الخارجية للفرس، وصحتها وقوتها، يقول طرفة:

أدَّتِ الصنعـةُ فـي أمتُنِهـا فَهْيَ، من تحتُ، مُشيحاتُ الحُزُمْ[1]

لمّح لنا إلى تقاليد العرب في تربية الخيل واعتزازهم بها، وحرصهم على إطعامها وسقيها الماء، فالعربي كان يؤثر جواده على عائلته وتفضيلها عنهم وعن نفسه، وهذا مظهر من مظاهر اعتزاز الشعراء العرب بالخيل، وطرفة يتلاعب بذكاء داخل أنساق النص في إطلاق رموز متنوعة تشير إلى الخيل، عبر تراكيب لغوية تستند إلى قانون التّضاد، فتارة يصفها بالضمور وتارة أخرى يصفها بالاكتناز.

وفي هذا البيت نلاحظ أن الفرس تتلقى عناية كبيرة من صاحبها، ويظهر أثر هذا الاهتمام، في اكتنازها باللحم في أمتنها أي ظهرها وجانبيها، فكانت أعضاءها متناسقة تناسقا تاما، في أجمل منظر وأبهى طلعة، وهذا راجع إلى العناية التي يحظى بها الخيل، ليصير رمزا للجمال والأصالة والكمال والرشاقة ويظهر ذلك في قوته ونشاطه، وتميزت هذه الخيل بمتانة مفاصلها، وارتفاع قوائمها وضمور بطنها، فهي من تحت مشيحات حزم.

والشاعر في سياق نصه يستوحي عناصر القوة والصلابة التي يمتاز بها الفرس، ليشحن ذاته الداخلية بتلك الصفات التي استغرق فيها، ويُظهر لنا بصورة غير مباشرة أعماقه اللاّشعورية، ليعود الأمر إلى ذكريات الأنا القديمة التي عاشها الشاعر، حيث أنه يفتقد إلى الرعاية الكاملة وحنان الأبوة التي حرمته الحياة منها، لذلك نجده يبحث عن التعويض في الفرس، لأنه عاش طفولة معذبة مشتاق في وقتها إلى من يرعاه ويعتني به، فعاش حياة التشرد والضياع، ولعله يحسد الفرس لأنها وجدت من يحرسها ويرعاها، على خلاف حظه التعيس حيث سلبته أقدار الحياة الشخص الذي كان سيحافظ عليه ويعتني به ويتكفل بمسؤوليته، فبث طرفة مشاعره الإنسانية في صفات الخيل، على شكل رموز تجسدت في مواصفاتها الجسمية والروحية طغت عليها نفسية الشاعر، التي تطفو بلغته الفنية في بنية النص الشعري، فزادت من سماكة شاعريته وبلاغته، وقد حاول من خلال هذه التشبيهات البلاغية إرسال الأنا الداخلية المتضررة من مصائب ونكبات الزمن، بطريقة غير مباشرة في أنساق النص الشعري، فارتدت رموزا تشكلت بإيحاءات ضبابية بعيدة عن الشفافية، عقدت المعنى وأبعدته عن الوضوح، لتحمل أبعادا دلالية يَسِمُها الغموض والإبهام.

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص120.

وجاء في عجز البيت "من تحت مشيحات حزم" رمزية لسرعة الخيل في سيرها وعدوها، كما يحيل إلى رمز الأصالة والجمال لصفة الخيل.

مدلولات هذه الرموز جاءت تحمل معاني الشموخ والشهامة، للخيل أو الفرس، وطرفة من هذا المقام يسعى إلى تحرير ذاته من أي سلطة تعلوه، ليخلق شخصية مستقلة تنبع منها روح الشهامة، والشجاعة التي استوحاها من صورة الفرس، الذي لا تسقطه طعنة الهزيمة في المعارك والحروب، ليسير طرفة على خطى وصفه الصادق، فيحاول على إثره لم شتات حياته المبعثرة التي أقلقها جو المجهول، وفق رموز خيالية تجلت بسياقات مختلفة، تهدف من خلالها إلى بعث طموحاته وأهدافه الخيالية متجاوزا نطاق المجهول مع فرسه، ليصلا معا إلى أحلامه في عالم جديد غير عالمه الحقيقي الذي يحاول أن ينسلخ منه بكامل إرادته، ليحرر ذكرياته من ماضيه الأسود، التي هدمت عالمه الطفولي ليتوحد بكيانه مع المكونات الروحية والجزئية المشكلة للخيل، بوصف دقيق تعتليه تشبيهات تشرق برموز فنية تَدُس داخل بنية النص حيوية وحركية تامة تجملت بها أبيات القصيدة التي تميل إلى غرض الفخر.

وغالبا ما يرتبط وصف الخيل بغرض الفخر كرمزية للشجاعة والانتصار وعدم الخضوع، ليمتزج طرفة مع صفات الفرس بمشاعره الحسية، و«يتجسد امتزاج الشاعر بفرسه من خلال إحساسه بما يكابده الفرس من عناء ومشقة، وهو إحساس يقدمه الشاعر من خلال بثّه للمشاعر الإنسانية في فرسه»[1] مثلما فعل طرفة.

من المدهش أن نجده يخلق لنا بوصفه الذي تتخلله تشبيهات كثيرة، تكاملا فنيا بروحه الحسية، لصورة الفرس المعنوية، مشيرا إلى جزء آخر من أجزائه التكوينية، لنجده ينتبه في تصويره إلى حوافر الخيل الصلبة، ليقول:

تَتّقي الأرْضَ بِرُحٍّ وُقُحٍ وُرُقٍ، يَقْعَرْنَ أنْبَاكَ الأكَمْ[2]

يصف لنا حوافر الخيل بالصلابة، معتبرا أن صلابة وقساوة الأرض الصحراوية الجافة، لا يليق بها إلا حوافر صلبة حتى تستطيع الخيل مقاومة مناطق الصحراء الحارة والخالية، لتتكيف معها بقوة وصمود إذ تتطلب حوافر قوية صلبة، هذا المعنى الظاهر لتشبيه طرفة، أما مراده الخفي وراء هذا التشبيه الذي يمثل المعنى الخفي والمضمر داخل نسقه الشعري هو أن الشاعر يطمح إلى مواجهة قسوة الظروف، ويقابل فجائع الدهر والقدر بقلب قوي متمسك بإرادة البقاء والوجود في الحياة، ونفس صلبة تؤمن بضرورة الاستمرارية والمقاومة والصمود أمام فجائع الزمن وخيانته الضارة، ليقرر داخل كينونته على قرار عدم الانهزام وتجاوز المحن والصعوبات، كانطلاقة قوية

(1)- حسن عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص417.

(2)- طرفة بن العبد: الديوان، ص120.

في خلق جو نفسي جديد يساعد على تحقيق وجوده، وفرض سلطته الذاتية، ليكون للفرس أثر قوي في حياة طرفة فيعتبر رمزا للقوة والصمود والصلابة والبقاء في أرض الحياة التي اختارها الشاعر، وفي هذا إشارة بالغة إلى روح الطموح والإرادة الحية التي يسعى على إبقائها مشعة بنور أحلامه داخل ظلمة نفسيته المقهورة.

والخيل في شعر طرفة يمثل رمزا للسرعة في السير والعدو، ونشاطه المستمر، إذ يقول:

وتَفَرّى اللحمُ مِنْ تَعْدائِها والتّغـالــي، فهيَ قُــبٌّ كالعَجَــمْ

خُلُجُ الشَّــدِّ ملحَّـاتٌ إذا شالتِ الأيدِي عليهــا بـالجـِـذَمْ[1]

إن هذه الخيل تمضي مسرعة في سيرها، قاطعة المسافات الطويلة مبالغة في شدة سرعتها، مشبها ضمور بطنها وصلابة تحملها بالعجم الذي يعني النوى، فهي تشبه نواة التمر في صلابتها، وفي هذا تكمن رمزية السرعة والنشاط والصلابة والصمود معًا وعدم الإنكسار.

والشاعر يشير على ضوء أوصافه الرمزية إلى أحاسيسه ومشاعره التي أسقطها على صفات الخيل، الذي يمثل قدوة حية في عالمه المتفرد، حيث يسعى إلى الإختلاف والتميز، ليبني عالمه الخاص بصلابة إصراره وقوة عزيمته لينفي حتمية قدر الموت، ليحافظ على فكرة الخلود والبقاء التي رسمها في مخيلته الشعرية، حيث عززها برموز فنية تشكلت في أجزاء قصيدته، زيّنت بإيحاءاتها العميقة أنساق نصه الشعري، فتحت لنا ثغرات الغموض والتعقيد، لكنها عملت على تجسيد العالم النفسي المظلم الذي يختفي في عالم اللاّشعور، ليجعل من الفرس معادله الموضوعي الذي يمثل طغيان وجوده، ويعكس سطحية حياته، وأعماق ذاته الخفية التي جاءت خلف المواصفات الفيزيولوجية، التي احتضنت لنا الأثر النفسي والمعنوي لطرفة في علاقته بالفرس من حيث القوة والمواجهة والصمود والصلابة وغيرها من المواصفات، حملت مدلولاتها معاني الشموخ والشهامة، التي تربط توحد حياة الشاعر بحياة الفرس.

وفي إطار المدح يقدم لنا طرفة مشهد آخر من المشاهد الملحمية للفرس مؤكدا بتكرار فني قوة الخيل، وإلحاحها وإصرارها القوي على العدو مسرعة، محطمة قيود الإحباط والملل والتعب، بصبر وعزيمة، كرمزية للتجلد والإرادة والإصرار، في قوله: "خُلُجُ الشّــدّ ملحَّـاتٌ".

يتضح أن طرفة اتخذ من وصف الخيل متنفسًا يخفف عنه ضيق الحياة وضجرها، مستلقيًا على فكرة جوهرية أسقطها على أبياته الشعرية بطابع رمزي يحتمل صفات الفرس، تمثلت في فكرة الخلود والبقاء حيًّا محطما قدر الموت، ليواجه بذلك عناء الحياة بصلابة وصبر تزيده قوة وإصرارًا.

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص120.

ويعتبر طرفة من الشعراء الجاهليين، الذين «وصفوا الفرس وصفًا دقيقا وصفوا جسمه وقوته وعظم هيكله، ووصفوا سرعته ونشاطه وحمحمته »[1]

ويشير طرفة إلى سرعة الفرس في مشهد فني يقول فيه:

قُدُماً تنضُو إلى الدَّاعي، إذا خَلَّلَ الــدّاعي بدَعْوَى، ثــمّ عَــمْ

بِشَبــابٍ وكُـهُــولٍ نُـــهــُدٍ كليــوثٍ بيــنَ عــرِّيــسِ الأجَـــمْ [2]

هذه الخيل تُقدم بسرعة ونشاط لاستجابة نداء صاحبها وصراخه في حالة القتال والحرب، ليعتبر الخيل رمزا للشجاعة والإقدام.

كما قدم طرفة وصفا شاملا وكافٍ لردود فعلها أثناء الحرب مع فارسها، مبرزا تصرفاتها وأفعالها في سياقات فنية جمالية بلغة تنطق بأحاسيس الشاعر ورغباته، وعلاقة طرفة بالخيل تسمها الشجاعة والإقدام والبطولة في غمار الحرب، جاعلًا من الخيل رمزا للشجاعة والبطولة، ويأمل طرفة أن تتحقق قيمة التعاون والاتحاد في مجتمعه الإنساني الذي يفتقر إلى مثل هذه القيم، وتفرقه مظاهر القبلية والثّأر، والتعصب والهمجية، التي أدت بطرفة إلى الانعزال بعالمه الخاص بعيدًا عن محيطه الإنساني، فيبني لنفسه عالما جديدًا رسمه بألوان من القيم الإنسانية، كالتعاون والتوحد والصبر والفرح، وهذا ما جعل شعره أكثر إنسانية ونبلاً، وبهذا يتحقق نصر الوجود الفعلي والخلود في هذا العالم.

تشعر من خلال وصف الفرس عند طرفة بعاطفة صادقة، تنبض بأمل الحياة واستمرارها، لكنه في رموزه التعبيرية قدم للمتلقي صورا تنمو عن حيرة وقلق أثقلا كاهل نفسية الشاعر، ليرى أنّ هذه الخيل تعيش مكرهة ومرغمة على الخضوع لمتطلبات الإنسان وأوامره، الذي يجبره على تلبية رغباته في حالات مختلفة، يقول:

نمسِكُ الخيلَ على مكروهِهَا حيــنَ لا يمسِــكُ إلا ذو كَـــرَمْ[3]

فصاحب هذه الفرس يجبرها على أشياء صعبة تفوق قدراتها، إلاّ أنّها تتحدى ذلك بصبر وتحمل، وهذا يعكس نفسية الشاعر المضمرة في جوف الأنا، ليظهر أنه يعيش هو أيضا في اضطهاد وحيرة من غدر الزمن والأصحاب، ويتقمص طرفة دور الفرس في تصرفاتها ليجد نفسه مجبرا على التزام الصبر على قسوة الدّهر وخيانة البشر، لكنه ينهض بإرادة قوية لمقاومة قوانين القدر، وتحدي سؤال الموت محلقا في سماء الوجود الذي يصل به إلى

[1]- يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص 372.

[2]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 121.

[3]- م ن، ص ن.

طريق أحلامه، وطموحاته محافظا على بقائها مشعة بضوء الأمل، ويحاول بإكراه شديد على التزامه بالشجاعة والتفاؤل، مصرًّا على مواجهة ظروف الحياة بصلابة، من أجل الحفاظ على استمرارية وجوده، ليعبر حيز المجهول وصولا إلى عالمه المثالي، وهو بذلك يعكس الجانب الخفي في عالمه اللاّشعوري الذي أيقضه بصورة رمزية خصَّها للفرس.

يبحث الشاعر عن الكينونة الإنسانية في عالم يفتقد فيه إلى الاستقرار النفسي، لكنه يسعى للوصول إلى هذا الفردوس المفقود رغم ما يواجهه من عقبات وعثرات الزمن، التي زعزعت كيان وجوده وطمست نور طريقه، كلها مراحل حياتية مرَّ بها الشاعر، عكسها في صورة الفرس برموز دلالية لها أبعاد نفسية تصور عمق حياة الشاعر المتعلقة بالمصير المجهول الذي يرتبط بسؤال الموت والنهاية.

والدلالات الرمزية للفرس التي أتى بها الشاعر تعكس المعنى الخفي في سياق النص الشعري، وتوضح الجانب المضمر في نفسيته بسياق اجتماعي وبيئي، في النص جاء عبر لغة فنية تعبق شوقا إلى أزمنة مفقودة مكثفة من حيث الدلالة لتفتح نصه الشعري على نهائية المعنى.

وتحضرنا أبيات شعرية أخرى في وصف الفرس بصورة نمطية، تشابهت وتكررت رموزها وأبعادها التصويرية ، في كل بيت شعري جاء به الشاعر، حيث يواصل وقوفه على وصف هيكل الخيل،جاعلاً من مكوناته الجسمية وأجزائه التركيبية مصدرًا أساسيًا استقى منه مادته الرمزية، وأبعادها الدلالية والجمالية في سياق النص و أنساقه الداخلية، كما تكررت صورة الفرس بنفس الهندسة الفنية في بناء نصوصه الشعرية، ليمنح الفرس صورًا نمطية تراوحت بين السرعة والقوة والنشاط والشجاعة والصمود، ... يقول طرفة في رائيته:

أعوَجِيَّاتٍ، طِـوالاً شُـزَّبَـــــا دوخِـلَ الصَّنعـةُ فيهـا والضُمُـرْ

من يـعَـابيبَ ذكـــورٍ، وقُـــحٍ وهضبـاتٍ، إذا ابـتَـلَّ العـُذُرْ

جافلاتٍ، فـوقَ عـوجٍ عُجُـلٍ رَكِبَـتَ فـيـهـا مَلاطِيسُ سُـمُـرْ

وأنــَافَــتْ بـهــوادٍ تـَلِـــع كجذوعٍ شُذِّبَتْ عنــهَا القِشَـــرْ

علَتِ الأيْـدِي بأجــوازٍ لَـهَـا رُحُبِ الأجـوافِ، ما إن تـَنْبَهِرْ

فهي تـَرْدِي، فـــإذا مَا أَلهَبَتْ طارَ، من احمائِهَـا، شَــدُّ الأُزُرْ

كَـائِـراتٍ، وتَـراهَـا تَـنْتَحِي مُسْتَحبَّاتٍ، إذا جـدَّ الـحُضُـرْ

ذَلُـقُ الـغَارَةِ، فـي أفزَاعِهِـمْ كرِعَالِ الطَّيْـرِ، أسـرابًا تَـمُـرْ[1]

نرى أن الخيل عند شعراء الجاهلية عامة وطرفة خصوصًا، تحمل أبعادًا رمزية جوهرية، يكاد يتفق عليها أغلب النقاد والدارسين، كرمز للسرعة في السير والعدو إضافة إلى ديمومة نشاطها، وهذا ما تفنن فيه الشاعر في أبيات نصه الشعري، الذي ركز فيه على سمة أساسية للفرس تمثلت في شدة سرعته وإقباله على العدو والركض السريع، إذ أنها تعتبر صفة رمزية تصدرت أبيات نصه الشعري في المقام الأول، لتأتي بقية الرموز الفرعية التي رسمها الشاعر للفرس، بعد رمزية السرعة والنشاط، وهذا عبْر ألفاظ تحيل إلى أعماق نفسية الشاعر وحالته الشعورية، على المستوى الفني والجمالي، فصور لنا الفرس بأدق التفاصيل، وليس طرفة فقط بل إن الشعراء الجاهليين في قصائدهم قد "وصفوا الخيل وصف مجرب، عليمٍ بدقائق أعضائها وكل جزء من أجزاء جسدها"[2]

ينطبق ذلك على طرفة الذي أبدع مهمة التدقيق والتعمق، في وصف أجزاء الخيل بألفاظ تشبيهية جاءت بعمق أحاسيسه وصدقه الفني.

فطرفة يصف الخيل بصور تشبيهية، توالت مع ألفاظ جزلة توثقت برموز استوحاها من مخزون خياله الخلاق، منتبها إلى الدلالات الخفية المتجلية في دائرة الألفاظ الرمزية، التي ترمي إلى العمق والتعقيد الذي يعرقل نشاط فهم المتلقي، وتعيق قدراته الخيالية في محاولة تأويل تلك الإيحاءات الرمزية بحيثياتها البعيدة، مضفيًا عليها لمسته الإغرابية التي تستوقف القارئ للحفر في أغوار تلك الدلالات من أجل الوصول للمعنى الخفي لرمزية الفرس في شعر طرفة.

ويقول أيضا في البيتين:

أعوجَّياتٍ، طِـوالاً شُـزَّبَـا دوخِـلَ الصَّنعـةُ فيهـا والضُمـرْ

من يعَابيبَ ذكورٍ، وُقُحٍ وهَضَبَـاتٍ، إذا ابـتَـلَّ العـُذُرْ[3]

يعتمد الشاعر على معجم الألفاظ الوصفية في وصفه للخيل بحقول دلالية مختلفة، كالصنعة والضمور، ولفظة وُقُحٍ ...، وقد احتلّت معاني رمزية رسمت نصه الشعري ببلاغة فنية، فهو يقول أن هذه الخيل من الفحول وهي من كرام الجياد، فيصف ضمورها بقوله شازب، ويرسم نحالتها كرمز للرشاقة والجمال، وحسن هيكلها

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 77 -79.

[2]- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار المصرية، القاهرة، ط1، 2004م، ص118.

[3]- طرفة بن العبد: الديوان، ص77.

واتساق أعضائها ويتوالى وصفه قائلا: " بأنّها من يعابيبِ ذكورٍ وُقُحٍ "، أي أن هذه الفرس سريعة السير، ولأنها من صنف الذكور لشدة صلابة حوافرها، وانزلاقهم في أرض الصحراء أثناء ركضها، ويصف ضخامتها مشبهها في ذلك بالهضاب، لتتصدر رمزية الضخامة والقوة.

يبقى طرفة متعمدًا على ممارسة لغة إدهاش المتلقي بأساليب فنية، تميل إلى الإنزياح عن المألوف، مستحضرا ألفاظ تشبيهية خصّها للفرس، ولعله يصف خيولا كثيرة، لكثرة التشبيهات، ليجعل معنى الفرس يدور في ألفاظ مختلفة، اشتركت مع رموز تكرر حضورها في أنساق النص الشعري، بصور فنية تجددت عند كل مشهد قام بتمثيله، ليزيد من حدة انفعال المتلقي، وقد أطنب طرفة كغيره من الشعراء الجاهليين في "رسم الصور الدالة على تميز قوتها وسرعتها وقدراتها على ممارسة فنون العدو في الحرب والسلم"[1]

وقد أغرق طرفة في وصف الخيل عبر مجموعة من التعابير والصور المذهلة، فوصف سرعتها وارتفاع قوائمها وصلابة حوافرها التي شبهها مرة ثانية بالملاطيس في صلابتها، كرمز للقوة والصلابة حيث يقول:

جافلاتٍ، فـوقَ عـوجٍ عُجَـلٍ رُكِبـتَ فـيـهـا ملاطيسُ سُـمُـرْ[2]

واتجه إلى وصف لونها بالسمرة في قوله: "ملاطيس سمر"، وهذا واضح عند كثير من الشعراء الجاهليين الذين التفتوا بأوصافهم إلى ذكر لون الخيل، ليزيد ذلك تلاحما فنيا لأجزاء النص الشعري، حيث "كان الشاعر الجاهلي يلح على ذكر لون الفرس التي يصفها ويتحدث عن لمعان جلدها، وبريقه وصفائه ونصاعته"[3]

ويشبه طول عنق الخيل بجذوع النخل التي شذِّبت، في قوله:

وأنَافَـت بهـوادٍ تَـلُـعٍ كجذوعٍ شُذِّبَتْ عنها القُشُر[4]

في موضع آخر نرصد تعايش الشاعر مع الخيل بروح صادقة، ليصور لنا أجزاءها مسقطا عليها مشاعره، مبرزا مدى انغماسه مع تصرفات خيله، ليقف عند كل عضو من أعضائها بوصف عميق تخللته الحياة الباطنية للشاعر، موضحا درجة تأثره بالخيل وسلوكاتها، من ناحية سرعتها قاطعا معها مخاطر المفاوز العظيمة، حيث انتفخت أيديها من ديمومة السير الطويل، رغم الندب الذي تقاسيه إلا أنّها تمتلك صدرا رحبا قادرا على تحمل أعباء ظروف الحياة ومجاريها، هذا ما رصده طرفة قائلا:

---

[1]- صلاح رزق: الشعر الجاهلي السياق والملامح، ص195.

[2]- طرفة بن العبد، الديوان، ص77.

[3]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص114.

[4]- طرفة بن العبد: الديوان، ص78.

عَلَتِ الأَيدِي بأَجْـوَازٍ لـهـَا رُحُبٍ الأجوافِ، ما إن تَنبَهِر

فَهِي تَرْدِي فإذا ما ألهِبَتْ طارَ من احتِمَائِها شَدُّ الأزُرْ[1]

هذه الخيل سرعتها تشبه لهيب النار المشتعل، لشدة ركضها وعدوها، وتبقى تحضرنا رمزية السرعة والنشاط التي بنى عليها طرفة مواصفاته للخيل، حيث نفى عنها القلق والضجر والضيق، لشدة اتساع صدرها وتقبلها ظروف الحياة المجهولة بصدر واسع، يبتعد عن الحيرة والقلق، فالشاعر يحاول أن يكون مثل هذه الخيل، أي أن يفصل ذاته الحزينة ومشاعره الأليمة عن قلق الوجود، محاولا تقبل قدر حياته بروح واسعة، مهيّئة لاستقبال المصير المجهول دون ضجر وحيرة، ليجعل من الفرس رمزا لتقبل الحياة والرضا بالواقع المعاش، فالشاعر يحاول أن يرقى بحياته على ما هي عليه، متطلعا إلى تغيير أفضل برحلته الطويلة، متتبعا شعلة الأمل، محاولا أيضا اكتشاف ذاته بعيدا عن واقعه الأليم، في واقع آخر يحتوي وجوده.

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص78.

3-رمزية الحيوان الوحشي:

3-1-رمزية البقرة الوحشية:

لم يقف طرفة مطولا في وصفه للبقر الوحشي، وإنما جاء حديثه عنها خلال رحلته في مواضع الغزل، فأعطى صورة خاطفة وسريعة للبقرة، وهذا يوضح أن طرفة لم يغرق في تأمُّل البقرة الوحشية، ربما لأنّها لم تظهر أمامه كثيرا، وقد ربطها بوصف المحبوبة متغزلا في قوله:

تَخْلِسُ الطَّرفَ بِعَيْنَيْ بُرْغُزٍ و بِخَدَّيْ رشَـأ آدَمَ غِـــرْ

وَلَهَا كَشْحَا مَهَاةٍ مُطْفـــِلٍ تَقْتَرِي بالرَّمْلِ أفْنَانَ الـزَّهْـرِ[1]

نجد طرفة مُشخصًا جمال محبوبته في صورة البقرة الوحشية، حيث شبَّه سواد عينيها، واتّساعهما بعينيْ برغزٍ أي ولد البقرة الوحشية، مستحضرا صورة الغزال إلى جانب البرغز لتشبيه بياض عينيها بالرشأ، وسوادهما بالبرغز، مدمجا ذلك في بيت واحد بإسقاط فني،ويكمل وصف محبوبته بالمهاة في جمال شكلها ومظهرها.

ارتبطت البقرة الوحشية برمز المحبوبة في الغزل، فهي رمز الرشاقة والأناقة وحتى الجمال، «كما أن الشعراء الجاهليون انتزعوا صورا رائعة وتشبيهات جميلة من البقر الوحشي، كتشبيههم عيون الحسناوات بعيون البقر الوحشي في الاتساع والجمال والجاذبية»[2]

وبالتالي فإن طرفة جعل من تشبيه محبوبته بالبقرة الوحشية رمز للجمال، كما تحدث عن البقرة الوحشية في موضع تشبيه ناقته بها، فيقول:

طَحُورَان عُوَّارَ القَذَى فَتَراهُمَا كمَكحُولَتَيْ مذعُورةٍ أُمِّ فَرقَدٍ[3]

يقول:«أن هذه الناقة عينيها صحيحتان لم يصبهما عُوّار»[4]، فهو يشبه عيني ناقته بعيني البقرة الوحشية، وهي خائفة مذعورة على ولدها، خوفا عليه من المخاطر، لتأتي صورة البقرة في هذا المنظر كرمز للحنان والأمومة، والخوف من الخطر واتخاذ الحذر، وبهذا يربط الشاعر وصفه للناقة بالبقرة بعيدا عن القوة والوحشية، في جعلها متصلة بعاطفة الأمومة والخوف من الأعداء.

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص62.

[2]- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص170.

[3]- طرفة بن العبد: الديوان، ص37.

[4]- م ن، ص ن.

3-2-رمزية الثور الوحشي:

ويحضر وصف الثور الوحشي في شعر طرفة بن العبد، في صورة نادرة جدا، حمَلت بُعدًا رمزيًا يعكس لنا موقف الشاعر وحالته الوضعية، استدعت منه استحضار صورة الثور في سياق وصفه لناقته، فيقول:

وصَادقَتَا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرى لجَرْسٍ خَفِيٍّ، أو لصوتٍ مُنَدَّدِ

مُؤَلَّلَتَانِ تَـعْرِفُ العِتْـقَ فيهمـا كسَامِعَتَي شاةٍ بحَومَـلَ، مُفـرَدِ[1]

جاءت صورة الثور كمشبه به للناقة التي غرق الشاعر في إبراز أوصافها ومكوناتها الجسمية، ليقف عند أحد أعضائها، مستوحيا الثور في تشبيه ناقته به، فنجده يصف أذني الناقة وقوة حاسة السّمع عندها، التي تعينها على التنبؤ باقتراب الخطر، فهي تشعر بالخطر البعيد، إذا سمعت أصواتا بعيدة، تجعلها تتوجس الخوف والخطر، فيشبه قوة سمعها، وشكل أذنيها بالثور الوحشي، في قوله: "مؤللتان" أي محددتان كتحديد الآلة، «فيشبه أذنيها بالثور الوحشي لتحديدهما وصدق سمعهما»[2] ،فصدق إحساسه وسمعه لا يخطئ أبدا، ومن هذا الوجه يعتبر الثور رمز الانتباه والحذر والحيطة و الخطر، كذلك الاستعداد لتحدي المخاطر والتصدي لهما مهما كانت.

الشاعر يحاول خلق تكامل فني بصور توافقية بين الناقة والثور، فرمزية الثور التي جاءت في هذا البيت لم تصور لنا قصته مع كلاب الصيد والصياد، بل اختلفت عن ذلك، هذا راجع لموقف الشاعر الذي لقي فيه حاله، فهو هنا يمر بلحظات تدق بساعات الخوف واقتراب وقوع الخطر، فالشاعر يشير إلى عدم ارتياحه في واقعه، لكنه يحاول بكل ما أوتي من قوة وإرادة الخلاص من واقعه المؤلم، الذي تنعدم فيه رغبة البقاء، لأنه في كل لحظة من دقائق حياته يشعر باقتراب الخطر، مصدقا إحساسه الذي ينبهه على ذلك، حتى يتخذ احتياط الحفاظ على رغبة وجوده في عالم أحلامه، فهذه البقرة تجسد حالة الشاعر، وهو يرتعب بخوف شديد من لحاق المخاطر به، محاولا الحذر والاستعداد للمواجهة بشجاعة، هذا ما عبَّرت عنها صورة الثور التي مثلت رمز الخوف والتنبؤ بوقوع الخطر، والاستعداد والمواجهة ومكافحة المخاطر.

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص38.

[2]- م ن، ص39.

3-3-رمزية الحمار الوحشي:

إن حضور الحمار الوحشي في شعر طرفة، لم ينل القدر الكبير من الأهمية الكبيرة التي حظيت بها الناقة و الفرس، من حيث الإطناب في الوصف، وسرد مكبوتاته النفسية في أوصاف تلك الحيوانات، لكنه لم يقف عند وصف الحمار الوحشي والتفصيل في رسم صورته، بل أشار إليه إشارة عابرة، تبرز أن طرفة سلك وجها وصفيا آخر للحمار الوحشي، وهذا راجع بطبيعة الحال لدوافع مختلفة، أراد من خلالها إثبات نظرته الوجودية وأحاسيسه، وقدرته على التفرد والتميز في مضمون نصه الشعري.

ذكر طرفة الحمار الوحشي مرَّة واحدة في شعره، يبدو أن خياله الشعري لم يلتقط صورة كاملة لمشهد الحمار، وهذا يكشف أن فرصة لقاء طرفة مع هذا الحيوان الوحشي لم تكن طويلة، لأنَّها كانت نظرة عابرة غير مفصَّلة، ولم تتكرر في طريق رحلته الطويلة، والرمزية التي يمكن أن نستوحيها من صورة الحمار عند طرفة مختلفة جدًّا عن باقي الشعراء، يقول:

يَظَـلُّ بـهَـا عِـيْـرُ الـفَـلاةِ كـأنَّـهُ رَقِيبٌ يُخَـافي شخصَـهُ ويـضائِلُـهْ

وَمَا خِلْتُ سَلمَى قَبلَهَا ذات رُجْلَةٍ إذا قَسْـوَرِيُّ اللَّيْـلِ جِيبَتْ سَـرابِلـهْ[1]

جاء اسم الحمار الوحشي في أبياته الشعرية في قوله: "عيرُ الفلاةِ"، بمعنى أن هذا الحمار لا يظهر في الفلاة إلا مرَّات قليلة، وهذا يدل أو يؤكد أن طرفة التقى به مرة واحدة، فهو تارة يظهر في العيان وتارة يختفي، وكأنه رقيب يخافي شخصه ويضائله، يعني «أنها فلاة ذات ظهور وبطون، فالعير يبدو فيها مرة ويخفى مرة، فكأنه رقيب يشرف تارة، ينظر من يجيء ويستخفي تارة، لئلا يشعر به»[2]

بهذا يتضح لدينا عدم اهتمام طرفة بتكرار صورة الحمار الرمزية في نصه الشعري، راجع لعدم التقائه به كثيرا إلاّ مرَّة واحدة، وربما كانت مصادفة جمعته مع هذا الحمار في الصحراء.

يأخذنا الشاعر بخياله الفني، إلى جعل صفة الحمار الوحشي في هذا البيت تأتي في موضع آخر يطرق باب الغزل في مضمون شعره، لتتبلور لدينا رمزية جديدة للحمار غير التي ارتبطت بالقوة والصلابة والخشونة عند باقي الشعراء، ليربطه بصورة رمزية استحدثها بخياله الشعري الذي أيقظته المشاعر والعواطف، ليصير عنده رمزا للجمال والأنس.

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص128.

[2]- م ن، ص ن.

في قوله:

ومَا خِلْتُ سَلْمَى قَبْلَها ذَاتُ رُجْلَةٍ إذَا قسْـــوَرِيٌّ اللّيلِ جِيبَتْ سرابِـلُـــهْ[1]

فهو يصف لنا جمال مشية محبوبته سلمى وقوتها كمشية الحمار الوحشي، كرمز للقوة والجمال والأنس والرّقة.

جاءت صورة الحمار الوحشي عند شعراء الجاهلية كصفة يشبهون بها نياقهم في جوانب مختلفة، أمّا الأمر عند طرفة يختلف جدا وأخذ منحى وصفي مغاير، ليشبه به محبوبته، فجمال مشيته يتشابه مع مشيتها، وحتى أناقة مظهره مشتركة مع أناقة مظهر المحبوبة حسب طرفة.

إن وقع أنظار الشاعر لحظة لقائه بالحمار الوحشي جعلته يسترجع بخياله، خيال محبوبته، ليرصد صور مشتركة بينهما، ارتسمت في مشيتها التي تشبه مشية الحمار الوحشي، وهذا راجع إلى تفاعل الشاعر مع قدراته الخيالية والجمالية، في إبداع رموز تعبيرية، بلغة شعرية، استجابت لظروف بيئته، فاتخذ من عواطفه ومشاعره معيارًا يقيس به جودة وجوده، وقيمة إدراكه لحب الحياة، كل ذلك جاء بمعاني وألفاظ رمزية ملائمة لجوه الشعري والنفسي.

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص128.

3-4-رمزية الذئب:

يعرض طرفة بن العبد وصف الذئب في شعره مرة واحدة على سبيل الفخر، ويبدو أنه لم يعره أهمية الحديث في شعره، وهذا ربما راجع لعوامل ومرجعيات استدعته إلى عدم الوقوف والإفاضة في وصف هذا الحيوان، ويتضح أنّه يتجاوب بدقة مع أحاديث نفسه ورغبات مشاعره، فأورد لنا الذئب تحت مسمى آخر، هو سيد الغضا ، قاصدا به رسم شجاعته وذكائه وقوته في القتال، فيقول:

وَكَرِّي، إذا نادَى المُضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الغَضَـا نَبَّهتَهُ، المُتَوَرِّدِ[1]

سيد الغضا هو ذئب الغاب المتوحش والسريع، وطرفة يشبه به نفسه لأنه في موقف إغاثة المظلوم الذي يلتجأ إليه، والمستجيب لصوت المستغيث، وهذا يقتضي منه سرعة وقوة، وفطنة وبسالة في القتال، هي صفات يتحلى بها الشاعر رغم صغر سنه، فأسقطها على الذئب كرمز للسرعة والقوة والشجاعة، فهو في حالة القتال نجده مفتخرا بشجاعته مشبها نفسه بسيد الغضا في حركته وفطنته ونباهته، "كما شبه الشعراء الجاهليون بالذئب، فذلك امرؤ القيس يشبه الربيء – الذي يربأ للقوم، وينظر للصيد بذئب الغضاء –وهو أخبث الذئاب–حيث إنه يمشي متخفيًا في الأشجار استتارا من الصيد ، واتّقاء أن يراه ليتمكن بذلك منه"[2]، فذئب الغضا في شعر طرفة هو رمز الخبث والمكر، كذلك يعتبر رمزا للقوة والشجاعة.

طرفة مات صغيرا لكنه كان شجاعا وذكيا وهو كريم الأصل، هذا ما رصده في شعره، حيث حاول التصريح بذكائه، وإثبات شهامته وكرامته في هذا البيت، بأنّه شخص لا يرد دعوة المحتاج، ويسارع إلى مساعدة الضعيف مهما كلفه الأمر، هي صفات أخلاقية إنسانية يبجلها الإنسان العربي الجاهلي، ويفتخر بالتصاق الفضائل الحميدة في شخصيته، فيحاول إظهارها في موضع الفخر، في المقابل يعتبر طرفة نفسه شخصا آخر في أجواء الحرب فيجعل نفسه تمتاز بالمكر والخداع والخبث ...هي خصائص خلقت بالأصل في الذات الإنسانية حتى وإن لم تظهر في تصرفات الإنسان، إلا أنها مغروسة و مخبأة في عالم اللاّشعور تنهض في أوقات معينة، وطرفة يعترف بأنّه ماكر ومخادع في حالات تستلزم منه استحضار الجانب المظلم والشرير من أعماق نفسه، ليستنهض الجانب المستتر والخفي من نطاق اللاّشعور، ليدفع به شر الأعداء والماكرين، ويحطم كيد الكائدين، في حالة الحرب نجده ينطلق من أجل تحقيق غاية الانتصار على الأعداء ودفع خبثهم وشرهم، فهو يريد أن يقول أنا مثل هذا الذئب في الغدر و الخبث في مواجهة أعدائي وذكي كذكائه بإيقاعهم في فخ الهزيمة المنتهية بسيل دمائهم، لكني في

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 46.

[2]- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، ص 192.

الحقيقة إنسان آخر له نصفه المضيء الذي يتحلى بالحب والحنان والعطاء، و مساعدة الضعفاء، وتقديم العون لهم فطرفة يمتاز بالجود والعطاء لكنه في المقابل شخص آخر يتميز بالذكاء ويحاول إيقاظ روح الشجاعة، المخبأة لمكافحة عثرات الحياة والأعداء، فتحضرنا صورة الذئب كرمزية للقوة والشجاعة، والخبث والمكر مع الأعداء.

3-5-رمزية الأفعى:

ومما ذكره طرفة في شعره "الأفعى"، وهي من الزواحف التي عاشت في البيئة الصحراوية، فرصدها الشاعر الجاهلي، وأتقن وصفها و ضرب بها الأمثال في مضارب مختلفة، وأخذت الأفعى أوصافا عديدة في أشعارهم التي دارت في باب الهجاء خاصة.

وارتبطت الأفعى بالشيء المستكره في نفسية الشاعر الجاهلي، وتواجدها في الصحراء بكثرة وانتشارها،«جعل الشعراء يمنحونها هذه الأهمية، ويذكرونها في قصائدهم، ويستعملونها في الصور التي دارت في أذهانهم حتى تعددت أسماؤهم»[1]

وذكرت الأفعى في شعر طرفة بن العبد مرة واحدة في هذا البيت:

منْ نَمَّ في النَّاسِ لمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ على الصَّدِيقِ، ولمْ تُؤْمَنْ أفَاعِيهِ[2]

الشاعر يذُمُ من يغتابُ ويَنِمُ في النَّاس في غيابهم بأقوال غير محمودة، فهؤلاء الأشخاص يشبهون الأفعى في هدوئها المخيف، الذي يلسع لدرجة القتل، هكذا هم ظاهرهم يخفي مافي باطنهم، الممتلئ بسموم الغيب والنميمة والحقد والشر، فيرشون عليك تلك السموم دون أن تشعر أو تحس، فهؤلاء الناس لايؤتمن بهم، ولا يرتاح لهم بال، فسموم النميمة سبب ألما وحرقة في نفس الشاعر، لتكون الأفعى رمز الحقد و النميمة التي سببها الكراهية، كما تعتبر رمزا للشر في شعر طرفة.

يحاول طرفة الهروب بنفسه الطاهرة والنقية من شوائب الزمن، وشرور الناس، بعيدا عن الظلم والحقد، ليحافظ على نقائه وصفاء روحه التي تنفر من شرور النفس البشرية، التي تزرع الظلم والشر أينما حلت، فيحاول الشاعر الانعزال بذاته المختلفة عن أعدائه، ليمارس حياته بعيدا عن الظلم وماشابهه، لترتبط الأفعى في صورتها

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ص 205، 206.

[2]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 189.

بالظلم فكانت "العرب تضربُ المثل في الظلم بالحية فيقولون: أظلم من حية لأنّها لا تتخذ بنفسها بيتا وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله وأخلوه لها"[1]

فطرفة صور أعداءه من البشر بالأفعى التي لايؤمن لها، لأنهم يقذفونك بسموم الغيب والنميمة، التي مبعثها الظلم والحقد والغيرة، التي هي من أخبث الأمراض التي تصيب النفس الإنسانية، لتبقى الأفعى حسب طرفة و باقي الشعراء رمزا للشر و الظلم والحقد.

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص 206.

3-6- رمزية الثعلب في شعر طرفة:

ورد الثعلب في أشعار الجاهليين بمواصفات عديدة تصل إلى حد النمطية عندهم، ويُعد طرفة من بين الشعراء الذين استحضروا صفة الثعلب في سياق نصهم الشعري، من باب الهجاء والتذمر، فكان الثعلب من الحيوانات الوحشية، التي يضرب بها المثل في الدّناءة والإساءة والخيانة والخذلان، في صورهم الشعرية، كما جاء عند طرفة في قوله:

كلُّ خلِيلٍ كنتُ خَالَلْتُهُ لا تركَ اللَّهُ لهُ واضِحَه

كُلُّهُمُ أَروغُ مِن ثَعلَــبٍ ما أشبهَ اللَّيلَة بالبَارِحَه[1]

يؤكد طرفة في هذين البيتين بعبارات توحي بالألم وشدة توجعه، من خذلان أصدقائه له، مثبتا خيانتهم العظمى في استغنائهم عنه، وتركه وحيدا يتخبط مع أوجاعه ومعاناته، بعد خسارة أمواله التي بددها وأسرفها في تسلية أصدقائه، الذين استغلوه بمكر وخداع، فأخذ عهدًا على نفسه بأن لا يثق بأي صديق آخر، قائلا: "وقوله لا ترك الله له واضحة، أي لا ترك الله له سُنًا واضحة"[2]، ويشبه طرفة خداع أصدقائه وخيانتهم وخبثهم بمراوغة الثعلب، أي أنّهم جميعا دون استثناء يفوقون الثعلب في مكره ومراوغته، فاستحضر صورة الثعلب لأنه أنسب وأدق تشبيها وقوله: "ما أشبه اللّيلة بالبارحة، ضرب هذا مثلا لشبه بعضهم ببعض في روغانهم عنه وخذلانهم إياه"[3]، وبالتالي يتخذ الثعلب في صوره التمثيلية والتشبيهية في شعر طرفة رمزا للمراوغة والخيانة والغدر والمكر والخداع، والدّناءة، والخبث، .... هي رموز تصويرية رصدها الشاعر في هذين البيتين، كصورة تشبيهية لأصدقائه، الذين ابتعدوا عنه وتركوه وحيدا يتقلب في حيرة متحسرًا على خسارته، لنجد طرفة يلوم رفاقه مندهشا من خذلانهم وخيانتهم المفاجئة لهُ، متألما على حاله لأنه منحهم ثقته، دون أن يدري خبث استغلالهم لهُ، ونهب ثرواته، وهذا راجع لكون طرفة يفتقد لرجاحة العقل، فكان غارقا في لهو الحياة وملذاتها، حيث مثل صورة أصدقائه وتصرفاتهم الأليمة بصورة الثعلب كرمز للخداع والخيانة.

والثعلب عند شعراء الجاهلية عامة وطرفة بصفة خاصة، "قد ضربوا المثل به في الدناءة والخبث والمكر كما ضربوا به المثل في الروغان والميل عن الحق، والابتعاد عن جادة الصواب"[4]، وهذا ما اتضح في شعر طرفة مجسدا صورة الثعلب في رموز إيحائية تتأقلم مع أوجاعه النفسية، فجاءت صوره حية تتوافق مع أحاسيسه ومشاعره،

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص125.

[2]- م ن ، ص ن.

[3]- م ن ، ص ن.

[4]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص 167.

الجزئية من غدر الناس ومكرهم الشديد، فكان الثعلب يجسد مظاهر العالم الإنساني بصورة مستكرهة وغير محببة، تشير إلى الخوف والألم، والتشاؤم والحيرة ...، كلها ارتسمت على شكل رموز فنية استوحاها الشاعر من عالمه الداخلي الذي يمثل ذاته الباطنة، ليظهر لنا الجانب الشرير في النفس الإنسانية، القائمة على الغدر والخيانة بدرجة أكبر، التي جسدتها صورة الثعلب، فأخذ عهدا على نفسه بأن لا يتساهل مع أصناف المجتمع الشرير، الذي قسى على روحه الطيبة، فقتل فيه روح الثقة، فصار لا يثق بأيِّ شخص كان، متخذا حذره في وسط العالم الإنساني الذي يكتظ بضجيج الخيانة والمكر والخداع التي يتعامل بها المجتمع البشري، فلم يستطع تقبل حياة البغض والاستغلال ، فتوجه باحثا عن حياة أخرى تتماشى مع ذاته المتفردة، فامتلأ قلبه وجعا وضيقا، فعاش حياة مكرهة بسبب ما أصابه من حوادث مؤلمة قطعت فيه نفس الاطمئنان والارتياح، فشبه طائفة أصدقائه ومن يمثلهم في هذا العالم بثعلب ماكر ومخادع، بل وإنهم أشد خداعا من هذا الثعلب.

3-7-رمزية الظبي:

الظبي من الحيوانات التي ارتبطت بحياة الشعراء الجاهليين، الذين أفرطوا في وصفه بتشبيهات لها دلالات مختلفة، توضح اهتمامهم الشديد بهذا الحيوان، فأبدعوا له صورا فنية زيَّنت لوحاتهم الشعرية برموز متنوعة، استوحوها من صورة المرأة التي ارتبطت بصورة الظبي في حسنها وجمالها، « ووجد الشعراء في الظبي نموذجا محبوبا لتشبيه المرأة به»[1]

وطرفة من الشعراء الذين أعجبوا بهذا الحيوان أيَّما إعجاب، فوصف الظبي بتشبيهات تعلقت بصور المحبوبة في جمالها وشكلها بدقة و إبداع فني جلي، يقول:

وفي الحيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَشَادِنٌ مُظَاهِرُ سَمْطَيْ لُـؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدِ

خَـذُولٌ تُـرَاعِـي رَبْـرَبًـا بِـخَـمِيـلَـةٍ تَنَاوَلُ أطْـرَافَ البَرِيرِ وَتَرْتَـدِي[2]

يُشبِّه المرأة في حالة الحيطة والحذر بالظبي التي تخلفت عن القطيع، فتنعزل وحيدة عن أصحابها، وفي انفرادها تبيَّنت محاسنها بشكل واضح في أعين الشاعر، ويصفها وهي تمد عنقها لتناول ثمر الأراك، فتسقط عليها أغصان الأشجار ويغطي جسدها الأوراق فتصير لها كالرداء، وهذا ما زاد من حسنها، فطرفة يشبه محبوبته بالظبي المتخلفة عن القطيع، بمعنى أنه لا يرى غير محبوبته، في وسط مليء بالحسناوات لتبقى هي متفردة ومميزة في وسطهن، وهذا ما جعله يصف محبوبته بظبي منفرد، راجع إلى انفراد محبوبته وتميزها عن غيرها بالنسبة له.

ويعتبر الظبي في شعر طرفة رمز المحبوبة في محاسنها وجمالها، فهو عند عامة الشعراء رمز المرأة الحسناء أو المحبوبة لدى الشاعر الجاهلي.

ويحفل طرفة بوصف سحر محبوبته وجاذبيتها مبرزا مواصفاتها في صورة الظبي، فهو أقرب ما يكون إلى ذلك، وغالبا ما ترتبط صورة الظبي في وصف الشاعر بالشيء الجميل والحسن، وهذا دليل على العاطفة الصادقة المتأججة في نفس الشاعر، التي أثمرت لنا رموزا تستجيب لأنينه ومعاناته في الحياة، ليتخذ من صورة الظبي رمزا للجمال والملاحة والحسن.

---

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص143.

[2]- طرفة بن العبد : الديوان، ص ص25،26 .

4-رمزية الطير:

4-1- رمزية النعام (الظليم):

رسم الشاعر مجموعة من الأوصاف للنعام، بصور جمالية نابعة من خياله الفني، وردت في أبيات متفرقة من شعره، بمسميات مختلفة كالسفنجة، خاضب، نقانقا، ...كلها جاءت ألقاب للنعام توحي إلى توغل الشاعر العميق والمعرفي بعالم الحيوانات، مستوحيا لها أسماءا أو ألقابا تسير مع تصرفاتها الطبيعية والنفسية وأيضا مظهرها الفيزيولوجي، إذ تتماشى مع مظاهر الطبيعة الصحراوية ومناخها المتقلب.

ولم يتعمق طرفة في وصف النعام، كما أنه تجنب الإطناب في تشبيهه ووصفه للنعام، يقول طرفة:

لاَ أرَى إلاَّ النَعَامَ بِه كَالإِمَاءِ أشْرَفَت حُزَمُهْ

تذركونَ إذ نُقَاتِلُكُم لا يصرُّ مقدِمًا عَدَمُهْ[1]

في هذين البيتين يصف طرفة بألم شديد، خلو الربع من أهله، وهجرانهم له، فوقف يتأمل الآثار المتبقية من الديار بحزن وأسى، يتذوق من خلالها ذكريات الماضي، التي أصبحت ألما يُوجع حاضره، فهذا المكان صار خاليًا مهجورًا، ولم يبق فيه إلا النعام الذي استوطن المكان الخالي، فاستعمل الشاعر أداة التشبيه الكاف، ليشبه النعام بالإماء في رفعها لجناحيها كأنها حاملة معها حزمة حطب، كتشبيه صور به النعام الذي يعتبر رمزا يوحي بالإندثار والفناء والرحيل والهجرة والفراق، كلّها تعبر عن حزن وأسى الشاعر، لأنه يعيش وجع الفراق الذي يهدد راحته النفسية مما جعله، يمر بتساؤلات توحي بالتوجس والخوف، فصار القلق رفيق الشاعر يسكن في داخله، يستوقفه عند كل حالة يمر بها.

يقفز بنا طرفة إلى مشهد آخر لفت أنظاره يعكس رؤيته الفنية والروحية، فاستحضر صورة النعام عند وصف ناقته في سرعتها وعدوها، حيث شبهها بالنعام في شدة سرعته، فيقول:

جَمَاليَّةٌ وجناءُ تَرْدَى كَأنَّها سفنَّجَةٌ تَبْري لأزعَرَ أرْبَدِ[2]

صور ناقته في سرعتها مشبهها، بالنعام كرمزية للسرعة والنشاط.

---

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص84.

[2]- الزوزني: شرح المعلقات السّبع، ص 53.

ويقول أيضا:

وبِـلادٍ زَعِـلٍ ظِلْمَـانُهَـا كَالمَخَاضِ الجُربِ في اليَومِ الخَدِرْ
قد تبَطَّنت وتحتي جَسْرَةٌ تَتَّقِـي الأرضَ بِمَلْـثُـومٍ مُعِــرْ[1]

يقول أن تلك البلاد ظلمانها تمتاز بالنشاط والقوة والسرعة، ويمضي إلى وصف لونها قائلا: كالمخاض الجُرب، "لأنها سود من القطران، فهو أشبه لها بالنعام"[2]، هذه الظلمان سوداء اللّون نشيطة في سيرها، تعيش في أمان بعيدا عن عالم الإنس، فلا يوجد بذلك ما يروعها ويزعزع هناءها، والشاعر يعكس ذاته بصورة مناقضة لحالة النعام، فهو على خلافه، يحاول التصريح وراء وصف النعام، بعدم استقراره، وفقدانه للأمن، إضافة إلى أنه يشعر بالخوف والرعب من المجتمع الإنساني حيث تكمن بذرة الشر، و نوازع الخبث والغدر، هو عالم تجتمع فيه شتى مظاهر الحقد والأنانية، التي تغزو الذات الإنسانية، هذا حسب طرفة، الذي أحسن اختيار الألفاظ المناسبة لرسم دلالة الرموز وتركيبها في أجود معنى ليحسن تجسيد صورة تمثيلية للنعام الذي يمثل كيانه الوجودي والنفسي.

فالشاعر من هذا المنظور يحاول البحث عن موطن عالمه المفقود، يحتضن أفكاره الوجودية، وتساؤلاته الغيبية، ويتقبل طموحاته وأحلامه المرجوة، التي هدمتها شرور العالم الإنساني من قبل، وقتلت فيه حب البقاء، لكنه سرعان ما تفطن، متوجها إلى ترميم ذاته المحطمة، ليعيد بناءها في أكمل صورة، تكتمل مع العالم الخارجي وتنسجم معه في نطاق جديد، وفي وطن تتجدد فيه ثوابت الحياة وعناصرها.

2-4-رمزية العقاب:

العقاب من أصناف الطيور الجارحة التي اهتم بها الشعراء، وأشاروا إليه إلا أن طرفة لم يستغرق في وصف هذا الطائر، فجاء ذكره للعقاب في بيت واحد، لكنه احتوى معاني، اختزنت مكبوتات الشاعر وأسراره، فعبّر بالعقاب عن الصورة الكاملة التي مثلت نفسيته، فرصد من خلاله بطولاته وشجاعته وشهامته، أثناء القتال فيقول:

نَذَرُ الأبطالَ صَرْعَى بَينَهَا تَعْكِفُ العِقْبَانُ فِيهَا والرَّخَمُ[3]

يستحضر طرفة طائر العقاب في هذا البيت، مفتخرا في حالة قتاله وصراعه مع العدو، يشير إلى هذه العقبان كيف أنها تهجم متجمعة على جثث القتلى وهم صرعى منهزمين، والعقاب في نظر الشعراء الجاهليين،

[1]- طرفة بن العبد: الديوان، ص69.
[2]- م ن، ص ن.
[3]- م ن، ص121.

حمل تقريبا رؤية مشابهة لطرفة، في "تتبع العساكر طمعًا في لحوم القتلى، وقد يعتريها من النقل عند شبعها من لحم الصيد ما يمنعها من الطيران"[1]

فالشاعر يتحدث في هذا البيت عن قتالهم لأعدائهم مفتخرا بذلك، بأنه من يقدم رؤوس الأبطال القتلى للعقبان، ولا يقتل هؤلاء الأبطال إلا مقاتل خارق للعادة، ولعل طرفة يتشبث بالعقاب في قوته وشراسته في القتال، ليعتبر العقاب في شعره رمزا للقوة والبطولة والانتصار على العدو.

فالشعراء كطرفة أو غيره قد عمدوا إلى استجلاب صورة العقاب "مبرزين قدرة هذا الحيوان وقوته وشدة بطشه مطابقين هذه الصورة مع صورتها المرسومة في أذهانهم"[2]

أسقط طرفة على العقاب أجواءه النفسية، من شجاعة وصمود وتحدي المخاوف، مبرزا عزَّة انتصاره على صورة العقاب لحظة نبشه لحوم القتلى، ليتصل ذلك ببطولاته وقوته في القتال، فكان العقاب يعبِّر عن بسالته وشجاعته في ساحة القتال.

4-3-رمزية النسر:

النسر من أصناف الطيور الجارحة، التي استنهضت نفوس الشعراء واختطفت أنظارهم، فشبهوا به كل ماهو ضخم وكبير، وكل شيء عظيم شبهوه بالنسر في جوانب مختلفة، وغالبا ماتجلت صورة النسر في حالات الحرب والقتال لدى الشعراء، و"النسر طير ثقيل عظيم شره رغيب نهم، فإذا سقط على الجيفة وتملأ لم يستطع الطيران وثبات حتى يشب وثبات ثمّ يدور حول مسقطه مرارا ويسقط في ذلك"[3]، والنسور أغلب غذاءها على الجيَف، إذ يرتبط بأكل جيَف القتلى في حال الحرب والقتال.

وذكر طرفة النسر عندما كان يعيش لحظات وصف الناقة، و إبراز تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، فشبه حينها ذنب الناقة بجناحي نسر كبير يميل إلى البياض ،كرمز للضخامة والعظمة والارتفاع، في قوله:

كأنَّ جَنَاحَيْ مضْرَحِيٍّ، تكَنَّفَ حِفَافَيْهِ، شُكَّا في العَسِيبِ بِمسْرَدِ[4]

---

[1]- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص178.

[2]- م ن، ص ن.

[3]- م ن، ص 184.

[4]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 30.

فجاء النسر كمشبه به للناقة في ارتفاعها وضخامتها وعُلُوها المدهش، كرمز للكبر والضخامة، وهنا تتجلى لنا مخيلة الشاعر القوية، التي تحاكي ذاته الخفية، فتستجيب لخياله الذي يتحكم في إظهارها والكشف عنها بصور بلاغية وجمالية، أعلنت عن المستجدات الفكرية والحسية المتبلورة في عبارات رمزية، استوردها من عمق مشاعره التي أسقطها في صورة ذلك الحيوان–النسر– في رموز مختلفة استوحاها من همسات مشاعره وذاته، التي تميل إلى القوة والشجاعة و البقاء، تلك الرموز كشفت عن مقدرته اللغوية والبلاغية والخيالية، راجع على فطرته على الشعر.

و يبقى الشاعر في وصفه مستعينا بخياله الفني، ومعتقدات العرب الجاهلية وأساطيرهم، ليربط صورة النسر بالحياة الطويلة، والخلود وطول العمر، فيقول:

أَلَمْ تَرَ لُقْمَانَ بن عادٍ، تَتَابَعَتْ عَليهِ النُّسُورُ ثُمَّ غَابَتْ كَواكِبُهْ[1]

لقمان هو شخص وصفه طرفة بالنسر،كرمزية لطول العمر، لأنه شخص تمنى الخلود، أي أن يعيش طويلا وللأبد، ومعنى البيت كما جاء في أحد الروايات أنه؛ « قيل للقمان بن عاد: اختر لنفسك إلاّ أنه لاسبيل على الخلود، فقال: يارب اعطني عمراً، فقيل له:اختر فاختار عمَر سبعة أنسر، فعمَّر–فيما يزعمون– عُمرَ سبعة أنسر، وكان يعيش كل نسر ثمانين سنة، فلما مات السابع مات لقمان معه» ارتبط النسر في معتقدات العرب وأفكارهم الجاهلية بالعمر الطويل، وبالأشخاص الذين يتمنون تحقيق الخلود.

إن سرّ الخلود يتجلى في صورة النسر، التي استحضرها طرفة، كشخص يتصارع مع أقدار الحياة ليجعل الموت بعيدا عن مصيره،ويجعل ذاته مرتبطة بديمومة الحياة واستمرارها، لكننا لا نعلم بالضبط ماهو الخلود في نظر طرفة؟ أهو الخلود الجسدي أم الخلود الروحي ؟،ليجعل من نفسه شخصا مهما في الكون تتداوله أحاديث الناس في الروايات والأساطير، ربما طرفة أراد الخلود بأفعاله وأعماله، عارفا أن مصيره الجسدي هو الفناء، لهذا هو يكافح، ويواجه عراقيل الحياة باستعداد كبير، ليثبت أساس وجوده، بقيمه السامية وأفعاله التي لاتموت، لتبقى متجددة على طول السنين، ويعد الخلود مصدرا لإرادة طرفة وأفكاره المتمحورة حول تحقيق الأنا وإثبات الذات، معتقدا أنه سيعمر طويلا في الأرض، منسلخا من الواقع إلى العالم المفقود تحت سقف المجهول، و المتمثل في المدينة الفاضلة التي سكنت أحلام الشاعر، إلا أن ذلك لم يتحقق، فكانت الغلبة لقدر الموت، دون أن يصل إلى أفق أحلامه.

[1]– طرفة بن العبد: الديوان، ص 146.

إلا أن طرفة في نظرنا قد حقق الخلود بشهرته الفائقة في الشعر الجاهلي، فبقي حيا مستمرا ذيع صيته على مرّ القرون، ليغزوا مكانة عالية في الشعر، وبهذا نعتبره قد حقق مبتغى إرادته في صورة النسر الذي يعتبر رمزا للخلود والبقاء والإستمرار، وفرض الذات ، وبالتحديد فطرفة حقق ذاته وخلوده بفضل أدبه وشعره، فبقي حياً إلى يومنا هذا.

4-4- رمزية القُبَّرَة:

ومما ذكره طرفة في شعره طائر القُبَّرة، وهي نوع من الطيور التي عرفها الإنسان العربي، وتغنى بها الشعراء في قصائدهم، وتشتهر بتغريدها عند الطيران، كما أنها تعيش في الأماكن الصحراوية، و«القُبَّرُ: جنسٌ من الطيور من فصيلة القُبَّرِيات، ورتبة الجواثم المخروطية المناقير، سُمرٌ في أعلاها، ضاربة إلى بياض في أسفلها وعلى صدرها بقعة سوداء، واحدته:قُبَّرَةٌ»[1]

واشتهرت القُبَّرة في أشعار الجاهليين، حيث قال طرفة بن العبد:

يالَكِ مِنْ قُبَّرَةٍ بمَعْمَرِ

خَلَا لكِ الجَوُّ فَبِيضِي و اصْفِرِي

ونَقِّرِي مَا شِئْتِ أنْ تَنْقُرِي

قَدْ رَحَلَ الصَّيادُ عَنْكِ فَابْشِرِي

و رُفِعَ الفَخُّ فمَاذَا تَحْذَرِي ؟

لاَ بُدَّ مِنْ صيدِكِ يَوْمًا فاصْبِرِي[2]

الشاعر في هذه الأبيات رأى طائر القُبَّرَة على مايبدو ناجٍ من شباك الصياد، فيقول ياالك من طائر طويل العمر، هذا لأنه نجى من الصيد بأعجوبة، فهو ينادي على هذه القبرة بتعجب شديد، فيقول لها لقد خلا لك المكان والجو من الخطر، وبالتالي فلتشعري بالأمان والاستقرار، ولتبيضي في عشك، وباستطاعتك الآن التغريد و

[1]- مجمع اللغة العربي: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 2004م، مادة القُبَجْ.

[2]- طرفة بن العبد: الديوان، ص 158.

الطيران، وأن تنقري الأرض بمنقارك، كما تشائين، بما أن هذا الصياد قد رحل عنك، فابشري فأنت بمأمن بعيدة عن الخطر لأن الصياد قد أزال الفخ الذي كان قد صنعه للصيد، ولا يوجد شيء يخاف منه هذا الطائر، لكنه سيقع يوما في شباك الصياد، حتى لو نجا منها مرة أو مرات، سيأتي اليوم الذي سيقع فيه فريسة لايمكنها النجاة مرة أخرى.

ويعتبر طائر القُبَّرَة هنا رمزا للنجاة المؤقت الغير الدائم، وبالتالي هذه الأبيات تحمل معنى أعمق بكثير هو إن الضعيف لابد أن ينال منه القوي، كما أن الهروب من الخطر وعدم مواجهته لا يعني النجاة الدائم، ويمكن أن طرفة يقصد فلسفة الموت والحياة بشكل عام، والطائر هو الإنسان، وشباك الصيد هي الموت، وهي من أسبابه، وهذا الإنسان الهارب بروحه، إذا أفلته الموت مرة فلابد أن يهلك يوماً ما بمصيدة، أو سبب آخر ينهي حياته إلى الأبد، بمعنى أن هذا الطائر يجسد صراع الإنسان مع الموت، ومحاولة النجاة واحتضان سبل الحياة بعيدا عن قدر الموت، لكنها تبقى مجرد أوهام يتعلق بها الإنسان مع أنه في داخله يؤمن بفكرة الفناء و الموت، وتتجلى لنا رمزية هذا الطائر في كونه رمزا للصراع من أجل البقاء، كما أنه رمز التعلق بالحياة، والنجاة بالنفس من مهالكها وهذا الطائر يفسر جدلية الموت والحياة في شعر طرفة.

الخاتمة

بهذا نكون أنهينا بحثنا هذا، وقد تم التوصل من خلاله إلى جملة من النتائج كانت حوصلة شاملة لما قدمناه في دراستنا، وأهمها:

1- حفل شعر طرفة بن العبد بمختلف الرموز في وصف الحيوان، التي تحمل أبعادا نفسية وفكرية واجتماعية.

2- إعتمد طرفة بن العبد على تقنية الوصف من أجل بعث رموز متعددة لصورة الحيوان، حيث لم يكتف الشاعر بالوصف السطحي فقط بل نجده تغلغل في الأعماق النفسية والشعورية لذلك الحيوان.

3- رمزية الحيوان في شعر طرفة تميّزت بتراكيب جمالية، ولغة شاعرية، وبأسلوب قام على الإغراب والإدهاش والغموض بدرجة اكبر.

4- احتوى وصف الحيوان في شعر طرفة على رموز إيحائية تعبيرية، مارست لعبة الإضمار والتعقيد وإخفاء المعنى الأصلي و الحقيقي.

5- رمزية الحيوان في شعر طرفة أهم ما ميزها: الإيجاز وعدم الإطناب، الغموض والإيحاء، التلميح بدل التصريح، الغير مباشرة في التعبير.

6- لعبت رمزية الحيوان عند طرفة دورا فنيا بلاغيا، بالوقوف على أسرار البيئة الجاهلية وحيواناتها معتمدا على لغة التصوير الفوتوغرافي الدقيق، أبرز من خلالها الشاعر الارتباط الروحي والمعنوي بالحيوانات، خاصة الناقة والفرس، برموز تعبيرية لها إيحاءات فنية وتشبيهات بلاغية مثلت رمز الحيوان الذي افتتن به الشاعر.

7- لجأ طرفة بن العبد إلى توظيف الحيوان ببراعة فنية، لأنه يمثل إسقاط لعالمه النفسي، ويعبر به عن مشاعره وأحاسيسه الصادقة، ويستجيب لقلقه وتوجساته المتعلقة بالقدر والصراع من أجل الوجود.

8- قدرة الشاعر على تصوير الحيوان، كشفت عن زوايا غامضة في نفسيته وما يكتنفها من تساؤلات حول الموت والفناء، الوجود والقدر، كلها توحي بواقعه الداخلي المضطرب .

9- من أهم الحيوانات التي لقيت حضورا رمزيا مكثفا في شعر طرفة بن العبد، نجد الناقة والفرس حيث اعتنى بوصفهما في صور رمزية، تجسد السياق النفسي والاجتماعي والبيئي لحياة الشاعر.

10- نلمس حضورا محتشما أو يكاد ينعدم لبعض الحيوانات الوحشية والطيور، التي لم تنل نصيبا وافرا من الأهمية والوصف في نصه الشعري، لكنها عبّرت عن معاني مضمرة تحت أجنحة رمزية متعددة، صنعت لنا تميز الشاعر وتفرده عن بقية الشعراء الجاهليين.

11- أتقن طرفة فن الرسم بالكلمات ولغة الرموز الحيوانية، والتي أظهرت قدراته الخيالية، وبراعته اللغوية والبلاغية حيث:

- عبّرت الناقة عن رمزية الحركة والتنقل واستمرار الحياة، كما أنّها رمز للنشاط والسرعة، فطرفة جعل من الناقة معادله الموضوعي، في رغبة البقاء و ديمومة الحياة وممارستها بشكل يبعث بأمل أفضل، من أجل معانقة عالمه المفقود الذي يتأرجح في مخيلته، فرسمه في صور ومشاهد مختلفة للناقة بألوان رمزية تعبر عن معاني الصبر والتحمل والأمل والإرادة الوجودية، فجاءت رموزا تشعُّ ببريق الأمل بالحياة الفاضلة، حيث عبّرت عن فلسفة الحياة والموت في شعر طرفة بن العبد.

- أما في صورة الفرس فرسمه لنا برموز إيحائية استوحاها من خياله الشعري، عبّرت عن توحّد الشاعر مع الفرس الذي يمثل رمز الشجاعة والمقاومة،والانتصار، ومكافحة القدر، كما أنّه يحمل رمزية الجمال والكمال و الرشاقة والصمود، أمام عقبات الحياة، محاولا التغلب على لعبة الفناء، مصرا على أبدية البقاء حيا لتحقيق طموحاته.

- في رمزية الحيوان الوحشي لم يسرد لنا طرفة قصص تلك الحيوانات التي تداولها الشعراء في قصائدهم، وإنّما كان حضورا قليلا، وهذا راجع لعدة عوامل واحتمالات منها: أن هذه الحيوانات لم يتكرر لقاءه بها في طريق رحلته، أو أنها لم تطل الوقوف أمامه، والأهم أن وجود تلك الحيوانات في شعره يعود لرغباته النفسية والشعورية في تلك اللحظة علما أن الشاعر خاضع لأوامره ورغباته الحسية والنفسية، فكان وصفه للحيوان الوحشي قليلا جدا، وهذا يدل على مدى الصدق الفني في نصوص طرفة بن العبد.

- أما رمزية الطير في النص الطرفي يكاد ينعدم، فالطيور التي ذكرها طرفة كانت النعام، النسر، العقاب، القُبَّرَة، لم يعطها حقها الكامل من الوصف، إلاّ أنّها عبّرت عن جوانب مختلفة للشاعر، استدعته إلى استحضار هذه الطيور في مواضع تناسبها تتماشى مع أفكاره و رغباته النفسية.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم).

أولا: المصادر

أ-المصادر الأساسية:

1-طرفة بن العبد:ديوان طرفة بن العبد، شرح: الأعلم الشنتمري، تح: درية الخطيب ولطفي السقال، المؤسسة العربية،البحرين، إدارة الثقافة والفنون،بيروت، لبنان، ط2، 2000م

ب-المصادر المساعدة:

2-إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية، صفاقس، تونس،(د ط)، 1986م.

3-ابن سلام الجمحي(أبي عبد الله محمد): طبقات فحول الشعراء، تح: عمر فاروق الطّباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997م.

4-أبي زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، شرح: عمر فاروق الطّباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، (دط)، (دت).

5-الأسود بن يعفر: ديوان الأسود بن يعفر، صنعه: نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام،(دط)،1970 م.

6-امرئ القيس: ديوان امرئ القيس، صححه: مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2004م.

7-بشر بن أبي خازم الأسدي: ديوان بشر بن أبي خازم ، تح: عزة حسن، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، (د ط)، 1960م.

8-تأبط شرا: ديوان تأبط شرا، شرحه وحققه:علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، المغرب، ط1،ط2، 1984م، 1999م.

9-الجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر)، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر، ط2، 1969م.

10-الدميري (كمال الدين محمد بن موسى): حياة الحيوان الكبرى، تح: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط1، 2005م.

11-الزوزني: شرح المعلقات السبع، شرح: أحمد أحمد شتيوى، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2009م.

12-الشنفرى: ديوان الشنفرى، حققه وشرحه: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م.

13-عبيد بن الأبرص: ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م.

14-عنترة بن شداد: شرح ديوان عنترة بن شداد، صححه: أمين سعد، المكتبة التجارية، مصر، (د ط)،(د ت).

15-المتلمس الضبعي: ديوان المتلمس الضبعي، شرحه: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، (د ط)، 1970م.

16-المرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى): معجم الشعراء، تح: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط1، 2005م.

17-المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6،(د ت).

18-النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، شرح: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1991م.

ثانيا: المعاجم:

19-ابن منظور(أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د ت).

20-الفراهيدي (الخليل بن أحمد): معجم العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

21- الفيروزآبادي((مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، تح: أبو الوفاء نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2008م.

22- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 2004م.

ثالثا: المراجع:

أ-المراجع العربية:

23-أحمدموسى النوتي: الصحراء في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2009م.

24-أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014م.

25-إسماعيل محمد عبد العاطي: الأسطورة والرمز في الشعر العربي القديم، نهضة مصر، ط1، 2006

26-بسّام الجمل: من الرمز إلى الرمز الديني بحث في المعنى والوظائف والمقاربات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، ط1، 2007م.

27-تسعيدات آيت حمودي: أثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم، دار الحداثة، لبنان، بيروت، ط1، 1986م

28-جميل ناصف التكريتي: المذاهب الأدبية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1990م.

29-جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط2، 1933م.

30-حسن مسكين: الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.

31-حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 2003م.

32-حسين الحاج حسن: أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط3، 1997م.

33-حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي(الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986م.

34-حنا نصر الحتي: الناقة في الشعر الجاهلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.

35-زغلول راغب محمد النجار: الحيوان في القرآن الكريم، العبيكان، الرياض، ط1، 2012م.

36-زكريا عبد المجيد النوتي: الذئب في الأدب القديم، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م.

37-السعيد بوسقطة: الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر(د ط)، 2008م.

38-سمير الدروبي: الرمز في مقامات السيوطي "مقامة الرياحين أنموذجا"،دار البشير، عمان، ط1، 2001م.

39-شاكر هادي شكر: الحيوان في الأدب العربي، مكتبة النهضة العربية، عالم الكتب، ط1، 1985م.

40-طه حسين: حديث الأربعاء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د ط)، (د ت).

41-عاطف جودة نصر: الرمز عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1978م.

42-عبد الإله الصائغ: الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، دار الفكر المعاصر، صنعاء، ط1، 1999م.

43-عبد الرزاق الأصفر: المذاهب الأدبية لدى الغرب، اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د ط)، 1999م.

44-عبد الله الفيفي: مفاتيح القصيدة الجاهلية نحو رؤية نقدية جديدة، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ط1، 2001م.

45-عبد المالك مرتاض: السّبع المعلقات، دار البصائر، الجزائر، (د ط)، (د ت).

46-عفيف عبد الرحمان: معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، دار المناهل، بيروت، ط1، 1996م.

47-علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار المصرية، القاهرة، ط1، 2004م.

48-عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، دار جهينة، عمان، (د ط)، 2006م.

49-عمر عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، ط1، 2009م.

50-غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي: قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002م.

51-فايز علي: الرمزية والرومانسية في الشعر العربي من امرئ القيس إلى أبي القاسم الشابي، دراسة في علاقة الشعر بالأسطورة.

52-فوزي أمين: دراسات في الشعر الجاهلي، دار المعرفة، مصر، (د ط)، 2007م.

53-قصي الحسين: شعر الجاهلية وشعراؤها، المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان، ط1، 2006م.

54-محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءة السياقية، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، (د ط)،2004م.

55-محمد عبد المطلب: قراءة ثانية في شعر امرئ القيس، الشركة المصرية، لونجمان، مصر، ط1، 1996م.

56-محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، (د ط)، 1971م

57-محفوظ كحوال: المذاهب الأدبية الكلاسيكية- الرومانتيكية- الواقعية- الرمزية- الدادية- السوريالية- الوجودية، مكتبة نوميديا، قسنطينة، (د ط)، (د ت).

58-مسعد بن عيد العطوي: الرمز في الشعر السعودي، مكتبة التوبة، الرياض، ط1، 1993م.

59-مسعد بن عيد العطوي: الغموض في الشعر العربي، مكتبة الملك فهد، تبوك، السعودية، ط2، 1995م.

60-مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب: مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د ط)، (د ت).

61-مصطفى عبد الشافي الشوري: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، (د ط)، 1996م.

62-منذر ذيب كفافي: الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2002م.

63-موهوب مصطفاوي: الرمزية عند البحتري، الشركة الوطنية، الجزائر، (د ط)، 1981م.

64-نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، الاتباعية، الرومانسية، الواقعية، الرمزية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، 1984م.

65-نوري حمودي القيسي وآخرون: تاريخ آداب العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بغداد، (د ط)، 1979م.

66-نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1970م.

67-نوري حمودي القيسي: الفروسية، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1964م.

68-وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، الكويت، مارس، 1996م.

69-يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، (د ط)، (د ت).

ب-المراجع المترجمة:

70-أنّا بلكيان: الرمزية دراسة تقويمية، تر: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1995م.

71-تشارلز تشادويك: الرمزية، تر: نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتب، (د ط)، 1992

رابعا: الرسائل الجامعية:

72-جواهر محمد فايز الشهري: صورة أمومة الحيوان في الشعر الجاهلي، (مخطوط ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 2014م.

73-سعد عبد الرحمان العرفي: سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي، دراسة في المضمون والنسيج الفني، (مخطوط دكتوراه في اللغة العربية وآدابها)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1426هـ.

74-نهى محمود نايل: الدلالات الرمزية والقيم الفنية لتيجان الآلهة في النقوش المصرية القديمة (مخطوط ماجستير)، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، مصر، 2003م.

75-نور سلمان: معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، (رسالة مقدمة لنيل شهادة أستاذ في العلوم)، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1954م.

خامسا: المجلات:

76-مجلة إبداع، مصر، العدد 12، 1997م.

77-مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد49، 2008م.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
شكروعرفان	
مقدمة	ب
فصل تمهيدي:الرمز والرمزية قراءة في المفهوم والنشأة والخصائص	
أولا: مفهوم الرمز وأنواعه وأغراضه	2
1- مفهوم الرمز	2
1-1- لغة	2
1-2- الرمز اصطلاحا	3
1-2-1- عند العرب	3
1-2-2- عند الغرب	7
2- أنواع الرمز	10
2-1- الرمز الديني	10
2-2- الرمز الأسطوري	11
2-3-الرمز الذاتي	12
3- أغراض الرمز	13
ثانيا: مفهوم الرمزية الأدبية	16
1-عند الغرب	16
2- عند العرب	18
ثالثا: نشأة الرمزية الأدبية و أهم أعلامها	20
1 – عند الغرب	20
2- عند العرب	24
رابعا: خصائص الرمزية	27
خامسا: حضور الرمزية في الشعر الجاهلي	28

الفصل الأول: رمزية الحيوان في الشعر الجاهلي	
أولا: رمزية الناقة في الشعر الجاهلي	31
ثانيا: رمزية الفرس في الشعر الجاهلي	43
ثالثا: رمزية الحيوان الوحشي	53
1- رمزية البقر الوحشي	56
2-رمزية الثور الوحشي	61
4- رمزية الذئب	69
رابعا: رمزية الطير	74
1-رمزية النعام	74
2- رمزية البوم	81
3- رمزية الغراب	81
الفصل الثاني: الدلالات الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد	
أولا: طرفة بن العبد	84
1- اسمه ونسبه	84
2- حياته (مولده ونشأته)	85
3- وفاته	86
4- عقيدته	88
ثانيا: شعره	89
ثالثا: قراءة في المعاني الرمزية للحيوان في شعر طرفة بن العبد	94
1- رمزية الناقة	94
2- رمزية الفرس	105
3-رمزية الحيوان الوحشي	116
3-1-رمزية البقرة الوحشية	116

3-2-رمزية الثور الوحشي	117
3-3-رمزية الحمار الوحشي	118
3-4-رمزية الذئب	120
3-5-رمزية الأفعى	121
3-6- رمزية الثعلب في شعر طرفة	123
3-7- رمزية الظبي	125
4- رمزية الطير	126
4-1- رمزية النعام (الظليم)	126
4-2- رمزية العقاب	128
4-3- رمزية النسر	128
4-4- رمزية القُبَّرَة	130
خاتمة	132
قائمة المصادر والمراجع	135
فهرس المحتويات	143

ملخص البحث

في دراستنا هذه حاولنا الإحاطة بأشعار طرفة بن العبد، بمدلولاته الرمزية المختلفة والتي ارتبطت برمز الحيوانات المختلفة، فعمدنا إلى استظهار الأشعار التي احتوت وصف الحيوان في نصوصه الشعرية، وتقديم تأويلات دلالية تعبر عن المعاني الرمزية والدلالية للحيوان في شعره خاصة الناقة والفرس التي أخذت دورا تمثيليا أكبر في النص الطرفي على خلاف بعض الحيوانات الأخرى التي جاء وصفها بصورة خاطفة وسريعة، لكنها جسدت لنا أبعاد النص الطرفي، وكشفت عن علاقة الشاعر بتلك الحيوانات التي تحاكي أحاسيسه، ومشاعره وإعطائها بعدا رمزيا دلاليا يتماشى مع حياة الشاعر في ظل البيئة الجاهلية.

الكلمات المفتاحية:

الرمز، الرمزية، طرفة بن العبد، الإيحاء، التلميح، الغموض، التعقيد، الشعر الجاهلي، الناقة، الفرس، الحيوان الوحشي، الطير، شبه الجزيرة العربية، البيئة الصحراوية.